تقريب التراث

(٦)

تأويل مُشكِل القرآن

لابن قتيبة

(٢١٣ — ٢٧٦ هـ)

إعداد ودراسة

الدكتور عمر محمد سعيد عبد العزيز

إشراف ومراجعة

الدكتور عبد الصبور شاهين

الطبعــة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهــرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

المحتويات

المحتويات

الصفحة

تصـــــدير

هذا هو الكتاب السادس فى سلسلة « تقريب التراث » ، وهو — كما يرى القارىء الكريم — يضع بين يديه أثرا من أجل الآثار فى تاريخ الدراسات القرآنية : « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة الدينورى ، الذى ولد عام (٢١٣ هـ) ، وتوفى عام (٢٧٦ هـ) ، أى إنه عاصر أعظم فترات الازدهار فى تاريخ العقل الإسلامى ، إبان الدولة العباسية الأولى .

وبدهى أن يكون مستوى الكتاب من مستوى عصره ، والعصر والكتاب يقدمان لنا عالما فذا فى مجال الثقافة العربية الإسلامية ، تفرد بلون من ألوان التأليف ، كان فيه الرائد المتفنن ، والطليعة السابق الذى لا يشق له غبار فى مجال الإعجاز القرآنى .

ويكاد ابن قتيبة فى كتابه هذا أن يكون تعبيرا متقدما عن مجموعة من معارف العصر الذى جاء بعده ، وتمثيلا لكوكبة من علمائه ومفكريه ، بحيث استطاع أن يعالج نصوص القرآن معالجة تشى بمحاسن مصادره ، وإن كانت فى التأليف بينها صورة من إبداعه واقتداره ، بل واجتهاده الذى لم يسبقه إليه أحد من معاصريه ، وكان من ثمراته نضج علوم البلاغة ، قمة علوم تفسير القرآن ، وإعجازه البيانى .

وحسبك أن تقرأ أنه تلمذ لأبى عثمان الجاحظ ، فتحسبه كان ينحو منحاه فى الاعتزال ، وهو عن منحى أستاذه جد بعيد ، فقد كان يذهب مذهب أهل السنة ،

من أهل الاعتدال ، مدافعا عن مواقفهم من النصوص القرآنية ، بروح الإيمان العميق ، وبمنطق الفنان المتمكن من صنعته ، وبمنهج العالم البارع فى تصنيفه ، مع استقرار واضح فى مجموعة المصطلحات التى صارت بعد ذلك محور الجدل العلمى ، والخلاف المذهبى .

ولسوف يلاحظ القارىء أن الموضوعات التى قربها هذا الكتاب واضحة فى فكرتها ، وفى عنوانها ، ناصعة فى منهجها وفى بيانها ، وكذلك الشأن فى كل أقسام الكتاب وموضوعاته ، مما لم يرد فى هذا التقريب .

ولعل هذا هو السبب فيما واجه الأستاذ عمر عبد العزيز — الذى تولى إعداده — من متاعب ومشقات ، فقد جهد أن يبحث عن نواح خفية فى المعالجة ، يمكن أن يضيفها إلى النصوص ، خدمة للقارىء الكريم ، وتزويدا له بمعارف جديدة ، أو ملاحظات مفيدة تقريبا للنصوص ، وتوضيحا لمضمونها .

وتلك تجربة فريدة فى الواقع ، فقد بان منها أن غموض النصوص ، وصعوبة المنهج ، يزودان الدارس بمادة ثرَّةٍ للحديث ، ويمكنانه من إضافة الكثير من الكلام ، دون كبير عناء ، لما يشعر به من ضرورة توضيح الغموض ، وتحديد المراد .

أما دقة النصوص ، ووضوحها ، فإنهما يضعان الدارس فى حيرة ، ويضيقان أمامه مذاهب القول والملاحظة ، ولذلك أشهد أن معد هذا الكتاب أنفق جهدا مضاعفا فى إعداده ، كيما يقدم للقارىء هذا الاختيار ومثله معه من التعليقات والتحقيقات ، والتخريجات ، بالإضافة إلى ما أفاد من محقق الكتاب الأستاذ السيد صقر ، عليه رحمة الله ورضوانه .

فإذا قرأنا مقدمة هذا التقريب لمسنا جهدا غزيرا فى تقديم الكتاب ، وفى تقديم النصوص أيضا ، فقد كان من الضرورى أن يوضع بين يدى كل باب من الأبواب المختارة بيان يشرح فكرته ، ويكشف عن قيمته البلاغية ، أو أهميته النقدية ، أو فائدته اللغوية ، وذلك — فى حد ذاته — تأليف مستقل اضطلع به الدارس ، وقد احتذى فيه ما سبق من تجربة هذا المنهج فى تقريب (الرسالة) للإمام الشافعى ، وهو الكتاب الثالث فى هذه السلسلة .

وعلى أية حال ، فإن لكل كتاب طريقته التى تفرض على تقريبه أسلوب المعالجة الخاص به ، وقد اختلف هذا الأسلوب من كتاب لآخر فى سلسلة (تقريب التراث) ، التى قمت بالإشراف عليها ومراجعتها حتى الآن .

وأكاد أمضى إلى حد القول بأن مهمة تقريب النصوص وتحقيقها والتعليق عليها تقتضى من الجهد ما يفوق مهمة التأليف أحيانا ، إذا ما أخذ العمل مأخذ الجد ، وهو أمر يعرفه الذين يعملون فى مجال التحقيق ، أو الترجمة ، مع أن عصرنا لا زال ينظر إليهما نظرة دون المستوى ، بل إن اللجان العلمية لا تعتبرهما عملا علميا إلا إذا صحبتهما دراسات مستقلة تمثل وجهة نظر المحقق أو المترجم ، وهو موقف غير سديد ، يحتاج إلى مراجعة تضع الأمر فى نصابه ، وترد الحق إلى أصحابه .

وإنى لأرجو أن تبلغ الأعمال العظيمة التى نقربها إلى قرائنا ما نرجو لها من عمق التأثير ، وسعة الانتشار ، بقدر ما حرصنا على أن نوفر لها من حسن المعالجة ، ودقة الأداء .

عبد الصبور شـــاهين

القسم الأول : المؤلف والكتاب



عصر ابن قتيبة

(أ) السياسة

انتصر المأمون على أخيه « الأمين » ، وأصبح سابع خلفاء بنى العباس (١٩٨ هـ) . ولكن التركة التى تسلمها كانت مثقلة ، ومليئة بالمتاعب والأحداث . فانشغاله فى حروبه ضد أخيه هيأ الفرصة للساخطين ، وأعداء الدولة . وانتصاره بسيوف الفرس أثار العرب ، وانتقاله من خراسان إلى بغداد أثار الفرس .

وهكذا هبت حركات متعددة فى وجه المأمون ألزمته أن يبذل جهدًا كبيرًا طيلة خلافته ليداوى الصدع الذى قدر عليه أن يقابله . وهكذا شهد عصر المأمون : ثورة بغداد ، وثورة نصر بن شبث ، وحركات الزط المدمّرة ، وثورة المصريين . وغيرها من الأحداث والثورات[١] .

واجه المأمون كل هذه الأحداث ــ أحيانا ــ بالقوة ، وأحيانا باللين والحكمة . فهو إن كان قد جرد جيشه لقمع هذه الثورات ، فقد أخذ بسياسة إرضاء الطوائف ولا سيما طائفة العلويين . فنجده يرسل أحد نوابه إلى المدينة المنورة ليحث العلويين المقيمين بها على الرحلة إلى « مرو » حيث كان يقيم . ففعلوا ، واستقبلهم بترحيب عظيم ، وخص زعيمهم « عليا الرضا » بالإجلال والتكريم[٢] .

---

(١) د . حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ، والاجتماعى جـ ٢ . ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) د . محمد حلمى : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ، ص ٥٧ .

كما قصد « المأمون » إلى إيجاد نوع من التوازن بين الفرس الذين تفاقم نفوذهم وسلطانهم — آنذاك — ، وبين العرب الذين اشتد قلقهم بعد فشل جهودهم التى حاولوا بها استعادة مكانتهم فى الدولة ، وهى المحاولة التى انتهت بمقتل الأمين . لذلك رأيناه يستقدم عددا محدودا من الأتراك ، الذين خبرهم منذ كان مقيما فى خراسان ، ويلحقهم بجيشه[3] .

وقد أخذ عدد هؤلاء يتزايد فى عصر أخيه المعتصم (٢١٨ هـ — ٢٢٧ هـ) والذى اطمأن إليهم وأسند إليهم كثيرا من المناصب العليا فى الدولة . ورغم هذا فإن شخصية « المعتصم » لم تدع للأتراك فرصة الطغيان . وكذلك لم يستطيعوا فى عهد « الواثق » (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) ابنه أن يستبدوا بالأمر . لكنهم بعد « الواثق » أخذوا يزحفون إلى السلطة الكاملة فكان لهم منها نصيب كبير فى عهد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) . ثم اكتمل سلطانهم فى عهد المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) ومن بعده .

وهكذا عملت هذه الأحداث والثورات ، وما صاحبها من غلبة النفوذ التركى على تزايد نشاط الحركات العنصرية ، والمذهبية المختلفة . كما أدت إلى استمرار انقسام الدولة الكبرى إلى دويلات تحاول التخلص من السيطرة المباشرة للخلافة ورجالها من الأتراك[4] .

(ب) الثقـــافـــة

بدأت دولة الإسلام تستقر — فى عصر بنى العباس — بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التى كانت طابع العصر الأموى . ومن المعروف أن الثقافة والنهضة العلمية تنتشر فى الأمة إذا هدأت واستقرت أمورها ، وانتظمت مواردها . وجل هذا قد توافر للأمة الإسلامية بعد قيام الدولة العباسية .

ونضيف إلى هذا أن « من ولى خلافة بغداد » فى تلك الفترة كانوا من الخلفاء العلماء ، فرغبوا فى العلم وأحسنوا وفادة أهله وشجعوهم عليه ، فانتعشت بغداد

---

(٣) السابق ، ص ٧٧ .

(٤) السابق ، ص ١٢٨ .

بمن فيها وبمن وفد عليها « وأصبحت ميدانا لحركة علمية فكرية واسعة تمثلت فى ثلاثة جوانب[٥] هى :

(١) حركة التصنيف .

(٢) تنظيم العلوم الإسلامية .

(٣) الترجمة من اللغات الأخرى .

أما حركة التصنيف فنعنى بها ترتيب ما دون ، وتنظيمه ، ووضعه تحت فصول محددة وأبواب مميزة . وقد شرع علماء المسلمين فى تصنيف الحديث واللغة والتفسير وكتب العربية والتاريخ . وأشهر من صنف فى هذا العصر : الإمام مالك الذى ألف « الموطأ » ، وابن اسحاق الذى كتب السيرة ، وأبو حنيفة الذى صنف الفقه والرأى ، والإمامان البخارى ، ومسلم صاحبا الصحيحين . وسيبويه صاحب « الكتاب » دستور النحو العربى ، وكثير غيرهم . وقد صاحب حركة التصنيف هذه حركة علمية أخرى لا تقل أهمية عنها ، وأعنى بها حركة تمييز العلوم التى تتعلق بالدين والقرآن بعضها عن بعض[٦] .

فقد شهد هذا العصر ميلاد علم تفسير القرآن الكريم ، وانفصاله عن الحديث . ونقول ذلك لأن التفسير قبل هذا العصر كان تفسيرا لآيات منفردة ، غير مرتبة حسب ترتيب السور . أمّا فى هذا العصر فقد تطور تطورا عظيما ، وأصبح متسلسلا شاملا .

كما اعتمدت النهضة العلمية فى هذا العصر على الترجمة من اللغات الأجنبية ، كالفارسية ، واليونانية ، والسريانية ، والهندية .

فقد اتجهت ميول الخلفاء إلى معرفة ما لدى الأمم الأخرى من علم وفن وأدب وفلسفة ، فعنى المنصور بترجمة الكتب ، ونقل له « حنين بن اسحاق » بعض كتب « أبقراط » و « جالينوس » فى الطب . كما نقل ابن المقفع كتاب « كليلة ودمنة » من الفهلوية . وترجم كتاب « السند هند » وكتاب « إقليدس » فى الهندسة . وغيرها كثير .

---

(٥) د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، جـ ٣ ، ص ٢٣٤ .

(٦) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ٢ ، ص ١٠ وما بعدها .

وقد زادت العناية بترجمة الكتب فى عهد « هارون الرشيد » . ولما جاء « المأمون » شيّد فى « بغداد » أول مجمع علمى ومعه مرصد ومكتبة وهيئة للترجمة . وفيه ترجمت أمهات الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية . وظل هذا المعهد يواصل نشاطه ، حتى بعد انتهاء العصر العباسى الأول[٧] عام ٢٣٢ هـ .

وقد أدت حركة الترجمة إلى حدوث نوع من الامتزاج بين الثقافات المختلفة . وكان لهذا أثره الواضح فى تناول قضايا العقيدة تناولا يعتمد ــ إلى حد كبير ــ على المنطق والأدلة العقلية .

---

(٧) د . حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦ .

حيـــاتــه وآثــــاره*

نســـبه ومـــولـده

هو : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة[1] الدينورى[2] . ولد فى سنة ٢١٣ هـ ــ ٨٢٨ م لأب فارسى من مدينة « مرو » حاضرة خراسان .

ولا تذكر كتب التراجم شيئا عن أبيه « مسلم » . وإن كان ابنه « أبو محمد » يذكر فى بعض كتبه كالمعارف و « عيون الأخبار » أنه قد تلقى عنه وتلمذ له .

---

* رجعنا فى ترجمته إلى :

(أ) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ص ٨٤ ، ٨٥ .

(ب) الفهرست لابن النديم . مكتبة دار المعرفة بيروت . ص ١١٥ .

(جـ) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، المجلد العاشر ، ص ١٧٠ .

(د) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، لابن الأنبارى تحقيق إبراهيم السامرائى ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(هـ) وفيات الأعيان لابن خلكان : تحقيق د . إحسان عباس . جـ ٣ ، ص ٤٢ .

(و) إنباه الرواة للقفطى : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(ز) البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير مطبعة السعادة جـ ١١ ، ص ٤٨ .

(ح) تاريخ الأدب العربى : بروكلمان . ترجمة د . عبد الحليم النجار ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ .

(ط) ابن قتيبة د . محمد زغلول سلام . دار المعارف .

(ى) تعريف بابن قتيبة ــ تأويل مشكل القرآن ــ مقدمة المحقق .

(ك) تعريف بابن قتيبة ــ المعارف ــ مقدمة المحقق .

(١) قتيبة : تصغير « قتبة » بكسر القاف ، وهى واحدة الأقتاب ، والأقتاب هى الأمعاء . وقالوا : إنه تصغير « قتب » وهو إكاف البعير (البرذعة) .
راجع : اللسان : مادة « قتب » .

(٢) الدينورى (بكسر الدال وسكون الياء ، وفتح النون والواو) : نسبة إلى مدينة « دينور » . ولى فيها ابنُ قتيبة القضاءَ وأقام فيها مدةً فنسب إليها .

والمؤرخون يتفقون على أن ابن قتيبة قد نشأ فى « بغداد » ولكنهم على خلاف فى تعيين البلد الذى ولد فيه .

فيذكر ابن النديم (ت ٣٢٨ هـ) وابن الأنبارى (ت ٥٧٧ هـ) أنه قد ولد فى الكوفة .

بينما يذكر « البغدادى » (ت ٤٦٢ هـ) و « القفطى » (ت ٦٠٦ هـ) أنه قد ولد فى بغداد .

ونكاد نميل إلى القائلين بأنه كوفى المولد ؛ إذ إنهم قد قالوا ذلك وهم يعلمون إقامته فى بغداد ، ويعلمون أن أباه ليس بغداديا ، وأن أسرته كانت غريبة على بغداد .

كما أن المتأمل لهذه الروايات وغيرها يلاحظ أن أسبقها — وهى رواية ابن النديم — هى التى تذكر أنه كوفى ، مولده بها .

وربما جاز لنا أن نوفق بين هذه الروايات فنقول إنه ولد فى الكوفة ولكنه لم يقم بها طويلا فانتقل فى صباه إلى مدينة بغداد وطالت إقامته بها حتى عد من أبنائها . ومهما يكن من شىء فقد أتاحت له الإقامة فى بغداد فرصة التزود من ينابيع الثقافة والعلم والوقوف على جل ما انتظمته الحضارة الإسلامية ، وما أبدعته العقول العربية وغير العربية فى عصر بنى العباس وما سبقه .

وقد كان ابن قتيبة على استعداد تام لاستيعاب هذه العلوم والثقافات ، فتاقت نفسه إلى أن يتعلق من كل علم بسبب ، وأن يضرب فيه بسهم . فها هو يحدث عن نفسه فيقول : « وكنت فى عنفوان الشباب ، وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلق من كل علم بسبب وأن أضرب فيه بسهم[3] » .

وقد اقتضاه ذلك أن يغشى مجالس علماء الحديث ، والتفسير ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والكلام والأدب والتاريخ . كما درس الفارسية ، وأجادها . ونقل عن الثقافة الفارسية .

وقرأ التوراة والإنجيل ، واقتبس منهما .

وهكذا امتزجت لديه الثقافات المختلفة وتناهت إليه المعارف المتنوعة .

---

(٣) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٤ .

وفـــاتـــه

وقد أنفق « ابن قتيبة » الشطر الأكبر من حياته فى « بغداد » . يطلب العلم ، ويتولى التدريس فيها ، ويعكف على التصنيف والتأليف . وتركها مدة قصيرة عمل فيها قاضيا لمدينة « دينور » بتزكية من أبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابنه المعتمد . ثم عاد من « دينور » إلى « بغداد » وأقام فيها حتى توفى عام ٢٧٦ هـ وفقا لما ذهب إليه كثير ممن ترجموا له ، نذكر منهم « ابن خلكان » و « ابن كثير » و « القفطى » .

كما أن هذه الرواية هى التى نقلها « الخطيب البغدادى » عن أبى القاسم إبراهيم ابن أيوب الصائغ ، وهو تلميذ ابن قتيبة ، وقد قص قصة وفاته مفصلة ، فهو أجدر أن تكون روايته أثبت من غيرها .

كما أن « قاسم بن أصبغ الأندلسى » وهو ممن أخذ عن ابن قتيبة ببغداد ، كانت رحلته إلى المشرق سنة ٢٧٤ هـ . وهو ما يدفع قول القائلين إنه توفى عام ٢٧٠ أو ٢٧١ هـ .

شـــيوخه

وقد تلمذ ابن قتيبة لطائفة من أعلام عصره ، وروى عن جمع من مشاهير دهره نذكر منهم ما يلى :

(١) والده « مسلم بن قتيبة » ، وقد أشار إلى ذلك فى كتابيه « عيون الأخبار » و « المعارف » .

(٢) أحمد بن سعيد اللحيانى ، صاحب أبى عبيد : القاسم بن سلام .

(٣) أبوعبد الله محمد بن سلام الجمحى البصرى ، صاحب « طبقات الشعراء » .

(٤) ابن راهويه : أبو يعقوب إسحاق بن ابراهيم (٢٣٨ هـ) وهو من أئمة الفقه والحديث . صحب الشافعى ، وناظره . وروى عنه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى .

(٥) حرملة بن يحيى التجيبى (٢٤٣ هـ) صاحب الشافعى .

(٦) القاضى يحيى بن أكثم (٢٤٢ هـ) .

(٧) أبو عبد الله : الحسين بن الحسين بن حرب السلمى المروزى (٢٤٦ هـ) .

(٨) دعبل بن على الخزاعى الشاعر (٢٤٦ هـ) .

(٩) أبو اسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادى ، تلميذ سيبويه ، والأصمعى ، وأبى عبيدة .

(١٠) أبو حاتم : سهل بن محمد السجستانى (٢٤٨ — أو ٢٥٥ هـ) .

(١١) محمد بن زياد بن عبيد الله بن زياد بن الربيع الزيادى (٢٥٢ هـ) .

(١٢) أبو عثمان الجاحظ (٢٥٤) .

(١٣) أبو الفضل : العباسى بن الفرج الرياشى ، تلميذ الأصمعى .

(١٤) أبو سهل الصغّار : عبدة بن عبد الله الخزاعى الكوفى نزيل البصرة .

(١٥) أبو سعيد : أحمد بن خالد الضرير .

(١٦) عبد الرحمن بن عبد الله بن قريب ابن أخى الأصمعى .

أفاد ابن قتيبة من هؤلاء ، ومن كثير غيرهم . وهم — كما ترى — ممن تعددت معارفهم وتنوعت علومهم .

تلامــــيذه

ومن جلس إليه، وتلقى عنه :

(١) ابنه ، أبو جعفر : أحمد بن عبد الله بن مسلم ، وهو أحد رواته ، قيل كان يحفظ كتب أبيه كما كان يحفظ القرآن .

وقد قرأ على أبى جعفر ، أبو على القالى ، كتاب « عيون الأخبار » و « أدب الكاتب » وقرأ عليه كتب أبيه كلها : أبو القاسم الآمدى ، وقرأ عليه أيضا : أبو القاسم : عبد الرحمن ابن اسحاق الزجاجى .

(٢) أحمد بن مروان المالكى (٢٩٨ هـ) ومما رواه عنه : كتاب تأويل مختلف الحديث .

(٣) أبو بكر : محمد بن خلف بن المرزبان (٣٠٩ هـ) .

(٤) أبو القاسم : إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ (٣١٣ هـ) .

(٥) أبو محمد : عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى السكرى (٣٢٣ هـ) .

(٦) أبو القاسم : عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمى (٣٣٤ هـ) .

(٧) الهيثم بن كليب الشامى (٣٣٥ هـ) .

(٨) قاسم بن أصبغ الأندلسى (٣٤٠ هـ) .

(٩) عبد الله بن جعفر بن دُرستويه الفَسَوى (٣٣٥ هـ) .

(١٠) أبو القاسم : عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد الأزدى (٣٤٨ هـ) .

(١١) أبو بكر : أحمد بن الحسين بن إبراهيم الدينورى .

(١٢) أبو بكر : أحمد بن محمد بن الحسن الدينورى .

(١٣) أبو عبد الله : محمد بن أبى الأسود (٣٤٣ هـ) .

(١٤) أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيبانى البغدادى (ت ٢٩٨ هـ) .

هؤلاء بعض تلاميذه ، وقد أغفلنا ذكر كثير منهم . وكل هذا مما يؤكد أنه كما كان يأخذ كثيرا ، كان يعطى كثيرا .

كتبـــــه

كانت تآليفه صورة صادقة لثقافته ، فجاءت متنوعة ، متعددة تشمل أغلب معارف عصره . وقد ذكر له صاحب الفهرست ، ثلاثة وثلاثين مؤلفا . وزادها « أبو العلاء المعرى » إلى ستين ونيف ، وبلغ بها آخرون ثلاثمائة كتاب .

وما أظن إلا أن فى هذا الرقم الأخير قدرًا كبيرًا من المبالغة ؛ ولعل مردها إلى الخلط بين أسماء الكتب نفسها ، وبين أسماء الأبواب التى تحتويها الكتب الكبيرة ، وكان يطلق عليها أحيانا اسم « الكتاب » كما فى « معانى الشعر الكبير » ، فهو يحتوى على اثنى عشر كتابا ، أى بابا .

ولذا نرى « ابن النديم » يذكر له « كتاب المراتب والمناقب » وليس هذا كتابا مستقلا إنما هو من « عيون الشعر » . والقفطى يذكر له كتاب « الفرس » ، وهو من « معانى الشعر » .

ونحن نميل إلى أن نأخذ بما أورده القاضى عياض فى « المدارك » ، حين تحدث

عن أبى جعفر : أحمد ، وأنه كان يحفظ كتب أبيه ، وعدتها أحد وعشرون مصنفا . وما هذا العدد بقليل على عالم من العلماء ، عمر مثل ما عمر ابن قتيبة ، لا سيما والمؤلفات من المؤلفات ذات الأجزاء ! !

ومهما يكن من شيء ، فقد استقصى الأستاذ أحمد صقر كتب ابن قتيبة ، فإذا هى ستة وأربعون كتابا ، نذكرها فيما يلى :

(١) كتاب الوزراء ، وهو كتاب لم يصل إلينا ، وإنما ذكره ابن منظور فى « لسان العرب » فى مادة « خ ل ل » .

(٢) كتاب آلة الكتاب « وهو كتاب لم يصل إلينا أيضا » ، وإنما ذكره « ابن السيد البطليوسى » فى « الاقتضاب » فى « شرح أدب الكتاب » .

(٣) كتاب « صناعة الكتابة » ، وهو غير معروف كسابقيه ، ولكن نقل منه « الخزاعى » فى كتابه « تخريج الدلالات السمعية » ، عند كلامه على كلمة « ديوان » وجمعها .

(٤) كتاب الأنواء ، وقد ذكره ابن قتيبة فى كتاب « المعانى » .

وهو كتاب تحدث فيه عن مذاهب العرب فى علم النجوم : مطالعها ومساقطها ، وصفاتها وصورها وأسماء منازل القمر . . . . والأزمنة وفصولها . وقرن ذلك بما أودعته العرب أشعارها فى طلوع كل نجم . وقد اقتصر فيه على ما تعرفه العرب ، وتستعمله ، دون ما يدعيه المنسوبون إلى الفلسفة من الأعاجم ، ودون ما يدعيه أصحاب الحساب .

وهو يتحدث عنه فى المقدمة ،[٤] فيقول : « وقد قيدت بهذا الكتاب أطرافا : من هذا الفن أدركت بعضها بالتوقيف ، وبعضها بالاعتبار ، واستخرجت بعضها من الأشعار ، ونبهت على إغفال من أغفل من الشعراء » .

(٥) كتاب الوحش ، وقد ذكره ابن قتيبة فى « الأنواء » .

(٦) كتاب « الصيام » وقد ذكره أيضا فى « الأنواء » .

---

(٤) أورد الاستاذ أحمد صقر جزءا كبيرا من مقدمة الكتاب ، عندما تحدث عنه فى معرض حديثه عن ابن قتيبة .

(٧) كتاب غريب الحديث .

وقد حذا فيه حذو أبى عبيد القاسم بن سلام فى تفسير غريب الحديث ، وإن كان ابن قتيبة « لم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة فى كتاب أبى عبيد ، إلا ما دعت إليه حاجة من زيادة شرح أو بيان ، أو استدراك ، أو اعتراض » .

(٨) إصلاح الغلط فى غريب الحديث لأبى عبيد .

وقد استدرك فيه ابن قتيبة على أبى عبيد فى نيف وخمسين موضعا .

(٩) تفسير غريب القرآن :

وقد عنى فيه « ابن قتيبة » بتفسير غريب القرآن وتوضيحه ، معتمدا فى ذلك على أقوال المفسرين واللغويين . وقد بدأ كتابه بالحديث عن اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته ثم تحدث عن بعض الحروف التى كثرت فى القرآن ثم خلص إلى تفسير غريب سور القرآن وفقا لترتيبها فى المصحف .

(١٠) فضل العرب على العجم

وقد نشرت قطعة منه فى كتاب رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد على . ونشر بعضه فى « مجلة المقتبس » ، المجلد الرابع .

(١١) كتاب الميسر والقداح

ويتحدث فيه عن الميسر ، وحكمه ، والأزلام والاستقسام بها ، وأسمائها ، وعلاماتها وصفاتها و هيئاتها ، وأوقات التقامر ، وذكر الأيسار وعدهم ثم طريقة اللعب ، وكيفية الفوز .

يذكر هذا كله فى صورة أدبية طريفة ، ويسوق الأخبار ، ويستشهد بالأشعار الجاهلية مع فوائد لغوية واجتماعية عن حياة العرب فى الجاهلية وعقائدهم .

هذا وقد طبع الكتاب فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٢ هـ ، بتحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب .

(١٢) كتاب « الأشربة » طبع بدمشق سنة ١٩٤٤ م بتحقيق الأستاذ محمد كرد على وقد تناول فيه مسألة تحريم الخمر ، والدواعى التى حرمت من أجلها ،

ثم أنواع المحرم منها . وقد دفعه ذلك إلى البحث عن مصادرها ، وكيفية صنعها والآثار التى تتركها فى الجسم والعقل .
وقد رد على قولٍ لبعض المتكلمين زعموا فيه أن الله لم يحرم الخمر . ثم تكلم فى النبيذ : أحلال هو أم حرام . وهو يقرن المناقشة الفقهية بالطرف الأدبية .

(١٣) كتاب المعارف ، طبع فى مصر ، بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة
وهو كتاب يجمع فيه المؤلف من المعارف التاريخية ما يراه ضرورة لكل كاتب ومتأدب .
وقد بدأه بالحديث عن مبتدأ الخلق ، وقصص الأنبياء ، وأزمانهم ، وأعمارهم . ثم وصل ذلك بذكر أنساب العرب ، ثم اتبعه بالحديث عن أخبار الرسول (ﷺ) وأحواله فى مبعثه ومغازيه حتى قبض ، ثم تحدث عن الصحابة ، فالخلفاء ، فالمشهورين من صحابة السلطان ، ثم التابعين ، ومن بعدهم من حملة الحديث ، وأصحاب القراءات ، ورواة الشعر والغريب ، ثم ذكر المساجد المشهورة والفتوح وأيام العرب ثم ختم كتابه بالحديث عن ملوك العجم وتاريخهم .

(١٤) عيون الأخبار ، وقد طبعته دار الكتب المصرية (١٣٤٣ هـ)
وقد قسم الكتاب إلى عشرة كتب ، هى : كتاب « السلطان » ، وكتاب « الحرب » ، وكتاب « السؤدد » ، و « الطبائع والأخلاق » و « العلم » ، و « الزهد » ، و « الأخوان » و « الحوائج » ، و « الطعام » ، و « النساء » وهو يسوق الباب ، ثم يتبعه بما هو مناسب له : فالسلطان من لوازمه الحرب ، وما تتطلبه من إعداد العدة وتجنيد الجند . . . . وهكذا . وهو يقرن أخباره بشيء من الطرف والنوادر وآراء المتقدمين ، والمتأخرين ، من العرب وغيرهم .

(١٥) كتاب أدب الكاتب ، وقد طبع بمصر مرارًا .
ويتضمن أربعة كتب هى :
(١) كتاب المعرفة　　　　(٢) كتاب تقويم اليد .

(٣) كتاب تقويم اللسان   (٤) كتاب الأبنية .

وهو — فى مجمله — يقدم ما يحتاج إليه الشادون من الكتاب والأدباء — من الآلات ولا سيما ما يتعلق منها باللغة وألفاظها ، وتراكيبها ورسمها .

وهو يقسم الكتاب الأول إلى أبواب ، بدأها بباب (معرفة ما يضعه الناس فى غير موضعه) :

وهو باب فى تطور التراكيب ، ومدلولات المفردات فى القرن الثالث الهجرى . ويأتى بعد ذلك عدة أبواب بها الكثير من الأمثال ، والتعبيرات اللغوية ، مثل « باب تأويل المستعمل من مزدوج الكلام » و « باب ما يستعمل فى الدعاء فى الكلام » . . . . وهكذا .

ويلى كتاب المعرفة كتاب « تقويم اليد » وهو عبارة عن دروس قيمة فى طريقة الإملاء العربى .

ويأتى بعد ذلك كتاب تقويم اللسان « وقد قسمه إلى أبواب ، عنى فيها بعرض جملة من الأخطاء اللغوية الشائعة ، فيبين ما تستعمله العامة منها ويشير إلى الصحيح الوارد فى كلام العرب .

أما آخر الكتب وهو « كتاب الأبنية » فقد قسمه إلى أبواب — أيضا — وجمع فيه كثيرًا من الصيغ والتراكيب .

(١٦) كتاب تأويل مشكل الحديث ، طبع بالقاهرة باسم : « تأويل مختلف الحديث » وقد تحدث فيه عن موقف علماء الكلام من أهل الحديث وما تحدثوا عنهم به ، وعرض بالنقد للنَّظام ، ونقد ثمامة بن الأشرس ، ومحمد بن الجهم ، والجاحظ وأبا الهذيل العلاف ثم أدار الجزء الأكبر من كتابه على الأحاديث التى ادعى عليها التناقض ومخالفة القرآن ، فكشف عن معانيها وأبان عن أغراضها .

(١٧) كتاب المعانى الكبير ، وقد طبع ما وجد منه فى الهند سنة ١٣٦٨ هـ . وقد ذكر ابن النديم أنه يحتوى على اثنى عشر كتابًا منها : كتاب الفرس ، الإبل ، الحرب ، القدور الديار ، الرياح ، السباع والوحوش ، والهوام ، والأيمان

والدواهى ، والنساء والغزل ، الشيب والكبر ، وتصحيف العلماء .

وبعض هذه الكتب تقسم أبوابا ، تصل فى بعضها إلى ستة وأربعين بابا وهو يعنى بذكر ما ورد فى هذه الموضوعات من الشعر العربى القديم ، ثم يشرح غريبه ، وقد يستطرد فيشرح أحوال العرب ، أو يصف المواطن التى يرد ذكرها فى بعض الأشعار .

(١٨) الشعر والشعراء ، طبع مرتين بمصر سنة ١٩٠٤ ، ١٩٣٢ ثم حققه العلامة الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وصدرت أولى طبعاته بين سنتى ١٩٤٥ — ١٩٥٠ م وقد تحدث فيه المؤلف عن الشعراء ، وأزمانهم ، وأحوالهم فى شعرهم ، وأحوالهم فى قبائلهم وما يستجاد من شعرهم ، وما أخذه العلماء عليهم ، من الغلط ، والخطأ فى الألفاظ أو المعانى وهو يعتمد فى اختياره للشاعر على شهرته والتقدم فى الشعر . ومن القضايا التى تناولها ابن قتيبة فى هذا الكتاب : قضية الطبع والتكلف فى الشعر والشعراء وبناء القصيدة العربية ، ورؤية الناقد للقديم ، والجديد من الشعراء .

(١٩) كتاب الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، طبع فى مطبعة السعادة بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى .

وهو كتاب يرد فيه ابن قتيبة على من بالغ فى إثبات الصفات لله عز وجل حتى أفرط وجسم وعلى من بالغ فى نفى الصفات التى أثبتها الله لنفسه . وهو يتخذ موقفا يتفق وما عليه أهل السنة .

(٢٠) كتاب عيون الشعر

ذكره ابن النديم ، وقال إنه يحتوى على عشرة كتب ، ذكر سبعة منها هى : كتاب المراتب وكتاب القلائد وكتاب المحاسن وكتاب المشاهد وكتاب الشواهد وكتاب الجواهر وكتاب المراكب .

(٢١) كتاب التقفية

وقد ذكره ابن النديم وقال : « هذا كتاب رأيت منه ثلاثة أجزاء » .

(٢٢) كتاب العلم ، ذكره ابن النديم ، والقفطى .

(٢٣) كتاب جامع النحو الكبير ، ذكره ابن النديم والقفطى .

(٢٤) كتاب جامع النحو الصغير ، ذكره ابن النديم والقفطى .

(٢٥) « الحكاية والمحكى » ذكره ابن النديم .

(٢٦) كتاب « الخيل » ذكره ابن النديم ، وابن خلكان ، والقفطى .

(٢٧) كتاب إعراب القرآن .

(٢٨) كتاب « حكم الأمثال » ذكره ابن النديم .

(٢٩) كتاب « تأويل الرؤيا » ، ذكره ابن قتيبة فى مقدمة « عيو الأخبار » .

(٣٠) كتاب « آداب القراءة » .

(٣١) كتاب « الرد على القائل بخلق القرآن » .

(٣٢) كتاب « آداب العشرة » ، ذكره ابن النديم .

(٣٣) كتاب « معجزات النبى صلى الله عليه وسلم » .

(٣٤) كتاب « استماع الغناء بالألحان » .

(٣٥) كتاب « الجوابات الحاضرة » .

(٣٦) كتاب « فرائد الدر » ذكره ابن النديم .

(٣٧) كتاب المسائل والأجوبة فى الحديث واللغة .

وقد طبع فى مطبعة السادة سنة ١٣٤٩ .

(٣٨) كتاب خلق الإنسان ، ذكره ابن النديم .

(٣٩) كتاب ديوان الكتاب ، ذكره ابن النديم .

(٤٠) كتاب القراءات ، ذكره ابن النديم ، وذكره المؤلف فى « تأويل مشكل القرآن » ، ص ٦٤ .

(٤١) كتاب دلائل النبوة ، ذكره ابن النديم .

(٤٢) كتاب جامع الفقه ، ذكره ابن النديم ، وسماه القفطى « كتاب الفقه » .

(٤٣) كتاب التفسير .

(٤٤) كتاب تأويل مشكل القرآن .

طبع فى مصر ، بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر .

وهو كتاب يقع فى نيف وسبعمائة صفحة من القطع الكبير ، ويضم ستة عشر بابا تدور حول التعبير القرآنى ، وموقف الملحدين وأشباههم منه ،

ثم رد المؤلف عليهم ، وتفنيده لحججهم .

وسوف نعرض له بالدرس ، والتحليل ، فيما بعد .

(٤٥) كتاب معانى القرآن

(٤٦) كتاب الجراثيم ، وهناك شك فى نسبته لابن قتيبة ، إذ لم يذكره أحد ممن ترجموا له ، أو تحدثوا عنه ، رغم أن فى الخزانة الظاهرية بدمشق نسخة منه منسوبة إلى ابن قتيبة .

ومن الواضح أن تأمل هذه الكتب ، أو تأمل ما وصلنا منها ليدلل على أن ابن قتيبة كان واسع الاطلاع ، كثير التأليف ، نال حظا وافرًا من نواحى العلوم المختلفة التى شهدها عصره ؛ فها هو يعرف كثيرا ، ويجمع كثيرا ، ويؤلف كثيرا . .

موقفه من قضايا عصره

شارك ابن قتيبة — من خلال كتبه — فى كثير من القضايا التى شهدها عصره . وأبلى فى بعض منها بلاءً حسنا ، ولا سيما تلك القضايا الخاصة بالخلاف الدينى . وقد لزم جانب أهل السنة ، ونافح عنها ، وأخذ على فرقة المعتزلة اعتمادها على العقل والمنطق فى مناقشة قضايا الدين والعقيدة ، وما يتبع ذلك من اتجاههم إلى تأويل الآيات والأحاديث التى تتفق مع مذهبهم الفكرى .

ومن المعروف أن المعتزلة فرقة كلامية ظهرت فى أوائل القرن الثانى الهجرى وكان من أهم مبادئهم القول بالتوحيد ، وهم يذهبون فى تفسيره إلى أنه تنزيه الله عن كل صفة يوصف بها أحد من خلقه . فلما وجدوا أن فى القرآن وفى الأحاديث من الألفاظ والتعبيرات ما يدل ظاهرها على التجسيم والتشبيه . أخذوا فى تأويل هذه الآيات والأحاديث تأويلا مجازيا ، وحملوا آيات القرآن وألفاظ الحديث ما لا يمكن أن تتحمله كى يسلم لهم مذهبهم[1] .

والحق أن المعتزلة حين ذهبت هذا المذهب — وكذلك الجهمية — فى تنزيه الله ، ونفى الصفات عنه إنما كانت تقصد الرد على أولئك الذين كانوا يذهبون

---

(١) راجع فى ذلك :

د . على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ١ ، ص ٣٢٨ وما بعدها والأستاذ أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ٣ ، ص ٢١ وما بعدها .

د . محمد السيد الجليند : الإمام ابن تيمية وقضية التأويل ، ص ٩٣ وما بعدها .

فى حديثهم عن الله إلى التجسيم والتشبيه . ورغم ذلك ، فلا المعتزلة على حق فى مبالغتهم فى التنزيه حتى نفوا صفاتٍ أثبتها الله لنفسه ، ولا المشبهة على حق حينما غالوا ، وقالوا بالتجسيم ، وأثبتوا لله صفات لم يثبتها لنفسه ، ولذا فإن أهل السنة قد أضربوا عن المذهبين ، وأخذوا بما كان عليه السلف الصالح فى التسليم بكل ما جاء فى القرآن والحديث من حديثٍ عن ذات الله وصفاته ، فهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، ودون بحث فى الكيفية[٢] .

كان ابن قتيبة من أعلام أهل السنة ، وعلمائها المبرزين الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عنها والرد على المبالغين فى التنزيه والتجسيم حتى قال فيه ابن تيمية : « هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة »[٣] .

وقد أبان ابن قتيبة عن موقفه هذا فى كثير من كتبه ، نخص بالذكر منها ثلاثة هى :

« الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهه » و « كتاب المسائل والأجوبة فى الحديث واللغة » و « تأويل مختلف الحديث » . كما أشار إليه فى مواضع متعددة فى تأويل مشكل القرآن » .

لنستمع إليه وهو يشرح موقفه هذا فيقول : « فنحن نقول كما قال الله وكما قال رسوله ولا نتجاهل ، ولا يحملنا ما نحن فيه : من نفى التشبيه على أن ننكر ما وصف به نفسه ، ولكنا لا نقول : كيف البيان ؟ وإن سئلنا : نقتصر على جملة ما قال ، ونمسك عما لم يقل »[٤] .

كما حمل ابن قتيبة لواء الدفاع عن المحدثين ضد اتهامات أهل الكلام ، ولا سيما المعتزلة والجهمية فقد طعن فيهم هؤلاء بالاختلاف فى رواية الحديث ، وأن كل طائفة تروى من الأحاديث ما يؤيد مذهبها وأنهم لا يعنون فى رواية الحديث إلا بصحةِ السند ، وإن كان المتن واهنًا لا يقبله عقل .

(٢) ابن تيمية : تفسير سورة الإخلاص ، دار الطباعة المحمدية ، ص ٧٣ .
(٣) السابق ، ص ١٣٠ .
(٤) ابن قتيبة : الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، ص ٢٩

وقف ابن قتيبة ينتصر للمحدثين ، ويرمى خصومهم بما رموهم به ، ويفسر لهم ما يفعله أهل الحديث . مؤكدًا أن ما ورد فى القرآن من حديث عن صفات الله ، والملائكة ، واليوم الآخر ، لا يدرك بطريقة المتكلمين لأن هذه الطريقة تؤدى إلى الخلاف والزيغ ، والأفضل أن نؤمن بها كما جاءت لأنها « أمور لا يعلمها نبى إلا بوحى من الله »[٥] .

كما شارك ابن قتيبة فى الصراع العنصرى الذى كان قائما ــ آنذاك ــ بين العرب والموالى . ولزم ، وهو فارسي ومولى ، جانب العرب ؛ لأنه أدرك ، وهو المسلم التقى ما وراء الحملة على العرب من أهداف بعيدة تتربص بالإسلام نفسه ، فالعرب مادة الإسلام كما يقول ابن الخطاب رضى الله عنه ولم يلزم هذا الموقف سلوكا صامتا ، وإنما اتخذه مبدأ يدافع عنه ، وقد ظهر هذا واضحا فى كتابه « فضل العرب على العجم »[٦] .

أما الجمهرة الباقية من كتبه ، فكان غرضه منها أن يقدم للكتاب ، وأصحاب الدواوين ما يسد حاجتهم من عُدَدِ الثقافة الأدبية ، واللغوية ، والتاريخية ولعل هذا واضح فى :

كتب « أدب الكاتب » و « عيون الأخبار » و « المعارف » و « المعانى الكبير » و « الشعر والشعراء » .

ولا نريد أن ننهى الحديث قبل الإشارة إلى أن ابن قتيبة كان ذا جهد واضح فى التوفيق بين المذهبين البصرى ، والكوفى ، فقد عمل على المزج بينهما وتدعيم المذهب الوسط وهو مذهب البغداديين ، حتى عد إماما للمدرسة البغدادية [٧] .

---

(٥) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٧ .

(٦) نشر الأستاذ محمد كرد على جزءًا منه فى كتابه « رسائل البلغاء » .

(٧) د . محمد زغلول سلام : ابن قتيبة ، ص ٣٠ .

كتاب
تأويل مشكل القرآن

تعريف بأبوابه وقضاياه*

يقع الكتاب فى نيّف وسبعمائة صفحة من القطع الكبير ، وينتظم مقدمة وسبعة عشر بابا ، جاءت على النحو التالى :

(١) باب ذكر العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجاز .
(٢) باب الحكاية عن الطاعنين .
(٣) باب الرد عليهم فى وجوه القراءات .
(٤) باب ما ادّعى على القرآن من اللَّحْن .
(٥) باب التناقض والاختلاف .
(٦) باب المتشابه .
(٧) باب القول فى المجاز .
(٨) باب الاستعارة .

* قام بتحقيق الكتاب المحقّق الكبير الأستاذ السيد أحمد صقر ، الذى بذل جهدا عظيما فى إخراج الكتاب ، وتخريج ما فيه من أحاديث ، وقراءات ، وشعر ، وغيره ، والترجمة لما ورد فيه من أعلام ، وقد صنع له فهارس جمة متقنة للكتاب على أبوابه ، وللآيات ، والأحاديث ، والأمثال ، والأعلام ، والقبائل ، والأماكن ، والبلدان ، والأيام ، والقوافى ، والمراجع ، وقد اعتمدنا على الكتاب المحقق فى طبعته الثانية .
كما أفدنا — أحيانا — من عمل المحقق — رحمه الله تعالى — وأشرنا إلى ذلك فى مواضعه .

(٩) باب المقلوب .

(١٠) باب الحذف والاختصار .

(١١) باب تكرار الكلام والزيادة فيه .

(١٢) باب الكناية والتعريض .

(١٣) باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه .

(١٤) باب تأويل الحروف التى ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم .

(١٥) باب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة .

(١٦) باب تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال .

(١٧) باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض .

ومن الواضح أن هذه الأبواب تنتظم مسائل كثيرة ، ومباحث متعددة ، وإن كانت تدور ــ فى مجملها ــ حول أمرين رئيسيين :

أولا : الرد على الطاعنين على القرآن الكريم الذين يرجفون بالكذب ، فيقولون إن به تناقضا فى التعبير ، وفسادا فى النظم ، واضطرابا فى الإعراب .

ثانيا : الكشف عن أسلوب القرآن الكريم ، ومعانيه ، وفنونه فى التعبير ، واتساقه فى النظم فى ضوء الأدب العربى القديم شعره ونثره وذلك للبرهنة على أن هذا النظم ليس خارجا عن مألوف الفن الأدبى الرفيع ، وليس غريبا على المبرزين من فحول البيان .

وقد كان ابن قتيبة حاضر البديهة ، مرتب الذهن ، متيقظا لمقاصده وأهدافه ؛ لذلك رأيناه ــ فى المقدمة وفى الباب الأول ــ حريصًا على أن يوضح منهجه الذى التزمه ، وغرضه من تأليف كتابه ، كما كان حريصا على أن يلقى بين يدى القارىء بالحقيقة التى يؤمن بها ، ويسعى ــ من خلال كتابه ــ إلى إثباتها ، وهى أن القرآن إعجاز لا يطاول وبنيان لغوى ليس إلى الطعن فى نظمه وتأليفه من سبيل .

وقد دعاه ذلك إلى الحديث عن القالب اللغوى الذى نزل به القرآن وهو العربية ، فأخذ يتحدث عن خصائصها ، وفنونها فى التعبير والأداء .

وإذا كانت عدة ابن قتيبة ووسيلته فى المحاجة هى اللغة فقد انتقض المعارضين

والطاعنين على القرآن الكريم ، وسلبهم المقدرة على معرفتها وفهمها وفقه أسرار التعبير فيها .

لكن أى مزاعم تلك التى يرجف بها المبطلون ، ويتقوّلون بها على كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ !

لقد عرض ابن قتيبة — فى الباب الثانى — لهذه المزاعم ، وذكر منها :

(١) اختلاف القراءات القرآنية ، وتعددها .

(٢) تناقض مضامين بعض الآيات مع آيات قرآنية أخرى .

ومن الملاحظ أن جل ما زعموه تناقضا يتعلق بآيات الخلق ؛ خلق السموات والأرض ، ثم اليوم الآخر وما فيه من الحساب والسؤال والجزاء .

(٣) ورود المتشابه فى القرآن الكريم رغم أنه كتاب هداية للناس أجمعين .

(٤) ظاهرة التكرار سواء التكرار فى التعبير ، أو فى الأنباء ، أو فى القصص .

وقد نهضت الأبواب التالية بتفنيد هذه المزاعم ، وبيان بطلانها ؛ فهو فى باب « الرد عليهم فى وجوه القراءات » يفسر حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « نزل القرآن على سبعة أحرف » ثم يبين السر فى تعدد القراءات واختلافها ، وأوجه هذا الاختلاف ، مؤكدا أنها اختلافات لغوية — فى مجملها — وهو حريص على تأكيد أن هذه الاختلافات ليست اجتهادا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولا من صحابته ، وإنما نزل بها الروح الأمين الذى أمره أن يقرىء كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم . ولا يبتعد ابن قتيبة كثيرًا من هذه القضية حينما يتناول مسائل أخرى مثل : زيادة دعاء القنوت فى مصحف أبى ، ونقصان أمّ الكتاب والمعوذتين من مصحف عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

ويرتبط بهذا أيضا قضية ادعاء اللحن فى القرآن الكريم حيث يفرد لها ابن قتيبة الباب الرابع مجتهدًا فى دفع هذا الاتهام ، ومؤكدا أن الآيات المطعون عليها باللحن لم تخرج عن سنن العربية وقواعدها . ولقد أبلى ابن قتيبة فى هذا الدفاع بلاءً حسنًا ، وما شانه إلا اتهامه بعض القراء بالخلط والاضطراب ! !

وفى « باب التناقض والاختلاف » يدفع المؤلف عن كتاب الله شبهة تناقض آياته

بعضها مع بعض ، مؤكدا أنها تتوافق لا تتناقض ، وتأتلف ولا تختلف ، ولكن قصور علم هؤلاء الطاعنين ، وسوء نظرهم وجهلهم بلطيف المعانى القرآنية هو الذى أوحى لهم بوجود هذا التناقض ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾ (النساء / ٨٢) .

وفى « باب المتشابه » يتحدث ابن قتيبة عن جملة من المسائل ، لعل من أهمها حديثه عن معنى المتشابه والمُشْكِل ، والحكمة من وجوده فى كتاب الله تعالى ، موضحا أن القرآن ليس بدعا فى ذلك ، وإنما هذا ما جرى عليه فصيح كلام العرب ، كما قدّم رأيه فى مدى علم الراسخين فى العلم للمتشابه فى القرآن الكريم .

ويقدم ابن قتيبة فى « باب المجاز » آراءه فى ثلاث قضايا شغلت بها جماعات مختلفة فى المجتمع الإسلامى مثل جماعة المفسرين ، والبلاغيين ، واللغويين ، والقضايا التى عرض لها ابن قتيبة فى هذا الباب هى :

(أ) تعريف المجاز ، أو مفهومه .

(ب) المجاز فى القرآن بين المؤيدين والمعارضين .

(جـ) هل المجاز نوع من الكذب ! !

ثم يعرض ابن قتيبة فى الباب نفسه ، لكثير من آيات القرآن الكريم ، يشرح ما يتأوله المتأولون فيها ، ويبين فساد ما ذهبوا إليه ، ثم يعقب على ذلك بالوجه الذى يرتضيه فى المجاز .

وينتقل المؤلف من هذه الدراسة النظرية حول المجاز إلى تناول أقسامه التى أشار إليها فى قوله « وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها : طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع مخاطبة الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص . . » .

وهو يفرد لكل قسم مبحثًا خاصًا سمّاه بابًا ؛ آخذا فى اعتباره الجمع بين فنون القول التى يرى بينها تقاربًا وتجانسًا ؛ لذلك رأيناه يعقد بابًا للاستعارة ، وآخر

للمقلوب ، وثالثًا للحذف والاختصار ، ورابعًا للتكرار ، وخامسًا للكناية والتعريض ، وسادسًا لمخالفة ظاهر اللفظ معناه . . وهو فى كل هذه الأبواب حريص على تقديم التعريف الخاص بها وتوضيح القيمة الفنية لها مشيرًا إلى ما أسبغه هذا الباب أو ذاك على الآيات القرآنية من مظاهر الجمال والروعة .

أما باب « تأويل الحروف التى ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم » فقد بدأه بالحديث عن الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض سور القرآن الكريم ثم أشار إلى اختلاف المفسرين فى دلالتها ، وهو يعقب على كل رأى بما يؤيده من كلام العرب .

ويخلص من هذه الدراسة النظرية إلى دراسة تطبيقية عرض فيها للمشكل فى سور القرآن الكريم ، ولا تحسبن أنه يتناول السورة جميعها ، بل إن الغالب أنه لا يتناول إلا آية واحدة ، أو بضع آيات من السورة . وإن كنا نستثنى من هذا سورة الجن التى عرض لها كلها ، كما أنه لم يعرض لكل سور القرآن الكريم . على أنه ربما يتحدث عن مشكل السورة الواحدة أكثر من مرة .

أما الأبواب الثلاثة المتبقية (الخامس عشر ، والسادس عشر ، والسابع عشر) فإنها تمثل لونا آخر من تناول البنيان اللغوى للنص القرآنى . وأهم ما يميز هذه الأبواب ويجمع بينها أن وجهتها لغوية خالصة ، فهو فى باب « اللفظ الواحد للمعانى المختلفة » يقدم دراسة دلالية لمجموعة من الألفاظ التى استعملها القرآن الكريم معنيًا بتوضيح الدلالة الأصلية لكل لفظ ، وما تفرع عنها من دلالات أخرى فرعية .

كما عنى ابن قتيبة فى « باب تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال التى لا تنصرف » بالحديث عن الدلالات التركيبية لبعض الأدوات مثل ، كأين ، وأنّى ، ومهما ، وقد كان حريصا على دراسة أصولها وتطورها .

أما الباب الأخير « باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض » فإنه يقدم دليلا على اتساع العربية وقدرتها التعبيرية التى تمكن للنص القرآنى من استعمال الحرف للدلالة على حرف آخر .

هذا عرض موجز لأبوب الكتاب ، ومباحثه ، وقد وقفنا فيه عند رؤوس

القضايا التى طرحها المؤلف فى كتابه آملين من القارىء أن يسرع إلى النص (فى صورته الأصلية ، أو فى صورته المقربة) للوقوف على عناصر هذه القضايا بشكل أرحب وأعمق .

القيمـة العلميـة للـكتاب

ثلاث طوائف تتنازع هذا الكتاب ، وتعده مصدرًا هامًا من مصادرها التراثية التى أفادت منها فى حركتها العلمية المستنيرة ، وهذه الطوائف هى طائفة البلاغيين ، وطائفة اللغويين ، وطائفة المفسرين ، ولا تكاد تجد مؤلفا فى تاريخ علوم البلاغة ، أو اللغة ، أو التفسير دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى هذا الكتاب ، موضحا قيمته وتأثيره فى حركة هذا العلم أو ذاك . والذى ساعد على توزع هذا الكتاب بين هذه العلوم الثلاثة أن أيا منها لم يكن قد بلغ مرحلة النضج والتبلور النهائى حينما ظهر الكتاب وإنما كانت كلها فى مرحلة البداية ، أو تجاوزتها بقليل[1] .

وتأتى قيمة الكتاب عند البلاغيين من حيث إنه يمثل مرحلة جديدة متطورة فى تاريخ البلاغة العربية . فبعد أن كانت المباحث البلاغية مجرد أفكار وملاحظات متناثرة فى « البيان والتبيين » للجاحظ و « مجاز القرآن » لأبى عبيدة ، وغيرهما من المصادر ، أصبحت هذه الأفكار أبوابًا وفصولاً مستقلة فى تأويل مشكل القرآن ، فهناك باب للمجاز ، وآخر للاستعارة وثالث للكناية . . . إلخ .

ولكن على الرغم من إفراد ابن قتيبة أبوابًا مستقلة فى كتابه لهذه الفنون البلاغية ، فإن مفهومات هذه الفنون لم تكن تتفق وما استقر عليه الأمر لدى علماء البلاغة المتأخرين .

كما تنبه ابن قتيبة للمقام ، وعلاقته بالمقال . فالأديب لا بد وأن « تكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام »[2] وقد استثمر البلاغيون هذه المقولة من ابن قتيبة وبنوا عليها تعريفهم للبلاغة ــ فيما بعد ــ بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .

---

(١) د . على عشرى ، البلاغة العربية ، ص ٤٤ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٣ .

وتبرز قيمة الكتاب لدى اللغويين من حيث إنه تناول جملة من المباحث اللغوية التى أصبحت فيما بعد قضايا علمية كبرى لها خصائصها واتجاهاتها . فقد وقف ابن قتيبة على أوجه الاختلاف فى القراءات القرآنية ، ولا تحسب أن هناك من سبقه إلى هذا ، كما عرض المؤلف لقضية اللحن فى القرآن وهى القضية التى دفعت حركة الدراسات اللغوية نحو التقدم والازدهار .

على أن أهم المباحث اللغوية التى عرض لها المؤلف تلك المباحث الخاصة بدلالة الألفاظ ؛ فقد رأيناه يتحدث عن ظاهرة التضاد ، وظاهرة المشترك اللفظى ، وقد وصل فيها إلى نتائج لا تبعد كثيرًا عما انتهى إليه المتأخرون من علماء اللغة .

ولأن الكتاب يقوم فى حقيقته على دراسة النص القرآنى ، والكشف عن أنماط تعبيراته ودلالات ألفاظه فقد رأينا الدارسين يصنفونه ضمن كتب التفسير ولكنهم يعتبرونه من الكتب التفسيرية التى تنحو نحوًا لغويًا فى التفسير ، فقد اقتصر فى تناوله للنص القرآنى على جانب اللغة ألفاظا وتراكيب ودلالات ، مستهدفا إثبات عربية القرآن بلفظه ومعناه — وطريقته فى التعبير ، ولم يتح ابن قتيبة — كما فعل أبو عبيدة فى مجاز القرآن — لرأى السلف مكانًا فى كتابه ؛ إذ صرفه اهتمامه بالناحية اللغوية ، وحريته الواسعة فى فهم النصوص عن تتبع أسباب النزول ، والاشتغال بقصص القرآن ، ونقل آثار الصحابة إلا عندما كان فهم النص يقتضى ذلك .

وبعد ، فقد أجاد ابن قتيبة من خلال هذا الكتاب التعبير عن الملامح الرئيسية لهذا الفن ، فقد حاول فيه أن يبرز وجوه الإعجاز البيانى للقرآن ، مؤكدًا أن فنون القول وصور التعبير ، والأساليب المختلفة التى استعملها النص القرآنى لا تخرج فى مجملها عما جرى عليه البيان العربى الرفيع ، وإن فاقت عليه وكانت إعجازًا لا يطاول . لهذا وقفت هذه المحاولة جهدها للكشف عن قيمة الكتاب والتعريف به وتقريبه من جمهور القراء وذلك بتخير نصوص من الكتاب تنتظم جميع أبوابه وفصوله ، وقد قدمنا بين يدى كل باب دراسة للأفكار والقضايا التى تضمنها ، وقمنا بمناقشة الكثير منها وتقويمه .

وقد حرصنا فى تخير النصوص على أمرين :

الأمر الأول : إيضاح ما غمض من ألفاظها ، وما دق من أفكارها وقضاياها .

الأمر الثانى : أن تنجح النصوص فى التعبير عما يريده المؤلف من كتابه .

إنها محاولة تدل على الكتاب فى صورته الأصلية ولا تغنى عنه . إنها محاولة ترغب فيه لا ترغب عنه .

والله الموفق والمعين . .

القسم الثاني
نصوص من الكتاب

عن المقدمة
وباب ذكر العرب وما خصهم الله به
من العارضة والبيان

يقدم ابن قتيبة للكتاب بمقدمة ، يتناول فيها قضية الإعجاز القرآنى ، من وجهة نظر أهل السنة[1] الذين كانوا يرون إعجاز القرآن الكريم ، فى نظمه ، وحسن تأليفه وأنه محال وقوع مثله من العرب .

ويتوقف ــ فى عجالة ــ عند أحد وجوه هذا الإعجاز القرآنى ، وهو الإيجاز ، بمعنى : إيراد المعانى الكثيرة المتعددة فى الألفاظ القليلة . فيعرض لبعض الآيات التى جاءت مثالا لهذا الإيجاز المُعْجز . يقول : « وتبين قوله فى وصف خمر أهل الجنة : (لايصدعون عنها ولا ينزفون) كيف نفى عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : « ولا ينزفون » عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاد الشراب »[2] .

وهو يرى أن وجوه الإعجاز القرآنى لن يدركها إلا « من كثر نظره ، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات »[1] .

---

(١) د . محمد زغلول سلام ، أثر القرآن فى تطور النقد العربى ، ط ثانية ، ص ١٠٨ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص ٧ .

من هنا عنى ابن قتيبة بالتركيز على بيان أفضلية العربية ، وتميزها عن غيرها من اللغات .

وليس اهتمام ابن قتيبة بإبراز هذه الناحية إلا ضرورة أوجبها الاحتجاج لإعجاز القرآن البيانى ، وشموله الناس كافة ، لا العرب وحدهم .

ثم يتحدث عن تنوع أساليب الكلام ، وفنون القول ؛ وإنما تتنوع الأساليب ، وتختلف فنون القول ، تبعا لقدرة المتكلم ، وطبيعة الموضوع ، والمناسبة التى قيل فيها : « فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاما فى نكاح ، أو حمالة ، أو تحضيض ، أو صلح ، أو ما أشبه ذلك ـــ لم يأت به من واد واحد بل يفتن : فيختصر تارة إرادة التخفيف ، ويطيل تارةً إرادة الإفهام ، ويكرر تارةً إرادة التوكيد ، ويخفى بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين ويشير إلى الشىء ، ويكنى عن الشىء[٣] » .

ثم يرجع إلى الحديث عن تميز العربية ، فيذكر أن ألفاظها مبنية على ثمانية وعشرين حرفا ، وهى أقصى طوق اللسان . أما ألفاظ جميع الأمم فقاصرة عن ثمانية وعشرين ، ولست واجدًا فى شىء من كلامهم حرفا ليس فى حرفنا إلا معدولا عن مخرجه شيئا . كما تمتاز العربية بالإعراب الذى يفرق بين المعانى ، فلو أن قائلا قال : « هذا قاتلٌ أخى » بالتنوين ، وقال آخر : « هذا قاتل أخى » بالإضافة ـــ لدل التنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله[٣] » .

وربما تغيرت حركة حرف من حروف الكلمة ، فتغير معناها . وقد يغيرون أحد حروف الكلمة فيفرقون بين المعانى المتقاربة ، فهم يقولون للقبض بأطراف الأصابع : « قبص » وبالكف : « قبض » ثم يشير إلى دقة العربية ، وقدرتها على التعبير ، حين يبين أن الشىء المسمى قد تدور معه وتتصل به مجموعة من المعانى ، فإذا العربية تشتق من اسم هذا الشىء ألفاظا تدل على كل معنى بعينه ـــ

---

(٣) السابق ، ص ١٤ .

فهم يشتقون من « البطن » : « مبطن » ، و « بطين » و « مبطان » و « بطن » و « مبطون » . ولكل معنى مستقل .

ثم يتحدث عن المجازات عند العرب ، وهو يعنى بها : طرق القول ومآخذه . ويذكر من هذه الطرق : الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير والحذف والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار والتعرض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح . . . . إلخ .

ويصل حديثه عن المجاز ، بالحديث عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى . وهو يقول باستحالة هذه الترجمة ؛ إذ إن العربية ، وهى اللغة التى أنزل بها القرآن — لها من لطائف المعانى ، ودقة التعبير واتساع المجاز ، والتفنن فى القول ما لا يستقل به لسان آخر .

ثم ينتهى ابن قتيبة — بعد ذلك كله — إلي بيان غرضه من تأليف الكتاب ، فيوضح أنه قد صنفه للرد على الملاحدة الذين يطعنون فى القرآن ، ويزعمون أن فيه تناقضًا واستحالة ولحنا وفسادًا فى النظم واختلافا ، وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه فى القلوب ، وقدحت بالشكوك فى الصدور[٤] » .

وهو لم يشأ أن يترك هذه المزاعم — رغم أنه سيتعرض لها بالتفصيل ، فيما بعد — دون أن يدلل على بطلانها ، معتمدا فى ذلك على الحجاج العقلى ، فيقول : « ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأولهم — لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتج عليه بالقرآن ، ويجعله العلم لنبوته ، والدليل على صدقه . . . . (ولكن) لم يحك الله تعالى عنهم ، ولا بلغنا فى شيء من الروايات أنهم جدبوه من الجهة التى جدبه منه الطاعنون[٥] » .

ويرسم لنا منهجه الذى التزمه ، فيقول : « فألفت هذا الكتاب . . . .

---

(٤) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٢ .

(٥) السابق ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والإيضاح ، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالاً لإمام مطلع على لغات العرب لأرى به المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأى ، أو أقضى عليه بتأويل[٦] » .

والآن . . . لنتأمل ما يقوله « ابن قتيبة » فى المقدمة ، والباب الأول .

(٦) السابق ، ص ٢٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة :

الحمد لله الذى نهج لنا سبل الرشاد ، وهدانا بنور الكتاب ، ﴿ **ولم يجعل له عوجا** ﴾[٧] بل نزله قيّما مفصّلا بيّنا ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾[٨] وشرَّفه ، وكرَّمهُ ، وَرَفَعه ، وعظّمه ، وسمّاه **رُوحا**[٩] ، **ورحمة**[١٠] ، **وشِفاء**[١١] ، **وهُدىً**[١٢] ، **ونورا**[١٣] .

وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلّفين وجعله مَتْلُوًّا لا يُمَلّ على طول التلاوة ، ومسموعًا لا تمجه[١٤] الآذان ، وغضا لا يَخْلُق[١٥] على كثرة الرد ، وعجيبًا .

لا تنقضى عجائبه ، ومفيدًا لا تنقطع فوائده ، ونسخ به سالف الكتب .

---

(٧) سورة الكهف / ١ .

(٨) سورة فصلت / ٤٢ .

(٩) سورة الشورى / ٥٢ .

(١٠) سورة الأعراف / ٥٢ ، ٢٠٣ ، يونس / ٥٧ .

(١١) سورة فصلت / ٤٤ .

(١٢) سورة يونس / ٥٧ ، الشورى / ٥٢ .

(١٣) سورة الشورى / ٥٢ .

(١٤) لا تمجه الآذان : لا تلقيه نسيانًا : كما يُمَجُّ الشىءُ من الفم أى يُرمى .

(١٥) لا يخلق : لاَ يبْلَى .

وجمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم »[16] .

فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾[17] كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لأن فى « أخذ العفو » : صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين .

وفى « الأمر بالمعروف » : تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات .

وانما سُمّى هذا وما أشبهه « عُرْفًا » و « معروفا » ، لأن كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئنُّ إليه .

وفى « الإعراض عن الجاهلين » : الصبر ، والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة[18] السفيه ، ومنازعة اللَّجوج[19] .

وقوله تعالى : إذ ذكر الأرض فقال : ﴿ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴾[20] . كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام ، من العشب والشجر ، والحب والثمر والحطب ، والعصف[21] ، واللِّباس ، والنار والملح ، لأن النار من العيدان ، والملح من الماء وينبئك أنه أراد ذلك قوله : ﴿ **مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** ﴾[22] .

وفكِّر فى قوله تعالى : حين ذكر جنات الأرض فقال : ﴿ **يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ** ﴾[23] كَيْفَ دَلَّ على نفسِه ولطفه ،

---

(١٦) أخرجه مسلم فى « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالرعب على العدو ، وأوتيت جوامع الكلم ، وبينما أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى » وقد أورد الأستاذ المحقق تخريجات أخرى للحديث ، فلتنظر فى الأصل .

(١٧) سورة الأعراف / ١٩٩ .

(١٨) المماراة : المجادلة ، والمناظرة .

(١٩) اللّجوج : هو الذى يلزم أمرا ، ويأبى أن ينصرف عنه .

(٢٠) سورة النازعات / ٣١ .

(٢١) العصف : ورق الزرع وما لا يؤكل منه .

(٢٢) سورة النازعات / ٣٣ .

(٢٣) سورة الرعد / ٤ .

ووحدانيته ، وَهَدَى للحُجَّةِ على من ضلَّ عَنْهُ ، لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة ، لوجب فى القياس ألا تختلف الطعوم ، ولا يقع التفاضل فى الجنس الواحد ، إذا نَبَتَ فى مَغْرس واحد ، وسقى بماءٍ واحد ، ولكنه صُنْع اللّطيف الخبير .

ونحو قوله : ﴿ ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ واخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[٢٤] يريد اختلاف اللغات ، والمناظر ، والهيئات .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾[٢٥] . يريد : أنها تُجْمع وتسير ، فهى لكثرتها كأنها جامدة واقفة فى رأى العين ، وهى تسير سير السحاب .

وكل جيش غصّ[٢٦] الفضاء به ، لكثرته ، وبعد ما بين أطرافه ، فقَصُرَ عنه البصر — فكأنه فى حسبان الناظر واقف وهو يسير .

وإلى هذا المعنى ذهب الجَعْدِىّ فى وَصْفِ جَيْش فقال :

بأَرْعَنَ مثلِ الطّود تَحْسَبُ أَنَّهم
وُقوفٌ لِحَاجٍ والرِّكابُ تُهَمْلِجُ[٢٧]

وفى قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِى الأَلْبَابِ ﴾[٢٨] يريد أن سافك الدم إذا أُقيد منه ارتدع من كان يَهُمُّ بالقتل ، فكان فى القصاص له حياة وهو قتل .

وأخذه الشاعر فقال :

أَبْلِـغْ أبـا مَـالكٍ عنـى مُغَلْغَلَـةً
وفى العِتَابِ حَيَـاةٌ بَيْـنَ أَقْـوَام[٢٩]

---

(٢٤) سورة الروم / ٢٢ .

(٢٥) سورة النمل / ٨٨ .

(٢٦) امتلأ به الفضاء وضاق .

(٢٧) الأرعن : الجيش العظيم ، أو هو المضطرب لكثرته . والطود : الجبل العظيم . لحاجٍ : أى لحاجات جمع حاجة ، تهملج : من الهملجة وهى حسن سير الدابة فى سرعة .

(٢٨) سورة البقرة / ١٧٩ .

(٢٩) مُغَلْغلة : الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد .

يريد أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب فَكَفُّوا عن القتل ، فكان فى ذلك الحياة .

وأخذه المُتَمثِّلون فقالوا : « بعض القتل إحْياء للجميع » .

وقالوا : « القتل أَقَلُّ للقتل » .

وتبين قوله فى وصف خمر أهل الجنة : ﴿ **لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنْزِفُونَ** ﴾[٣٠] كيف نفى عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : ﴿ **ولا ينزفون** ﴾ عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاد الشراب . .

وإنما يَعرفُ « فضل القرآن » من كثُرَ نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات ؛ فإنه ليس فى جميع الأمم أُمَّةٌ أُوتيت من العَارِضة[٣١] ، والبيان ، واتساع المجال ، ما أُوتِيَتْهُ العربِ خِصِّيصَى من الله ، لما أَرْهَصَه[٣٢] فى الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نُبُوّته بالكتاب ، فجعله عَلَمَه ، كما جعل عَلَمَ كل نبى من المرسلين من أَشْبه الأمور بما فى زمانه المبعوث فيه :

فكان « لموسى » فَلْقُ البحر ، واليد ، والعصا ، وتفجُّرُ الحجر فى التِّيه[٣٣] بالماء الرَّوَاءِ[٣٤] ؛ إلى سائر أعلامه زمن السّحر .

وكان « لعيسى » إحياءُ الموتى ، وخلق الطير من الطين ، وإبْرَاءُ الأَكْمَه[٣٥] والأبرص ؛ إلى سائر أَعلامه زمن الطب .

وكان « لمحمد » صلى الله عليه وسلم ؛ الكتاب الذى لو اجتمعت الإنس والجن

---

(٣٠) سورة الواقعة / ١٩ .

(٣١) العارضة : قوة الكلام . وتنقيحه ، والرأى الجيد .

(٣٢) فى أساس البلاغة مادة « رهص » : أرهص الشيءَ : أثبته وأسسه وكان ذلك إرهاصا للنبوة . وأرهص الله فلانا للخير : جعله معدنا له ومأتى » .

(٣٣) التيه : المفازة (الصحراء) يتاه فيها . وقيل : التيه : حيث تاه بنو إسرائيل أى حاربوا ، فلم يهتدوا للخروج منها . (اللسان : تيه) .

(٣٤) الرواء : بالفتح والمد : الماء الكثير ، وقيل : العذب .

(٣٥) الأكمه : الذى يولد أعمى .

على أن يأتوا بمثله ، لم يأتوا به ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، إلى سائر أعلامه زمن البيان .

فالخطيبُ من العرب ، إذا ارتجل كلامًا فى نكـاح ، أو حَمَالـة[٣٦] ، أو تَحْضِيضٍ ، أو صُلح ، أو ما أشبه ذلك ــ لم يأت به من وادٍ واحد ، بل يَفْتَنُّ : فيختصر تارةً إرادة التّخفيف ، ويُطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرِّر تارةً ، إرادة التوكيد ، ويُخفى بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين ، ويشير إلى الشىء ويكنى عن الشىء .

وتكون عنايتُه بالكلام على حسب الحال ، وقدْرِ الحَفْل ، وكثْرةِ الحَشْد ، وجلالة المَقام .

ثُمَّ لا يأتى بالكلام كلِّه ، مُهذَّبًا كلَّ التَّهذيب ، ومُصَفًّى كلَّ التَّصْفِيَة ، بل تجِدُه يَمْزُجُ ويَشُوبُ[٣٧] ؛ لِيَدُل بالنَّاقِص على الوَافِر ، وبالغثِّ على السمين . ولو جعَلَه كلَّه نَجْرًا[٣٨] واحدًا ، لَبخسهُ بهاءَه ، وسلَبه ماءَه .

ومثل ذلك الشِّهابُ من القَبَسِ تُبرزُه للشّعاع ، والكوكبان يقترنان ، فينقُصُ النُّورَان ، والسِّخَابُ[٣٩] يُنظم بالياقوت والمَرْجان والعقيق[٤٠] والعِقْيَـان[٤١] ، ولا يجعل كلُّه جنسًا واحدًا من الرفيع الثّمين ، ولا النفيس المصون .

« وألفاظ العرب » مبنية على « ثمانية وعشرين حرفا » ، وهى أقصى طَوقِ اللِّسان .

و « **ألفاظُ جميع الأمم** » قاصرةٌ عن « ثمانية وعشرين » ولست واجدًا فى شىءٍ من كلامهم حرفا ليس فى حرفنا إلا مَعْدُولاً عن مَخْرجه شيئًا ، مثل « الحرف

---

(٣٦) الحمالة : الديّة ، والغرامة التى يحملها قوم عن قوم .

(٣٧) يشوب : فى اللسان : « شاب الشىء شوبا : خلطه » .

(٣٨) النجر : اللون .

(٣٩) فى اللسان : « سخب » : « السخاب » عند العزب كل قلادة كانت ذات جوهر أو لم تكن .

(٤٠) فى اللسان : « والعقيق : خرز أحمر يتخذ منه الفصوص » .

(٤١) فى اللسان : « والعقيان ذهب ينبت نباتا وليس مما يستذاب ويحصل من الحجارة وقيل هو الذهب الخالص » .

من كلامهم حرفا ليس فى حرفنا إلا مَعْدُولاً عن مَخْرجه شيئًا ، مثل « الحرف المتوسط مخرجى القاف والكاف »[٤٢] ، و « الحرف المتوسط مَخْرَجَى الفاء والباء »[٤٣] .

فهذه حال العرب فى مبانى ألفاظها .

ولها « الإعراب » الذى جعله الله وَشيا لكلامها ، وحِلْيَةً لنظامها ، وفارِقًا فى بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين ، والمَعْنَيَيْنِ المختلفين كالفاعل والمفعول ، لا يُفرقُ بينهما ، إذا تساوت حالاهما فى إمكان الفعل أن يكون لكلٍّ واحدٍ منهما — إلا « بالإعراب » .

ولو أن قائلا قال : « هذا قاتلٌ أخى » بالتنوين ، وقال آخر : « هذا قاتلُ أخى » بالإضافة — لدَّل التنوين على أنه لم يقتله ، ودلَّ حذف التنوين على أنه قد قتله .

ولو أن قارئا قرأ : ﴿ **فلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم ، إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ** ﴾[٤٤] وترك طريق الابتداء بإِنَّا ، وأَعْمَلَ القوْلَ فيها بالنصب على مذهب من يَنْصِبُ « أنَّ » بالقول كما ينصبها بالظن — لقلَبَ المعنى عن جهته ، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبىَّ ، عليه السلام ، مَحزونًا لقولهم : إنَّ الله يعلمُ ما يُسِرُّون وما يُعْلنونَ . وهذا كُفْرٌ ممن تَعمَّدَه ، وضَرْبٌ من اللحن لا تجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمأمومين أن يَتجوَّزوا فيه :

وقد قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« لا يُقتل قرشى صَبْرًا[٤٥] بعد اليوم » .

فمن رواه « جَزْمًا » أَوْجَبَ ظاهرُ الكلام للقرشى ألا يُقتل إن ارتد ، ولا يُقتَصّ منه إن قَتَل .

---

(٤٢) لعله يقصد بهذا الحرف : الكَاف الفارسية ، فى مثل قولهم « كَرْكَ » بمعنى ذئب .

(٤٣) لعله يقصد بهذا الحرف : الباء الفارسية المثلثة ، فى مثل قولهم : پدر : بمعنى الأب .

(٤٤) سورة يس / ٧٦ .

(٤٥) روى مسلم فى صحيحه بسنده — فى كتاب الجهاد والسير — عن عبد الله بن مطيع عن أبيه : قال سمعت النبى (ﷺ) يقول يوم فتح مكة « لا يقتل قرش صبرًا بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة » . قال العلماء : معناه الإعلام بأن قريشًا يُسْلِمون كلهُم ولا يرتد أحدٌ منهم كما ارتد غيرهم بعده (ﷺ) ممن حورب وقتل صبرا . وليس المراد أنهم لا يقتلون ظلما صبرا فقد جرى على قريش بعد ذلك .

ومن رواه « رفعا » انصرفَ التأْويلُ إلى الخَبَرِ عن قريش : أنه لا يَرتدُّ منها أحدٌ عن الإسلام فَيسْتَحقّ القتل .

أفما ترَى « الإعْرَابَ » كيف فرق بين هذين المعنيين .

* * *

وقد يفرقون بحركة البناء فى الحرف الواحد بين المعنيين .

فيقولون : « رَجُلٌ لُعْنَةٌ » إذا كان يَلعنه الناس . فإن كان هو الذى يلعن الناس ، قالوا : « رجلٌ لُعَنَةٌ » ، فحركوا العين بالفتح .

و « رجلٌ سُبَّةٌ » إذا كان يسبه الناسُ ، فإن كان هو يسبُّ الناسَ قالوا : « رجل سُبَبَةٌ » .

وكذلك : « هُزْأَةٌ ، وهُزَأَةٌ » وَ « سُخْرَة ، وسُخَرَة » و « ضُحْكَة ، وَضُحَكَة » و « خُدْعَة ، وخُدَعَة » .

وقد يفرقون بين المعنيين المتقاربين بتغيير حرف فى الكلمة حتى يكون تقارب ما بين اللفظين ، كتقارب ما بين المعنيين .

كقولهم للماء الملح الذى لا يشرب إلا عند الضرورة : « شَرُوب » ، ولما كان دونه مما قد يتجوَّزُ به : « شَرِيب » .

وكقولهم لما ارفضَّ على الثوب من البول إذ كان مثلَ رءوسِ الإبَر : « نضْحٌ » ، ورشُّ الماءِ عليه يُجزِىءُ من الغسل ، فإن زاد على ذلك قليلا قيل له : « نضْخٌ » ولم يُجْزِىء فيه إلا الغَسْل .

وكقولهم للقبض بأطراف الأصابع : « قَبْصٌ » وبالكف : « قَبْضٌ » .

وللأكل بأطراف الأسنان : « قَضْمٌ » وبالفم : « خَضمٌ » .

ولما ارتفع من الأرض : « حَزْنٌ » فإن زاد قليلا قيل : « حَزْمٌ » .

وللذى يجد البرْدَ : « خَصِرٌ » فإن كان مع ذلك جوعٌ قيل : « خَرِصٌ » .

وللنار إذا طَفِئَت : « هامِدة » فإن سكَن اللّهَبُ وبقى من جمرها شىءٌ قيل : « خَامِدَةٌ » .

وللقائم من الخيل : « صائم » فإن كان ذلك من حَفًى أو وَجًى ، قيل : « صائِن »[٤٦] .

وللعطاء : « شُكْدٌ » فإن كان مُكافَأةً قيل : « شُكْمٌ » .

وللخطأ من غير التعمد : « غلط » فإن كان فى الحساب قيل : « غلَتٌ » .

وللضيق فى العين : « خوَصٌ » فإن كان ذلك فى مؤخرها قيل : « خَوَصٌ » .

* * *

وقد يكتنف الشىء معان فيشتق لكل معنى منها اسم من اسم ذلك الشىء ، كاشتقاقهم من البطن لِلخَمِيص : « مُبَطَّن » وللعظيم البطن إذا كان خِلْقةً : « بَطِين » فإذا كان من كثرة الأكل قيل : « مِبْطان » وللمَنهوم : « بَطِنٌ »[٤٧] وللعليل البطن : « مَبْطون » .

ويقولون : وَجَدْتُ الضَّالةَ ووَجدْتُ فى الغضب ، ووَجدتُ فى الحزن ، ووجدتُ فى الاستغناء . ثمّ يجعلون الاسم فى الضّالة : « وُجودًا » و « وِجدانًا » وفى الحزن « وَجدًا » وفى الغضب « مَوْجِدَةً » وفى الاستغناء « وُجْدا » .

فى أشياء كثيرة ، ليس لاستقصاء ذكرها فى كتابنا هذا ، وجه .

* * *

وللعرب « الشِّعرُ » الذى أقامه الله تعالى لها مُقام الكتاب لغيرها

وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولَغَوْا فيه وهجروا ، واتبعوا ﴿ **مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيله** ﴾[٤٨] بأفهامٍ كَلِيلةٍ ، وأبصارٍ عليلةٍ ، ونظرٍ مَدْخُول ، فحرَّفوا الكلامَ عن مواضعه ، وعدلوه عن سُبُله .

ثم قَضَوْا عليه بالتّناقُض ، والاستحالة ، واللَّحْن ، وفساد النَّظْم ، والاختلاف .

---

(٤٦) فى اللسان : « الصائن من الخيل : القائم على طرف حافره من الحفاء . وأما الصائم فهو القائم على قوائمه الأربع من غير حفاء » .

(٤٧) فى اللسان : « ورجل بَطِن : لا هم له إلا بطنه ، وقيل هو الرغيب الذى لا تنتهى نفسه من الأكل » .

(٤٨) سورة آل عمران / ٧ .

وأَدْلَوْا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضّعيفَ الغُمْر ، والحدَث الغِرّ[٤٩] ، واعترضت بالشبه فى القلوب ، وقدَحت بالشكوك فى الصدور .

ولو كان ما نحلو إليه على تقريرهم وتأوُّلهم — لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسولُ الله ، صلى الله عليه وسلم ، يَحْتجُّ عليه بالقرآن ، ويجعلُهُ العلَم لنُبُوَّته ، والدليل على صدقه ، ويتحداه فى موطن بعد موطن ، على أن يأتى بسورةٍ من مثله . وهم الفصحاءُ والبلغاء ، والخطباء والشعراء ، والمخصوصون من بَيْنِ جميع الأنام بالألسنة الحِداد ، واللَّدَد[٥٠] ، فى الخِصَام ، مع اللُّب والنُّهى ، وأَصالة الرّأى . وقد وصفَهم الله بذلك فى غير موضع من الكتاب ، وكانوا مرّة يقولون : هو سحر ، ومرة يقولون : هو قول الكهنة ، ومرة : أساطير الأولين .

ولم يحك الله تعالى عنهم ، ولا بلغنا فى شىء من الروايات — أنهم جَدَبُوه[٥١] من الجهة التى جَدَبَهُ منها الطاعنون .

* * *

فأحببت أن أَنْضَحَ عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النَيِّرة ، والبراهين البيِّنة ، وأكشف للناس ما يَلبِسون .

فألفت هذا الكتاب ، جامعا لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والإيضاح ، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مُطَّلِع — على لغات العرب ؛ لأرِى به المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأى ، أو أَقضى عليه بتأويل .

ولم يجز لى أن أَنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير ؛ إذ كنتُ لم أقتصر على وَحْيِ القوم حتى كَشفْتُه ، وعلى إيمائهم حتى أَوضحته ، وزدتُ فى الألفاظ ونقصتُ ، وقدّمت وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الأمثالَ والأشكال ، حتى يستوى فى فهمه السامعون .

وأسأل الله التجاوزَ عن الزّلة بحسن النية ، فيما دَلَلتُ عليه ، وأجريتُ إليه ، والتوفيقَ للصواب ، وحسن الثواب .

---

(٤٩) فى اللسان : والغِرّ والغِرِّير : الشاب الذى لا تجربة له » . (٥٠) اللَّدد : الخصومة الشديدة .

(٥١) فى اللسان « جدب » : وجدب الشيء . . : عابه وذمه » .

باب الحكاية عن الطاعنين

يورد ابن قتيبة فى هذا البابَ كثيرًا من المزاعم التى يرددها الطاعنون على القرآن الكريم . فيذكر أنهم يحتجون بقوله عز وجل : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ ، وبقوله : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ . ثم يزعمون أنهم وقفوا فى القرآن على أشكال من الاختلاف فى النظم ، وأنماط من التناقض فى التعبير ، ونماذج من الاضطراب والخطأ فى الإعراب .

ويبدأ المؤلف فى عرض أمثلة لهذا الذى يزعمونه :

فهم يأخذون على القرآن ، تعدد القراءات فيه واختلافها ، ويقولون : « وجدنا الصحابة ، رضى الله عنهم ، ومن بعدهم يختلفون فى الحرف : فابن عباس يقرأ ﴿ **وادّكر بَعْدَ أَمَةٍ** ﴾ ، وغيره يقرأ ﴿ بعد أُمَّةٍ ﴾ وأبو بكر يقرأ ﴿ **وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحقِ بالْمَوْتِ** ﴾، والناس يقرأون ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بالْحَقِ** ﴾. ويتوقف الطاعنون عند بعض الآيات التى قد توهم بوجود خطأ فى الإعراب :

من ذلك : قوله تعالى ﴿ **إنَّ هَذَانَ لَسَاحِرَانِ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والْصَابِئُون** ﴾ فهم يرون أن اسم « إن» ـــ فى الآية الأولى ـــ قد جاء ، وهو مثنى ، بالألف ، وحقه أن يأتى بالياء ، لأنه فى موقع نصب . ويقولون إن « الصابئون » ـــ فى الآية الثانية ـــ قد رفعت ، رغم أنها معطوفة على منصوب هو اسم إن . ثم يعلقون على ذلك قائلين : « وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين ، فأى شيء بعد هذا الاختلاف تريدون ؟ وأى باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون ؟ » .

ولم يسلم القرآن — فى نظر هؤلاء — من تناقض بعض آياته ، مع آيات أخرى ومن الآيات التى وقفوا عندها ، قوله تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌ** ﴾ إذ يزعمون أنها تناقِض قوله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ** ﴾ ، يرون أنها تناقض قوله تعالى : ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَومَ هَا هُنَا حَمِيْمٌ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِين** ﴾ .

ثم ينعى عليهم عدم فقههم لأسرار التعبير القرآنى ؛ لذا نراهم يتساءلون عن دلالة قوله تعالى ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ ، فيقولون : أليس هذا مما يستوى فيه الصبار والشكور وغيرهما ؟

ويتساءلون عن معنى قوله تعالى : ﴿ **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُه** ﴾ . . . . لِمَ خصَّ الكفار دون المؤمنين ، أو ليس هذا مما يستوى فيه المؤمنون والكافرون ؟ ويتساءلون عن المقصد من إنزال المتشابه فى القرآن الكريم ، رغم أن القرآن نزل لهداية الناس وإرشادهم .

وحين يغمض عليهم الفرق ما بين الحقيقة والمجاز يطعنون فى بعض الأساليب التى انتحى القرآن فيها منحى مجازيا .

ثم إنهم لم يفطنوا إلى قيمة التكرار فى الكلام ، أو التكرار فى الأنباء ، أو التكرار فى القصص القرآنى فطعنوا فى القرآن من هذه الناحية ، وجدبوه من هذه الجهة . هذه هى المزاعم التى يرددها الطاعنون من الملحدين ، وأشباههم على كتاب الله تعالى . وقد ندب ابن قتيبة نفسه لدرئها ، وكشف إعوجاجها ، ورد كيدها إلى نحور أصحابها . . . وهو ما سنراه فى الأبواب التالية إن شاء الله تعالى .

هكذا تحدث « ابن قتيبة » عن الطاعنين ومزاعمهم . . . .

يقول « ابن قتيبة » :

وكان مما بلغنا عنهم : أنهم يحتجُّون بقوله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**[1] ﴾ وبقوله : ﴿ **لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ** ﴾[2] .

وقالوا : وجدنا الصحابة ، رضى الله عنهم ، ومن بعدهم ، يختلفون فى الحرف :

فابن عباس يقرأ ﴿ **وادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ** ﴾[3] وغيره يقرأ ﴿ بعد أُمّةٍ ﴾ .

و « عائشة » تقرأ : ﴿ **إِذْ تَلِقُونَهُ** ﴾[4] وغيرها يقرأ : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ .

و « أبو بكر الصديق » يقرأ ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالْمَوْتِ** ﴾ والناس يقرأون : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بالْحَقِّ ﴾[5] .

وقرأ بعضُ القراء .

﴿ **وَأَعتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكًا** ﴾ وقرأ الناسُ : ﴿ وأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكئًا ﴾[6] .

وكان « ابن مسعود » يقرأ : ﴿ **إِنْ كَانَتْ إِلاّ زَقْيَةً وَاحِدَةً** ﴾[7] .

ويقرأ ﴿ **كالصوف المنفوش** ﴾[8] .

مع أشباه لهذا كثيرة ، يخالف فيها مصحفُه المصاحفَ القديمة والحديثة .

وكان يحذف من مصحفه « أُمَّ الكتاب » ويمحو « المُعَوِّذَتين » ويقول : لم تزيدون فى كتاب الله ما ليس فيه ؟

و « أُبَيٌّ » يقرأ : ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفسِى فَكيَف أُظْهِرُكُمْ عَلَيْهَا ؟** ﴾[9] .

---

(١) سورة النساء / ٨٢ .
(٢) سورة فصلت / ٤٢ .
(٣) سورة يوسف / ٤٥ .
(٤) سورة النور / ١٥ .
(٥) سورة ق / ١٩ .
(٦) سورة يوسف / ٣١ .
(٧) سورة يس / ٢٩ ، ٥٣ .
(٨) سورة القارعة / ٥ . « كالعهن المنفوش » .
(٩) سورة طه / ١٥ وراجع المختصر فى شواذ القرآن ، لابن خالويه ، ص ٨٧ .

ويزيد فى مصحفه افتتاح « دعاء القنوت » إلى قول الداعى : « إن عذابك بالكافرين مُلْحِق » وَيُعدُّهُ سورتين من القرآن .

و « القُرَّاءُ » يختلفون : فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا .

وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين ، فأىَّ شىء بعد هذا الاختلاف تريدون ؟ وأى باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون ؟

وقد رَوَيْتُم من الطريق الذى ترتضون : روى أبو معاوية ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن « عائشة » أنها قالت :

ثلاثة أحرف فى كتاب الله هن خطأ من الكتاب : قوله : ﴿ **إنَّ هـٰذَان لَسَاحِرَانِ** ﴾[10] .

وفى سورة المائدة : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ** ﴾[11] .

وفى سورة النساء : ﴿ **لٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾[12] حدثناه إسحاق بن راهَويه[13] .

● قالوا : ورويتم عن « عثمان » أنه نظر فى المصحف فقال : أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها .

● وقالوا : وهل التناقض إلا مثل قوله : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِه إِنْسٌ وَلا جَانٌّ** ﴾[14] وهو يقول فى موضع آخر : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُون** ﴾[15] .

● ومثل قوله : ﴿ **هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ** ﴾[16] .

---

(١٠) سورة طه / ٦٣ .
(١١) سورة المائدة / ٦٩ .
(١٢) سورة النساء / ١٦٢ .
(١٣) هو اسحاق بن إبراهيم توفى ٢٣٨ هـ . وهو إمام جليل فى الفقه والحديث . تهذيب التهذيب ١ / ٢١٦ — ٢١٨ .
(١٤) سورة الرحمن / ٣٩ .
(١٥) سورة الحجر / ٩٢ ، ٩٣ .
(١٦) سورة المرسلات ٣٥ ، ٣٦ .

ويقول فى موضع آخر : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[١٧] .

ويقول : ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١٨] .

● ومثل قوله : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[١٩] .

وهو يقول فى موضع آخر : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[٢٠] .

● ومثل قوله : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[٢١] .

وقال بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ : ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فى يَوْمَيْنِ ﴾[٢٢] فدلت هذه الآية على أنه خلق الأرض قبل السماء .

وقال فى موضع آخر : ﴿ أَمِ السَّماءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾[٢٣] .

فدلت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض .

● ومثل قوله : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾[٢٤] .

وهو يقول فى موضع آخر : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ، وَلا طَعَامٌ إِلّا مِنْ غِسْلِين ﴾[٢٥] .

والضريع : نبت ، فهل يجوز أن يكون فى النار نبات وشجر ، والنار تأكلهما ؟

---

(١٧) سورة الزمر / ٣١ .

(١٨) سورة البقرة / ١١١ .

(١٩) سورة الصّافات / ٢٧ ، والطور / ٢٥ .

(٢٠) سورةالمؤمنون / ١٠١ .

(٢١) سورة فصلت / ٩ .

(٢٢) سورة فصلت ١١ ، ١٢ .

(٢٣) سورة النازعات / ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ .

(٢٤) سورة الغاشية / ٦ .

(٢٥) سورة الحاقة / ٣٥ ، ٣٦ .

• ومثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون ﴾ ، ثم قال على أثر ذلك : ﴿ وَما لَهُمْ ألا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾(٢٦) .

وقالوا : فأين قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فى الْيَتَامَى ﴾ ، من قوله : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾(٢٧) .

وأين قوله : ﴿ جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالهَدْىَ وَالْقَلاَئِدَ ﴾ ، من قوله ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٢٨) .

وأين قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِى فى البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ . من قوله : ﴿ إِنَّ فى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(٢٩) ، أو ليس هذا مما يستوى فيه الصبّار والشّكور وغير الصبّار والشّكور ؟ .

وما معنى قوله : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُه ﴾(٣٠) ؟ ولم خص الكفار دون المؤمنين ؟ أو ليس هذا مما يستوى فيه المؤمنونَ والكافرون ، ولا ينقص إيمان المؤمنين إن أعجبهم ؟

وقالوا فى قوله جل وعز : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ : استثناؤه المشيئة من الخلود ، يدل على الزوال ، وإلا فلا معنى للاستثناء . ثم قال : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(٣١) ، أى غير مقطوع .

• وقالوا فى قوله : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلّا المَوْتَةَ الْأُولَى ﴾(٣٢) : كيف يستثنى موتًا كان فى الدنيا من مُكْثِهِم فى الجنة ؟ وهل يجوز أن يقال فى الكلام : لا أعطيك اليوم درهما إلا ما أعطيتك أمس ؟

---

(٢٦) سورة الأنفال / ٣٣ ، ٣٤ .
(٢٧) سورة النساء / ٣ .
(٢٨) سورة المائدة / ٩٧ .
(٢٩) سورة لقمان / ٣١ .
(٣٠) سورة الحديد / ٢٠ .
(٣١) سورة هود / ١٠٨ .
(٣٢) سورة الدخان / ٥٦ .

• وقالوا فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾[٣٣] : هل يجوز أن يقال : فلان يجعل لك حُبًّا ، أى يحبك ؟

• وفى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾[٣٤] : السُّبات هو : النوم ، فكيف يجوز أن يجعل نومنا نومًا ؟

• وفى قوله : ﴿ قَوَارِيرَ / قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾[٣٥] ، وقوله : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾[٣٦] : كيف يكون زجاج من فضة ؟ وحجارة من طين ؟

* * *

• وقالوا فى قوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[٣٧] : هل كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يشك فيما يأتيه به جبريل ؟ وكيف يدعو الشاكين من هو على مثل سبيلهم ؟ وكيف يرتاب فيما يأتيه به الروح الأمين ، ويأتيه الثَّلَجُ واليقين بخبر أهل الكتاب عنه أنه حق ، وهم يكذبون ويُحرِّفون ويقولون على الله ما لا يعلمون ؟

* * *

• وقالوا فى قوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[٣٨] : أنتم تزعمون أنه لا شمس هناك ولا ليل ، وهذا يدل على أوقات مختلفة ، وشمس وَفَىْءٍ ، ونهار وليل ؛ لأن البُكْرَةَ تدل على أول النهار ، والعَشِىّ يدل على آخره ، وما كان له أول و آخر فله انْصِرَام ، وإذا انصرم[٣٩] عَاقَبَهُ الليل والنهار .

---

(٣٣) سورة مريم / ٩٦ .
(٣٤) سورة النبأ / ٩ .
(٣٥) سورة الإنسان / ١٦ .
(٣٦) سورة الذاريات / ٣٣ .
(٣٧) سورة يونس / ٩٤ ، ٩٥ .
(٣٨) سورة مريم / ٦٢ .
(٣٩) فى اللسان : « صرمت الشيء صرما : قطعته » .

● وقالوا فى سورة الأنفال ، حين ذكرها ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ** ﴾[40] : و « كما » تأتى لتشبيه الشىء ، ولم يتقدم من الكلام ما يُشَبَّه به إخراج الله إياه .

● وقالوا فى قوله : ﴿ **وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾[41] : كيف يكون عليه البلاغ بعد الوفاة ؟

● وقالوا : فى قوله فى الرعد : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** ﴾[42] ، أين الشىء الذى جُعِلت له الجنة مثلا ؟ وهل يجوز أن يقال : « مَثَلُ الدار التى وعدتك سُكْنَاها ، يطّرِدُ فيها نهر ، وتظلك فيها ، شجرة » . ويُمْسِكُ القائل ؟

● قالوا : وقال فى موضع آخر : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ** ﴾[43] ولم يأت به .

● وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾[44] : كيف تبلغ القلوب الحلوق ، والقلب إن زال عن موضعه شيئًا ، مات صاحبه ؟

* * *

● وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوْفِ** ﴾[45] : كيف يُذاق اللباس ؟ وإنما كان وجه الكلام : فألبسها الله لباس الجوع والخوف . أو غشّاها الله لباس الجوع والخوف . أو فأذاقها الله الجوع والخوف . ويحذف اللباس .

---

(٤٠) سورة الأنفال / ٢ — ٥ .
(٤١) سورة الرّعد / ٤٠ .
(٤٢) سورة الرعد / ٣٥ .
(٤٣) سورة الحج / ٧٣ .
(٤٤) سورة الأحزاب / ١٠ .
(٤٥) سورة النحل / ١١٢ .

• وقالوا فى قوله : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ ﴾[٤٦] : ما هذا من العقوبة ؟ وفى أى الدّارين يَسِمُهُ : فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

فإن كان فى الدنيا ، فإنه لم يبلغنا أن أحدًا من المشركين ، وُسِمَ[٤٧] على أنفه .

وإن كان فى النار ، فما أُعِدَّ للكافرين فيها من صنوف العذاب ، أكثر من الوسم على الأنف :

* * *

• وقالوا : ماذا أراد بإنزال « المتشابه » فى القرآن ، مَنْ أراد لعباده الهدى والبيان ؟

• وتعلقوا بكثير منه لَطُف معناه : لما فيه من المجازات ، بمضمر لغير مذكور ، أو محذوف من الكلام متروك ، أو مزيد فيه يوضح معناه حذف الزيادة ، أو مقدّم يوضح معناه التأخير ، أو مؤخر يوضح معناه التقديم ، أو مستعار ، أو مقلوب .

• وتكلموا فى الكناية ، مثل قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾[٤٨] ، ومثل قوله : ﴿ لَيْتَنى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانا خَلِيلًا ﴾[٤٩] .

• وفى تكرار الكلام فى : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾[٥٠]، وفى سورة الرحمن .

• وفى تكرار الأنباء والقصص ، من غير زيادة ولا إفادة .

• وفى مخالفة معنى الكلام مخرجه .

* * *

وقد ذكرتُ الحُجَّةَ عليهم فى جميع ما ذكروا ، وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ؛ ليكون الكتاب جامعًا للفن الذى قصدت له .

وأفردت « للغريب » كتابًا ، كى لا يطول هذا الكتاب ؛ وليكون مقصورًا على معناه ، خفيفًا على من قرأه إن شاء الله تعالى .

---

(٤٦) سورة القلم / ١٦ .

(٤٧) فى اللسان : « الوسم : أثر الكىّ » .

(٤٨) سورة المسد / ١ .

(٤٩) سورة الفرقان / ٢٨ .

(٥٠) سورة الكافرون / ١ .

باب الرد عليهم في وجوه القراءات

يَرُدّ ابن قتيبة فى هذا الباب على أولئك الذين يأخذون على القرآن الكريم ظاهرة تعدد القراءات فيه . ويحاولون أن يهاجموه من هذا الجانب . ويجعل محور رده الحديث الشريف : (نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرءوا كيف شئتم) .

ويورد مجموعة من الآراء ، تعنى بتفسير « سبعة الأحرف » ، ثم يخلص من ذلك إلى تفسيرها تفسيرًا لغويا يذهب فيه إلى أن المراد بها : سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن . ويستعين ابن قتيبة فى الاحتجاج لرأيه بماورد عن النبى (ﷺ) ، وبما تعرفه العربية من دلالات متعددة لكلمة « حرف » ، إذ يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم ، وعلى الكلمة الواحدة ، والخطبة كلها ، والقصيدة بكمالها .

ثم يتدبر وجوه الخلاف فى القراءات ، فيجد أنها سبعة أوجه ، كلها خلافات لغوية وبكلها نزل القرآن تيسيرا على الناس ، حتى يستطيع كل منهم أن يقرأ بلغته ، وبما جرت عليه عادته : فالهذلى يقرأ (عتى حين) يريد (حتى حين) ، لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها . والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز .

ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا — لاشتد ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه[1] .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص ٣٩ .

ثم يرجع ابن قتيبة الاختلاف إلى نوعين :

اختلاف تغاير ، واختلاف تضاد .

أما اختلاف التضاد فلا يجوز ، ولست واجده بحمد الله فى شىء من القرآن إلا فى الأمر والنهى من الناسخ والمنسوخ .

وأما اختلاف التغاير ، فهو جائز . وهنا يتناول المؤلف الآيات التى رماها الطاعنون بالتناقض ، لاختلاف القراءات فيها ، من ذلك : قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ على طريق الدعاء ، والمساءلة و ﴿ **رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ على جهة الخبر . والمعنيان ــ وإن اختلفا ــ صحيحان ؛ لأن أهل سبأ سألوا الله أن يفرقهم فى البلاد فقالوا : ﴿ ربَّنا باعِد بَيْنَ أسفارِنا ﴾ . فلما فرقهم الله فى البلاد أيدى[٢] سبأ ، وباعَدَ بين أسفارهم ، قالوا : ربُّنا باعَدَ بين أسْفارنا وأجابنا إلى ما سألنا ، فحكى الله سبحانه عنهم بالمعنيين فى غرضين[٣] .

يقول « ابن قتيبة » :

أمّا ما اعتلوا به من وجوه القراءات من الاختلاف ، فإنا نحتج عليهم فيه بقول النبى ، صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ ، فاقرءوا كيف شئتم »[٤] .

---

(٢) يقال : « ذهب القوم أيدى سبأ » أى تفرقوا فى كل وجه . وهذا مثل يضرب لمن يتفرقون ويأخذون طرقًا شتى .

(٣) السابق ، ص ٤١ .

(٤) ورد حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » من حديث : عمر بن الخطاب ، وهشام بن حكيم ابن حُزام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عباس ، وأبى سعيد الخدرى ، وحذيفة بن اليمان ، وأبى بكرة ، وعمرو بن العاص ، وزيد بن أرقم ، وأنس بن مالك ، وسمرة بن جندب ، وعمر بن أبى سلمة ، وأبى جهيم ، وأبى طلحة الأنصارى ، وأم أيوب الأنصارية رضى الله عنهم .
وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده الكبير أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال يوما ، وهو على المنبر ، أذكر أن رجلا سمع النبى ﷺ قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ » لما قام ، فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ » فقال عثمان رضى الله عنه ، وأنا أشهد معهم . راجع : النشر فى القراءات العشر ، المجلد الأول ، ص ٢١ طبعة دار الفكر .

وقد غلط فى تأويل هذا الحديث قوم فقالوا : السبعة الأحرف : وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

وقال آخرون : هى سبع لغات فى الكلمة .

وقال قوم : حلال ، وحرام ، وأمر ، ونهى ، وخبر ما كان قبل ، وخبر ما هو كائن بعد ، وأمثال(٥) .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : قد تواترت هذه الأحاديث كلها على الأحرف السبعة إلا ما حدثنى عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ابن جندب عن النبى ﷺ ، قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف » راجع : فضائل القرآن (آخر تفسير ابن كثير) ط ، الحلبى ، ص ١٩ — ٢٠ .

وقد ورد هذا الحديث ، بطرقه ووجوهه المختلفة فى الأمهات . وقد أورد الأستاذ المحقق تخريجات كثيرة للحديث ، فلتنظر فى الأصل .

(٥) اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين رأياً ، فيما حكاه القرطبى فى مقدمة تفسيره .

فبعضهم يرى أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقبل وتعال وهلم . ويستدلون على ذلك بحديث أبى بكر عن النبى (ﷺ) قال : « أتانى جبريل وميكائيل عليهما السلام ، فقال جبريل اقرأ القرآن على حرف واحد ، فقال ميكائيل استزده قال اقرأ القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة » ، رواه الإمام أحمد ، ورواه ابن جرير ، وزاد فى آخره « كقولك هلم وتعال » راجع فضائل القرآن لابن كثير ، ص ١٩ — وتفسير القرطبى ١ / ٣٦ .

وبعضهم يذهب إلى أن المراد بها معانى الأحكام : كالحلال ، والحرام ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمثال ، والإنشاء ، والإخبار وقيل : الناسخ ، والمنسوخ ، والخاص ، والعام ، والمجمل ، والمبين ، والمفسر . وقيل : الأمر ، والنهى ، والطلب ، والدعاء والخبر ، والاستخبار ، والزجر . وقيل : الوعد ، والوعيد ، والمطلق ، والمقيد ، والتفسير والإعراب ، والتأويل .

والشائع عند جمهور العلماء أن المراد بالسبعة : سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن (ليس المقصود أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه ، إذ لا يوجد ذلك إلا فى كلمات يسيرة ، نحو أف ، وجبريل ، وأرجه ، وهيهات ، وهيت) .

وأصحاب هذا الرأى يدفعون الآراء السابقة فى تفسير « السبعة الأحرف » بالقول إن الصحابة ، رضى الله عنهم ، قد تماروا فى القرآن وخالف بعضهم بعضا فى نفس التلاوة دون ما فى ذلك من المعانى . ومن الثابت أنهم قد احتكموا إلى الرسول (ﷺ) فاستقرأ كل رجل منهم ، ثم صوب جميعهم فى قراءتهم على اختلافها ... ولو كان تماريهم فيما دلت عليه تلاوتهم من التحليل ، والتحريم ، والوعد والوعيد ، وما أشبه ذلك لكان مستحيلا أن يصوب جميعهم ﷺ ، لأن ذلك لو جاز لوجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شىء بعينه وفرضه فى تلاوة من دلت تلاوته على فرضه . ونهى عن فعل ذلك الشىء بعينه وزجر عنه فى تلاوة الذى دلت عليه تلاوته على النهى والزجر عنه ، وأباح وأطلق فعل ذلك الشىء بعينه .

وليس شىء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل .

ومن قال : فلان يقرأ بحرف « أبى عمرو »[6] أو بحرف « عاصم »[7] فإنه لا يريد شيئا مما ذكروا وليس يوجد فى كتاب الله تعالى حرف قرىء على سبعة أوجه ـــ يصح ، فيما أعلم .

وإنما تأويل قوله ، ﷺ : « نزل القرآن على سبعة أحرف » : على سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن ، يدلك على ذلك قول رسول الله ﷺ : « فاقرءوا كيف شئتم » .

وقال « عمر »[8] : سمعت « هشام بن حكيم بن حزام » يقرأ سورة الفرقان

= وجعل لمن شاء أن يفعله ، ولمن شاء أن يتركه .. وهذا لا يليق بالقرآن .
(راجع : الطبرى فى مقدمة تفسيره ، جـ ١ ، ص ١٦ .)
فإن قيل فما تقول فى الحديث الذى رواه الطبرانى عن ابن مسعود ، عن النبى (ﷺ) قال : « إن الكتب كانت تنزل من السماء من باب واحد وإن القرآن أنزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وضرب أمثال ، وأمر وزاجر ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، واعمل بمحكمه ، وقف عند متشابهه ، واعتبر أمثاله ، فإن كلا من عند الله وما يذكر إلا أولو الألباب » .
فالجواب عنه من ثلاثة أوجه : **أحدها** أن هذه السبعة غير السبعة الأحرف التى ذكرها النبى (ﷺ) فى تلك الأحاديث التى تشير الى السبعة الأحرف .
الثانى : أن السبعة الأحرف فى هذا الحديث هى هذه المذكورة فى الأحاديث الأخرى التى هى الأوجه والقراءات . ويكون قوله حلال وحرام إلى آخره . تفسير للسبعة الأبواب . **الثالث** : أن يكون قوله حلال وحرام إلى آخره لا تعلق له بالسبعة الأحرف ، ولا بالسبعة الأبواب . بل إخبار عن القرآن أى هو كذا ، وكذا ، واتفق كونه بصفات سبع » .
راجع ابن الجزرى فى « النشر » المجلد الأول ، ص ٢٥ .

(٦) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار المازنى البصرى ، النحوى ، أحد الأئمة القراء السبعة . كان أعلم الناس بالقراءات والعربية ، وأيام العرب ، والشعر . وإليه انتهت الإمامة فى القراءة بالبصرة . توفى ١٥٤ بالكوفة .
راجع فى ترجمته : معرفة القراء الكبار ، للذهبى جـ ١ ، ص ٨٣ ـــ ٨٧ . وتهذيب التهذيب ١٧٨/١٢ ـــ ١٨٠ .

(٧) هو عاصم بن أبى النجود أو ابن بهدلة ، أحد القراء السبعة ، توفى سنة ١٢٧ . راجع : معرفة القراء الكبار ٧٣/١ . وتهذيب التهذيب ٣٨/٥ .

(٨) روى البخارى بسنده ـــ فى باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ـــ عن عمر بن الخطاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة النبى ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته =

على غير ما أقرؤها ، وقد كان النبي ، ﷺ أقرأنيها ، فأتيت به النبي ﷺ ، فأخبرته فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القراءة ، فقال هكذا أنزلت . ثم قال لى : اقرأ فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت . ثم قال : « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا منه ما تيسر » .

فمن قرأ قراءة « عبد الله » فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة « أبى » فقد قرأ بحرفه ومن قرأ قراءة « زيد » فقد قرأ بحرفه[9] .

و « الحرف » يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم ، وعلى الكلمة الواحدة ، ويقع الحرف على الكلمة بأسرها ، والخطبة كلها ، والقصيدة بكمالها .

ألا ترى أنهم يقولون : قال الشاعر كذا فى كلمته ، يعنون فى قصيدته .

والله جل وعز يقول : ﴿ **وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ** ﴾[10] وقال : ﴿ **وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى** ﴾[11] ، وقال : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُم لَهُمُ الْمَنصُورُون ، وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُون** ﴾[12] .

وقال : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ** ﴾[13] . أراد سبحانه وتعالى من الناس من يعبد الله على الخير يصيبه من تثمير المال ، وعافية البدن ، وإعطاء السُّؤْل ، فهو مطمئن مادام ذلك له . وإن امتحنه الله تعالى باللَّأْواء[14] فى عيشه والضراء فى بدنه وماله كفر به .

= بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ . فقلت إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله ﷺ . « اقرأ ياهشام » فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال ﷺ كذلك أنزلت . ثم قال اقرأ ياعمر فقرأت القراءة التى أقرأنى فقال رسول الله ﷺ « كذلك أنزلت ، فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

(٩) يقصد عبد الله بن مسعود ، المتوفى ٣٢ بالمدينة ، وأبى بن كعب المتوفى ٣٥ ، وزيد بن ثابت المتوفى سنة ٤٥ .

(١٠) سورة التوبة / ٧٤ (١١) سورة الفتح / ٢٦

(١٢) سورة الصافات / ١٧١ — ١٧٣ (١٣) سورة الحج / ١١

(١٤) اللأواء : المشقة ، والشدة ، وقيل القحط . راجع اللسان مادة (لأى) .

فهذا عبد الله على وجه واحد ، ومعنى متحد ، ومذهب واحد ، وهو معنى الحرف . ولو عبد الله على الشكر للنعمة ، والصبر للمصيبة ، والرضا بالقضاء — لم يكن عبده على حرف .

وقد تدبرت وجوه الخلاف فى القراءات فوجدتها سبعة أوجه :

أولها : الاختلاف فى إعراب الكلمة ، أو فى حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها فى الكتاب ولا يغير معناها نحو قوله تعالى : ﴿ **هَؤُلاَءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾[١٥] . وأطهرَ لكم ﴿ **وهل نُجَازِى الا الكفورَ** ﴾[١٦]﴿ **وهل يُجَازَى إلا الكفُورُ** ﴾ ، ﴿ **ويأمرون الناسَ بالبُخْلِ** ﴾[١٧] وبالبَخَلِ ، ﴿ **فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرةٍ** ﴾[١٨] ومَيْسُرَةٍ .

والوجه الثانى : أن يكون الاختلاف فى إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها فى الكتاب ، نحو قوله تعالى : ﴿ **ربَّنا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنا** ﴾[١٩] وربُّنا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنا ، و ﴿ **إذ تَلَقَّوْنَه بِأَلْسِنَتِكُمْ** ﴾[٢٠] وتَلِقُونَه ، ﴿ **وادَّكر بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾[٢١] وبَعْد أَمَهٍ .

---

(١٥) سورة هود / ٧٨ . وأطهرَ لكم ، بالفتح قراءة ابن مروان ، وعيسى بن عمر (راجع : مختصر فى شواذ القرآن ، لابن خالويه ، ص ٦٠) وراجع تخريج قراءة الفتح عند الزمخشرى فى الكشاف ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(١٦) سورة سبأ / ١٧ . وقال ابن الجزرى : / قرأ حمزة ، والكسائى ، وخلف ، وحفص بالنون مع كسر الزاى ، والكفور بالنصب . وقرأ الباقون بالياء وفتح الزاى ورفع الكفور . النشر المجلد الثانى ، ص ٣٥٠ .

(١٧) سورة النساء / ٣٧ ، والحديد / ٢٤ . والبَخَل ، بفتح الباء والخاء ، قراءة لحمزة والكسائى راجع النشر / م ٢ ، ص ٢٤٩ .

(١٨) سورة البقرة / ٢٨٠ . ومَيْسُرَة بضم السين قراءة لنافع ، أما الباقون فيفتحونها راجع النشر ، م ٢ ، ص ٢٣٦ ، اتحاف فضلاء البشر ، ص ١٠٠ .

(١٩) سورة سبأ / ١٩ . وفى النشر ، مجلد ٢ ، ص ٣٥٠ : واختلفُوا فى (ربنا باعد) فقرأ يعقوب برفع الباء من (ربنا) وفتح العين والدال وألف قبل العين من (باعد) وقرأ ابن كثير وأبو عمر وهشام بنصب الباء وكسر العين مشددة من غير ألف مع إسكان الدال . وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم بالألف وتخفيف العين .

(٢٠) سورة النور / ١٥

(٢١) سورة يوسف / ٤٥

والوجه الثالث : أن يكون الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها ، بما يغير معناها ولا يزيل صورتها ، نحو قوله : ﴿ **وَانْظُر إلى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُها** ﴾[22] ونُنْشِرُها ، ونحو قوله : ﴿ **حتى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ** ﴾[23] وفُرِّغَ .

والوجه الرابع : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتاب ولا يغير معناها﴿ **إنْ كانَتْ إلازَقْيَةً** ﴾و ﴿ **صَيْحَةً** ﴾[24] و(**كالصُّوفِ المَنْفُوشِ**) و ﴿ **كالْعِهْنِ** ﴾[25] .

والوجه الخامس : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها نحو قوله : ﴿ **وطَلْعٍ مَنْضُودٍ** ﴾ وفى موضع ﴿ **وطَلْحٍ مَنْضُودٍ** ﴾[26] .

والوجه السادس : أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير : نحو قوله : ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوتِ بِالْحقِ** ﴾[27] وفى موضع آخر : ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحقِ بِالمَوْتِ** ﴾ .

والوجه السابع : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ، نحو قوله تعالى : (**وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِم**) ، (**وما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**)[28] ونحو قوله : ﴿ **إنَّ اللَّهَ هُوَ الغنىُّ الحمِيدُ** ﴾ و (**إنَّ الغَنِىُّ الحميدُ**)[29] .

---

(٢٢) سورة البقرة / ٢٥٩ . قرأ ابن عامر والكوفيون بالزاى المنقوطة . وقرأ الباقون بالراء المهملة . النشر ، مجلد ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢٣) سورة سبأ / ٢٣ وفى « إتحاف فضلاء البشر : (قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الفاء والزاى مبنيا للفاعل . وقرأ الحسن فرغ بإهمال الزاى وإعجام العين مبنيا للمفعول من الفراغ . والباقون فزع بضم الفاء وكسر الزاى مشددة مبنيا للمفعول . الإتحاف ص ٢٢١ وفى البحر المحيط ٧ / ٢٧٨ « وقرأ عبد الله بن عمر ، والحسن ، وأيوب السختيانى ، وقتادة ، وأبو مجلز : « فرغ من الفراغ ــ مشدد الراء ــ مبنيا للمفعول » .

(٢٤) سورة يس / ٢٩ ، ٥٣ (٢٥) سورة القارعة / ٥

(٢٦) سورة الواقعة : ٢٩ . وفى المختصر فى شواذ القرآن ص ١٥١ / « وطَلْعٍ منضود بالعين قرأها على بن أبى طالب رضى الله عنه على المنبر . فقيل له أفلا نغيره فى المصحف قال ما ينبغى للقرآن أن يهاج أى لا يغير » .

(٢٧) سورة ق / ١٩.

(٢٨) سورة يس / ٣٥ . قرأ حمزة الكسائى وخلف وأبو بكر « عملت » بغير هاء ضمير . وقرأ الباقون بالهاء . (النشر م ٢ ص ٢٥٣) .

(٢٩) سورة لقمان / ٢٦ ــ وقراءة « ان الغنى الحميد » لم ترد فى كتب القراءات المعتمدة .

وقرأ بعض السلف : (**إنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى**)[٣٠] و ﴿ إنَّ السَّاعَةَ آتيةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا مِن نَفْسِي فَكَيْفَ أُظْهِرُكُم عَلَيْهَا ﴾[٣١] .

فَأَمَّا زيادة « دعاء القنوت » فى « مصحف أُبَى » ونقصان أُمِّ الكتاب والمُعوِّذتين من « مصحف عبد الله » ، فليس من هذه الوجوه ، وسنخبر بالسبب فيه ، إن شاء الله .

وكل هذه الحروف « كلام الله تعالى ، نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام وذلك أنه كان يعارضه فى كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن[٣٢] فَيُحْدِثُ الله إليه من ذلك ما يشاء ، وينسخ ما يشاء ، وييسر على عباده ما يشاء . فكان من تيسيره : أنْ أَمَره بان يُقْرىء كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم .

فالهذلى يقرأ (**عَتَّى حين**) يريد (**حتى حين**)[٣٣] ، لأنه هكذا يَلْفِظُ بها ويستعملها والأسدىّ يقرأ : تِعْلمون وتِعْلم و (**يسَوْدّ وجوه**)[٣٤] و (**وألم إِعْهَدْ إليكُمْ**)[٣٥] والتميمى يهمز . والقرشىُّ لا يهمز .

والآخر يقرأ (**وإذا قيل لهم**)[٣٦] (**وغيضَ الماء**)[٣٧] بإشمام[٣٨] الضم مع

---

(٣٠) سورة ص / ٧٣ . وفى المختصر فى شواذ القرآن / له تسع وتسعون نعجة بالفتح فيهما الحسن وابن مسعود ولى نعجة أنثى ابن مسعود و« إنَّ هذا أخى كان له تسعة وتسعون نعجة) ابن مسعود .

(٣١) سورة طه / ١٥ وهى فى المختصر قراءة لأُبّى. انظر ، ص ٨٧ .

(٣٢) روى البخارى فى صحيحه بسنده ــ فى كتاب « بدء الوحى » ــ عن ابن عباس أنه قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن . فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرِّيح المرسلة » .

(٣٣) سورة المؤمنون / ٥٤ ، والصافات / ١٧٤ ، ١٧٨ . والذاريات / ٤٣ .

(٣٤) سورة آل عمران / ١٠٦ (٣٥) سورة يس / ٦٠

(٣٦) سورة البقرة / ١١ ، وقد تكرر فيها وفى غيرها .

(٣٧) سورة هود / ٤٤

(٣٨) الإشمام عند (جمهور النحاة والقراء) : صبغ الصوت اللغوى بمسحة من صوت آخر مثل نطق بعض القبائل العربية لأمثال : « قيل وبيع » بإمالة نحو واو المد .
والإشمام أيضا (لدى القراء وحدهم) الإشارة بالشفتين إلى الضمة المحذوفة من آخر الكلمة الموقوف عليها بالسكون من غير تصويت بهذه الضمة .
ومن الواضح أن المؤلف ــ هنا ــ يقصد المعنى الأول .

الكسر ، و (**وهذه بِضاعَتُنا رُدَّت إلينا**)[٣٩] بإشمام الكسر مع الضم ، و (**مالك لا تأمَنّا**)[٤٠] بإشمام الضم مع الإدغام . وهذا ما لا يطوع به كل لِسان .

ولو أنَّ كل فريق من هؤلاء أُمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا — لاشتد ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه و لم يمكنه إلا بعد رياضةٍ للنفس طويلة ، وتذليل للّسان ، وقطعٍ للعادة ، فأراد الله ، برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم مُتَّسعاً فى اللغات ، ومُتَصرّفاً فى الحركات ، كتيسيره عليهم فى الدِّين حين أجاز لهم على لسان رسوله ، ﷺ ، أن يأخذوا باختلاف العلماء من صحابته فى فرائضهم وأحكامهم ، وصلاتهم وصيامهم ، وزكاتهم وحَجِّهم ، وطلاقهم وعتقهم ، وسائر أمور دينهم .

* * *

● **فإن قال قائل** : هذا جائز فى الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحداً ، **فهل** يجوز أيضاً إذا اختلفت المعانى ؟

● **قيل له** : الاختلاف نوعان : **اختلاف تَغايُر** ، **واختلاف تَضادّ** .

● « **فاختلاف التّضاد** » لا يجوز ، ولستَ وَاجِدَهُ بحمد الله فى شىء من القرآن إلا فى الأمر والنهى من الناسخ والمنسوخ .

● « **واختلاف التغاير** » جائز ، وذلك مثل قوله : ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾[٤١] أى بعد حين ، و ﴿ **بَعْدَ أَمَةٍ** ﴾ **أى بعد نِسْيَانٍ له ، والمعنيان جميعا وإن اختلفا صحيحان ؛ لأنه ذكر أمر « يوسف » بعد حين وبعد نسيان له ، فأنزل الله على لسان نبيه ، ﷺ ، بالمعنيين جميعاً فى غرضين .**

وكقوله : ﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم** ﴾[٤٢] أى تَقْبَلونه وتقولُونَه ، و « **تَلِقُونه** » من الولْقِ ، وهو الكذب ، والمعنيان جميعا وإن اختلفا صحيحان ؛ لأنهم قبلوه وقالوه ، وهو كذب ، فأنزل الله على نبيه بالمعنيين جميعا فى غرضين .

---

(٣٩) سورة يوسف / ٦٥

(٤٠) سورة يوسف / ١١

(٤١) سورة يوسف / ٤٥

(٤٢) سورة النور / ٥١

وكقوله : ﴿ ربَّنا باعِدْ بَيْنَ أسْفَارِناَ ﴾[٤٣] على طريق الدعاء والمسألة ، و ﴿ ربُّنا باَعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِناَ ﴾ على جهة الخبر ، والمعنيان وإن اختلفا صحيحان ، لأن أهل سبأ سألوا الله أن يُفَرِّقهُمْ فى البلاد فقالوا : ﴿ ربَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِناَ ﴾ فلما فرقهم الله فى البلاد أيْدِى سبا ، وباَعدَ بين أسفارهم ، قالوا : ربُّنَا باَعَدَ بَيْن أَسْفَارِنَا وَأَجَابَنَا إلى ما سألنا ، فحكى الله سبحانه عنهم بالمعنيين فى غرضين .

وكذلك قوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ماَ أَنْزَلَ هؤُلاءِ إلاّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[٤٤] و ﴿ لقد علمتُ ما أنزل هؤلاء ﴾ لأن فرعون قال لموسى إن آياتك التى أتيْتَ بها سحر . فقال موسى مرّة : لقد علمتُ ما هى سحر ولكنها بصائر ، وقال مرّة : لقد علمتَ أنت أيضاً ما هى سحر ، وماهى إلا بصائر . فأنزل الله المعنيين جميعاً .

وقوله : ﴿ وأَعْتَدت لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾[٤٥] وهو الطعام ، « وأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكاً » وهو الأُتْرّجّ ، ويقال : الزُّمَاوَرْد ، فدلت هذه القراءة على معنى ذلك الطعام ، وأنزل الله بالمعنيين جميعاً .

وكذلك ﴿ نُنْشِرُها ﴾[٤٦] و« نُنشِزها » ؛ لأن الإنشار : الإحياء ، والإنشاز هو : التحريك للنقل ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك : ﴿ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهم ﴾[٤٧] و « فُرِّغ » ؛ لأن فُزِّع : خُفف عنها الفزع ، وفرِّغَ : فُرِّغ عنها الفزع .

وكل ما فى القرآن من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ـــ فعلى مثل هذه السبيل .

* * *

فإن قال قائل : فهل يجوز لنا أن نقرأ بجميع هذه الوجوه ؟

---

(٤٣) سورة سبأ / ١٩
(٤٤) سورة الاسراء / ١٠٢
(٤٥) سورة يوسف / ٣١
(٤٦) سورة البقرة / ٢٥٩
(٤٧) سورة سبأ / ٢٣

قيل له : كل ما كان منها موافقاً لمُصْحَفِنَا غيرَ خارج من رسم كتابه — جاز لنا أن نقرأ به . وليس لنا ذلك فيما خالفَهَ ؛ لأن المتقدمين من الصحابة والتابعين ، قرأوا بلغاتهم ، وجَرَوا على عادتهم وخَلّو أنفسهم وسَوْمَ طبائعهم ، فكان ذلك جائزا لهم ، ولقوم من القرّاء بعدهم مأمونين على التنزيل ، عارفين بالتأويل ؛ فأما نحن معشر المتكلفين ، فقد جمعنا الله بحسن اختيار السلف لنا على مصحف هو آخر العَرْض ، وليس لنا أن نَعْدُوَه ، كما كان لهم أن يُفسِّروه ، وليس لنا أن نفسِّره .

ولو جاز لنا أن نقرأه بخلاف ما ثبت فى مصحفنا ، لجاز أن نكتبه على الاختلاف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير ، وهناك يقع ما كرِهَهُ لنا الأئمة المُوفَّقون ، رحمةُ الله عليهم .

باب ما ادعى على القرآن من اللحن

يخلص هذا الباب لدفع قول الطاعنين أن ثمة لحنا فى بعض الآيات القرآنية ، أو فى بعض القراءات التى تقرأ بها هذه الآيات .

وقد تأمل ابن قتيبة هذه الآيات ، أو القراءات ، وأمثالها ، ثم عمل على تخريجها تخريجا غلب فيه الذوق اللغوى على الحس العقدى فى بعض الأحيان .

فهو يرى أن بعض هذه القراءات يمكن توجيهه توجيها يتفق ومذهب من مذاهب أهل الإعراب ، وحينئذ لا يجوز لأحد أن يطعن فيها باللحن ، أو الخطأ فى الإعراب ، من ذلك مثلا :

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ** ﴾ ، إذ يمكن تخريج الآية على لغة بلحرث ابن كعب ، الذين يقولون : مررت برجلان وقبضت منه درهمان (فيلزمون المثنى الألف فى أحواله كلها ، رفعا ونصبا وجرا) .

ومن ذلك أيضا ، قوله تعالى : (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ**) ، إذ يمكن أن يقال إن « الصابئون » وردت بالرفع عطفا على محل اسم إن (ومحله الرفع) .

ويستشهد على ذلك ببيت لضابىء البرجمى ، يقول فيه :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله

فـــانى وقَيّـــارٌ بها لغــــريب

حيث عطف « قيار » بالرفع على محل ياء المتكلم فى (فإنى) قبل استكمال الخبر ، وهو (لغريب) .

كما يرى أن بعض هذه القراءات يمكن أن يخرج على أنه خطأ من الكاتب ، وليس على رسول الله ﷺ جناية الكاتب فى الخطأ . ولو كان هذا عيبا يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع فى كتابة المصحف من طريق التهجى[1] .

ثم يذهب ابن قتيبة الى أن بعض هذه القراءات مرده إلى لحن اللاحنين من القراء المتأخرين أولئك الذين ليس لهم طبع اللغة ، ولا علم التكلف ؛ فهفوا فى كثير من الحروف وزلوا وقرأوا بالشاذ وأخلوا . وبدأ يمثل لبعض ما زلوا فيه ، أو وهموا ، ومما ذكره .

قرأ « حمزة » : ﴿ **ومكْرَ السيْءْ ولا يَحِيق المْكْرُ السيءُ إلا بأهله** ﴾ فجزم الحرف الأول . والجزم لا يدخل الأسماء ، وأعرب الآخر وهو مثله[2] .

وقرأ « الأعمش » : ﴿ **وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِّى** ﴾ بكسر الياء ، كأنه ظن أن الباء تخفض الحرف كله ، واتبعه على ذلك « حمزة » .

وما ابن قتيبة فى هذا الرأى الا لغوى ينحو نحو اللغويين الذين لا يتورعون فى نسبة الخطأ والوهم إلى بعض القراءات مادام لا يجدون لها وجها فيما وقفوا عليه من قواعد العربية وليس هذا يليق بقراءات تصلها الرواية إلى رسول الله ﷺ .

« وقد كان فى إمكانهم أن يصفوها بأنها جاءت على لهجة محلية ، أو أقل فصاحة ، فلا تبنى عليها قاعدة ، دون أن يطعنوا على القارىء ، أو يشككوا فى صحة القراءة »[3] .

---

(١) مشكل القرآن ، ص ٥٧

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص ٦٣

(٣) البحث اللغوى عند العرب ، د . أحمد مختار عمر ، ص ٣١

يقول « ابن قتيبة » :

وأما ما تعلقوا به من « حديث عائشة » رضى الله عنها فى غلط الكاتب ، و « حديث عثمان » رضى الله عنه : أرى فيه لحناً — فقد تكلم النحويون فى هذه الحروف ، واعتلوا لكل حرف منها ، واستشهدوا الشعر[٤] :

● فقالوا : فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانَ ﴾[٥] وهى لغة بَلْحَرث ابن كعب[٦] يقولون : مررت برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يداه ، وركبت علاه . وأنشدوا .

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أُذْنَاهُ ضَرْبَةً
دَعَتْهُ إِلَى هَابِى التُّرابِ عَقِيمِ[٧]

---

(٤) أورد السيوطى فى « الاتقان » هذه الاثار ثم علق عليها بقوله : « وهذه الاثارات مشكلة جدا وكيف يظن بالصحابة أولا أنهم يلحنون فى الكلام فضلا عن القرآن وهم الفصحاء اللد . ثم كيف يظن بهم ثانيا فى القرآن الذى تلقوه من النبى ﷺ كما أنزل وحفظوه ، وضبطوه ، واتقنوه . ثم كيف يظن بهم ثالثا اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته . ثم كيف يظن بهم رابعا عدم تنبههم ورجوعهم عنه . ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره . ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروى بالتواتر خلفا عن سلف هذا مما يستحيل عقلا وشرعا وعادة .

وقد أجاب العلماء عن ذلك بثلاثة أجوبة :

أحدها : أن ذلك لا يصح عن عثمان فان اسناده ضعيف مضطرب منقطع ولأن عثمان جُعِل للناس إماما يقتدون به فكيف يرى فيه لحنا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها . فاذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم الخيار فكيف يقيمه غيرهم . وأيضا فانه لم يكتب مصحفا واحدا بل كتب عدة مصاحف ، فان قيل ان اللحن وقع فى جميعها فبعيد اتفاقهم على ذلك أو فى بعضها فهو اعتراف بصحة البعض و لم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان فى مصحف دون مصحف . و لم تأت المصاحف قط مختلفة الا فيما هو من وجوه القراءة وليس ذلك بلحن .

والوجه الثانى — على تقدير صحة الرواية — أن ذلك محمول على الرمز والاشارة ومواضع الحذف نحو « الكتاب » و « الصابرين » وما أشبه ذلك .

الثالث : أنه مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها كما كتبوا : « لا أوضعوا » (سورة التوبة / ٤٧) ، و « لا أذبحنه » (سورة النمل / ٢١) — فقد كتبت هذه الكلمات بألف بعد « لا » ... ولو قرىء ذلك بظاهر الخط لكان لحنا . راجع الاتقان : للسيوطى ج ١ ص ١٨٣ طبعة المكتبة الثقافية .

(٥) سورة طه / ٦٣ .

(٦) وهى لغة تجرى المثنى بالألف دائما ، رفعا ونصبا وجرا . وقد اختار هذا التخريج لهذه القراءة أبو حيان فى البحر المحيط (جـ ٦ / ٢٥٥) وأورد عن أبى زيد قوله سمعت من العرب من يقلب كل ياء ينفتح ما قبلها ألفا .

(٧) فى اللسان « هبا » : « وموضع هابى التراب : كأن ترابه مثل الهباء فى الرقة . والهابى من التراب : ما ارتفع ودق » .

أى موضع كثير التراب لا ينبث .

وأنشدوا :

أَىَّ قَلُــوصِ راكِبٍ تراهــــا

طـاَرُوا عَلاَهُــنَّ فَطِـرْ عَلاهَــا[٨]

على أن القراء قد اختلفوا فى قراءة هذا الحرف : فقرأه « أبو عمرو بن العلاء » ، و « عيسى بن عمر » : ﴿ **إنَّ هَذَيْن لَسَاحِرَانِ** ﴾ وذهبا إلى أنه غلط من الكاتب كما قالت « عائشة »[٩] .

وكان « عاصم الجحْدَرىّ » يكتب هذه الأحرف الثلاثة فى مصحفه على مثالها فى الإمام ، فإذا قرأها ، قرأ : ﴿ **إنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِران** ﴾ ، وقرأ ﴿ **والمُقيمُونَ الصَّلاَةَ** ﴾[١٠] ، وقرأ : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هادُوا والصَّابِئينَ** ﴾[١١] .

وكان يقْرَأُ أيضاً فى سورة البقرة : ﴿ **وَالصَّابِرُون فى البَأْساَءِ والضَرَّاءِ** ﴾[١٢] ويكتبها : ﴿ **الصَّابرين** ﴾ .

وإنما فَرَق بين القراءة والكتاب لقول « عثمان » رحمه الله : « أرى فيه لحناً وستُقيمُه العرب بألسنتها » فأقامه بلسانه ، وترك الرسم على حاله .

وكان « الحجاج » وكَلَ « عاصماً » و « نَاجِيةَ بن رُمْح » و « علىّ بن أصْمع » بتَتَبُّع المصاحف ، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفاً لمصحف عثمان ، ويعطوا صاحبه ستين درهما .

خَبَّرنى بذلك « أبو حاتم » عن « الأصمعى » قال : وفى ذلك يقول « الشاعر » :

وإلا رُسُومَ لدَّارِ قَفْـراً كأنَّهـا

كتابٌ مَحَاهُ الباهِلِىّ بن أصْمَعَا[١٣]

---

(٨) القلوص : الفتية من الإبل وقيل : هى كل أنثى من الإبل حين تركب (راجع اللسان : قلص) . وقوله « علاها » يريد : عليها .

(٩) راجع البحر المحيط جـ ٦ ص ٢٥٥

(١٠) سورة النساء / ١٦٢

(١١) سورة المائدة / ٦٩

(١٢) سورة البقرة / ١٧٧

(١٣) الرسوم : جمع رسم وهو الأثر ، وقيل بقية الأثر . والقفر : الخلاء من الأرض . راجع اللسان مادتى « رسم » و « قفر » .

وقرأ بعضهم : ﴿ **إنْ هَذانِ لَسَاحِرانِ** ﴾ اعتباراً بقراءة « أُبَىّ » لأنها فى مصحفه : ﴿ **إنْ ذَانِ إلا ساحران** ﴾ وفى مصحف « عبد الله »(١٤) : ﴿ **وأَسَرُّوا النَّجْوَى أنْ هَذَانِ سَاحِرَانِ** ﴾ منصوبة الألف بجعل ﴿ **أن هذان** ﴾ تَبْييناً للنجوى .

● وقالوا فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُون** ﴾ رفع « **الصابئين** » لأنه رَدٌّ على موضع ﴿ **إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وموضعه رفع ، لأن « إنّ » مُبْتَدَأةٌ وليست تُحْدِثُ فى الكلام مَعْنًى كما تُحْدِثُ أخواتها . ألا ترى أنك تقول : زيد قائم ، ثم تقول : أن زيداً قائم ، ولا يكون بين الكلامين فرق فى المعنى . وتقول : زيد قائم ، ثم تقول : لعل زيداً قائم ، فَتُحْدِثُ فى الكلام معنى الشك . وتقول : زيد قائم ، ثم تقول : ليت زيداً قائم ، فَتُحْدِثُ فى الكلام معنى التمنى ، ويدُلُّكَ على ذلك قولهم : إن عبد الله قائم وزيد ، فترفع زيداً ، كأنك قلت : عبد الله قائمٌ وزيدٌ ، وتقول : لعل عبد الله قائمٌ وزيداً ، فتنصب مع « لعل » وترفع مع « إن » لما أَحْدَثَتْهُ « لعل » من معنى الشك فى الكلام ، ولأنّ « إنَّ » لم تُحْدِث شيئاً . وكان « الكِسائى » يُجيز : إنّ عبد الله وزيدٌ قائمان ، وانّ عبد الله وزيدٌ قائم . و« البصريون » يُجيزونه ، ويحكون : ﴿ **إنَّ الله وَملائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ** ﴾(١٥) وينشدون :

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمَدِينَة رحْلُهُ
فإنِّــى وقَيَّـــارٌ بها لَغَـــرِيبُ(١٦)

* * *

● وقالوا فى نصب « المُقيمين » بأقاويل : قال بعضهم : أراد بما أُنزِلَ إليك وإلى المقيمين . وقال بعضهم : وما أنزل من قبلك ومن قبل المقيمين ، وكان « الكسائى » يردّه إلى قوله : ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ** ﴾ [أى :] ويؤمنون

---

(١٤) يقصد عبد الله بن مسعود (١٥) سورة الأحزاب / ٥٦

(١٦) فى اللسان « قير » : « قال ابن برى : قيار قيل هو اسم لجمله ، وقيل : هو اسم لفرسه ، يقول : من كان بالمدينة بيته فلست منها ولا لى بها منزل . وكان عثمان ، رضى الله عنه ، حبسه لفرية افتراها » .

بالمقيمين[١٧] ، واعتبره بقوله فى موضع آخر : ﴿ **يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[١٨] أى بالمؤمنين . وقال بعضهم : هو نصب على المدح . قال « أبو عبيدة » هو نصب على تطَاوُل الكلام بالنِّسَق ، وأنشد « لِلخرْنِق بنت هَفَّان » :

لا يَبْعُدَنْ قَوْمِى الذين هُمُ
سُمُّ العُداة وآفةُ الجُزْرِ[١٩]
النازلين بكلّ مُعْتَرَكٍ
والطيِّبون مَعَاقِدَ الأُزْرِ

● ومما يشبه هذه الحروف — ولم يذكروه — قوله فى سورة البقرة : ﴿ **والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ** ﴾[٢٠] .
والقُرَّاءُ جميعاً على نصب « الصابرين » إلا « عاصما الجحْدَرى » فإنه كان يرفع الحرف إذا قرأه ، ويَنْصِبه إذا كتبه ، لِلعِلَّة التى تقدم ذكرها .

واعتلَّ « أصحاب النحو » للحرف ، فقال « بعضهم » : هو نصبٌ على المدح ، والعرب تَنْصِبُ على المدح والذم[٢١] كأنهم ينْوُون إفراد الممدوح بمدحٍ مُجَدَّدٍ غير متبع لأوَّل الكلام ، كذلك قال « الفرَّاء » .

وقال « بعضهم » : أراد : وآتى المالَ على حبه ذَوى القُرْبَى واليَتَامَى والمساكين وابن السَّبيل والسائلين والصابرين فى البأْسَاء والضَّرَّاء .

---

(١٧) هذا التخريج يعنى أن « المقيمين » جاء مجرورا إما عطفا على « الكاف » فى « إليك » وإما عطفا على الكاف فى « قبلك » .
(١٨) سورة التوبة / ٦١
(١٩) قولها : « لا يبعدن قومى » : دعاء لقومها خرج مخرج النهى ، والمعنى لا يهلكن . والعداة جمع عاد وهو العدو . والجزر جمع « جزور » وهى الناقة المذبوحة . والشاعرة تكنى بـ « الطيبون معاقد الازر » عن طهارة قومها من الفاحشة .
(٢٠) سورة البقرة / ١٧٧ .
(٢١) أى أن هناك فعلا مقدرا نقدره بـ « أمدح » أو « أذم » .

وهذا وجه حسن ؛ لأنَّ البأساء : الفقر ، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ **وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الفَقِير** ﴾[22] .

والضرّاء : البلاء فى البدن ، من الزَّمانَةِ والعِلّة . فكأنه قال : وآتى المال على حُبّه السائلين الطّوّافين ، والصابرين على الفقر والضرّ الذين لا يسألون ولا يَشْكُون ، وجعل « المُوفِين » وسَطاً بين المُعْطين نَسَقاً على « من آمن بالله » .

(٢٢) سورة الحج / ٢٨ .

باب التناقض والاختلاف

يتوقف ابن قتيبة فى هذا الباب عند الآيات التى زعم الطاعنون أنها تتناقض مع آيات قرآنية أخرى وهو يحلل هذه الآيات ، ويتأمل معانيها مثبتا أنها تتآلف ، وتتوافق لاتتناقض ولا تختلف . يقول ابن قتيبة : « فأما ما نحلوه من التناقض فى مثل قوله تعالى : (**فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان**) وهو يقول فى موضع آخر : (**فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**) .

فالجواب فى ذلك : أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى : (**مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**) ففى مثل هذا اليوم يسألون وفيه لا يسألون ، لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون ، فاذا انتهت المسألة ووجبت الحجة : (**انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**) وانقطع الكلام »[1] .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى متحدثا عن أهل الجنة : (**لا يَذُوقُونَ فِيها الْمَوْتَ إلاَّ الْمَوتَة الأُولَى**) فقد قال الطاعنون : كيف يستثنى موتا كان فى الدنيا من مكثهم فى الجنة ؟ وهل يجوز أن يقالَ فى الكلام : لا أعطيك اليوم درهما الا ماأعطيتك أمس » .

فيرد ابن قتيبة قائلا : « إلا فى هذا الموضع بمعنى سوى . ومثله : (**وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**) يريد سوى ما سلف فى الجاهلية قبل

---

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص ٦٥

النهى ثم يقول : « وإنما استثنى الموتة الأولى وهى فى الدنيا ، لأن السعداء حين يموتون يصيرون بما شاء الله من لطفه وقدرته إلى أسباب الجنة ... أفما ترى أنهم عندنا موتى وهم فى الجنة متصلون بأسبابها »[٢] .

قال أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة :

● فأما ما نَحَلُوه[٣] من التناقض فى مثل قوله تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عن ذنبه إِنْسٌ وَلا جَانٌّ** ﴾[٤] . وهو يقول فى موضع آخر : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهم أجمعين عمَّا كانوا يَعْمَلُون** ﴾[٥] .

فالجواب فى ذلك : أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى : ﴿ **مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾[٦] ، ففى مثل هذا اليوم يُسئَلون وفيه لا يسئلون ؛ لأنهم حين يُعْرَضون يوقَفُون على الذنوب ويحُاَسبون ، فإذا انتهت المسئلة ووَجَبتْ الحجّة : ﴿ **انشقَّتِ السماءُ فكانت وَرْدَةً كالدِّهَان** ﴾[٧] وانقطع الكلام ، وذهب الخصام ، واسودّت وجوه قومٍ ، وابيضت وجوه آخرين ، وعُرِف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت الصحف من الأيدى : فآخِذٌ ذات اليمين إلى الجنة ، وآخِذٌ ذات الشمال إلى النار .

● وكذلك قال : « ابن عباس » رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِه إِنْسٌ وَلا جَانٌّ** ﴾[٨] قال : هو موطِنٌ لا يُسْئَلون فيه . ومثله : ﴿ **وَلا يُسْئَلُ عن ذُنُوبِهم المجرِمُون** ﴾[٩] .

● وقوله : ﴿ **لا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وقد قَدَّمْتُ إليكم بالوَعِيدِ** ﴾[١٠] وقوله :

---

(٢) السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩.
(٣) فى اللسان : « ونحله القول ينحله نحلاً : نسبه إليه » .
(٤) سورة الرحمن / ١٩
(٥) سورة الحجر / ٩٥
(٦) سورة المعارج / ٤ .
(٧) سورة الرحمن / ٣٧ .
(٨) سورة الرحمن / ٣٩ .
(٩) سورة القصص / ٧٨ .
(١٠) سورة ق / ٢٨ .

﴿ **هذا يومُ لا يَنْطِقُون وَلا يُؤْذَنُ لهم فَيَعْتَذِرون** ﴾[11] ، وهو يقول فى موضع آخر : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُون** ﴾[12] ويقول : ﴿ **هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين** ﴾[13] .

والجواب عن هذا كله نحو جوابنا الأول ؛ لأنهم يختصمون ويدعى المظلومون على الظالمين ، ففى تلك الحال يختصمون ، فإذا وقع القِصاص وثبت الحكم قيل لهم : لا تختصموا ولا تنطقوا ، ولا تعتذروا ، فليس ذلك بُمْغنٍ عنكم ولا نافع لكم ؛ فَيَخْسَئُون .

روى عبد الرّزّاق عن مَعْمَر ، عن قتادة : أن رجلا جاء إلى « عِكْرِمة » فقال : أرأيتَ قول الله تعالى : ﴿ **هذا يومُ لا يَنْطِقُون** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** ﴾ فقال : إنها مواقف ، فأما موقف منها : فتكلموا واختصموا ، ثم ختم الله على أفواههم فتكلمَتْ أيديهم وأرجلهم ، فحينئذ لا يتكلمون .

● وقوله : ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُون** ﴾[14] ، وهو يقول فى موضع آخر : ﴿ **فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُون** ﴾[15] ، فإنه إذا نُفخ فى الصور نفخةٌ واحدة ، تقطّعت الأرحام ، وبطلَت الأنساب ، وشُغِلوا بأنفسهم عن التّسْآل و ﴿ **صَعِقَ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فى الأرض إلاَّ مَنْ شَاءَ الله** ﴾[16] . فإذا نُفِخَ فيه أُخْرَى : قاموا ينظرون ﴿ **وأَقْبَلَ بعْضُهُم على بَعْضٍ يَتَساءَلون** ﴾ وقالوا : ﴿ **مَنْ بَعَثَنا من مَرْقَدِنَا ؟ هَـذَا مَا وَعَـدَ الرَّحْمـنُ وصَدَقَ المُرْسَلُون** ﴾[17] . وهو معنى قول « ابن عباس » .

* * *

(١١) سورة المرسلات / ٣٥ .
(١٢) سورة الزمر / ٣١ .
(١٣) سورة البقرة / ١١١ ، والنمل / ٦٤ .
(١٤) سورة الصافات / ٢٧ ، والطور / ٢٥ .
(١٥) سورة المؤمنون / ١٠١
(١٦) سورة الزمر / ٦٨ .
(١٧) سورة يس / ٥٢ .

● وقوله : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكم لَتكْفُرُون بالذى خلَقَ الأرْضَ فى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلوُنَ لَهُ أَنْدَاداً ذلك ربُّ العالمين . وَجَعَل فيها رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهاَ وَبارَكَ فيها وَقَدَّرَ فيها أَقْوَاتَهَا فى أربعة أيَّامٍ سواء للسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِياَ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتاَ أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾[18] فدلَّت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السماء .

وقال فى موضع آخر : ﴿ **أمِ السَّماءُ بَنَاهاَ رَفَعَ سَمْكَهاَ فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَها وأخْرَجَ ضُحَاهاَ والأرضَ بعد ذلك دَحَاهاَ** ﴾[19] .

فدلَّت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض .

وليس على كتاب الله تحريف الجاهلين ، وغلط المتأوِّلين . وإنما كان يجد الطاعن متعلَّقاً ومقالاً لو قال : والأرضَ بعد ذلك خلقها أو ابتدأها أو أنشأها ، وإنما قال : ﴿ **دَحَاهاَ** ﴾ فابتدأ الخلق للأرض على ما فى الآى الأُوَل فى يومين ، ثم خلق السموات وكانت دُخَاناً فى يومين ، ثم دَحَا بعد ذلك الأرض ، أى بسطها ومدّها ، وكانت رَبْوَةً مجتمعة ، وأَرْساها بالجبال ، وأنبت فيها النبات فى يومين ، فتلك ستة أيام سواء للسائلين ، وهو معنى قول « ابن عباس » .

وقال « مجاهد » : « بعد ذلك » فى هذا الموضع ، بمعنى « مع ذلك » ، و« مع » و« بعد » فى كلام العرب سواء .

* * *

● وقوله ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاّ مِنْ ضَرِيعٍ** ﴾[20] ، وهو يقول فى موضع آخر : ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ اليومَ هَهُناَ حَميم وَلا طَعَامٌ إلا مِنْ غِسْلِين** ﴾[21] ، فإن النار دَرَكات ، والجنة درجات ، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثُوبات ،

---

(١٨) سورة فصلت / ٨ ــ ١١ .

(١٩) سورة النازعات / ٢٧ ــ ٣٠ .

(٢٠) سورة الغاشية / ٦ .

(٢١) سورة الحاقة / ٣٥ ، ٣٦ .

فمِن أهل النار مَنْ طعامُهُ الزَّقُّومُ ، ومنهم من طعامه غِسْلِين ، ومنهم من شرابه الحميمُ ، ومنهم من شرابه الصَّدِيدُ .

والضَّرِيعُ : نبتٌ يكون بالحجاز ، يقال لِرَطْبه : الشِّبرِقُ ، لا يُسْمِنُ ولا يُشبع ، قال « امرؤ القيس » :

فأتْبعْتُهُم طَرْفى وقد حَالَ دونَهم
غوارِبُ رمْلٍ ذى ألاءٍ وَشِبْرِقِ[٢٢]

والعرب تصفه بذلك :

وَغِسْلِين : فِعْلين من غَسلتُ ، كأنه الغُسالة ، قال « بعض المفسرين » : هو ما يسيل من أجساد المعذَّبين .

وهذا نحو قوله : ﴿ **سرابيلُهم من قَطِرَانٍ** ﴾[٢٣] و « سرابيلُهم مِنْ قِطْرٍ آنٍ » قراءةُ عِكْرِمَة وَمَنْ تابَعُه .

والقَطرُ : النُّحاس . والآن : الذى قد بلغ منتهى حرّه[٢٤] . كأن قوماً يُسَرْبَلُون هذا ، وقوماً يُسَرْبلون هذا ، وَيُلبَسُون هذا تارةً ، وهذا تارةً .

● وأما قولهم : « كيف يكون فى النار نبت وشجر ، والنار تأكلهما ؟ » فإنه لم يُرِدْ فيما يرى أهل النظر ــ والله أعلم ــ أن الضريع بعينه ينبت فى النار ، ولا أنهم يأكلونه . والضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس ، وإذا وَقَعَت فيه الإبل لم تشبع وهلكت هُزْلا .

قال « الهُذَلِىّ » يذكر إبلا وسوء مَرْعاها :

وَحُبسْنُ فى هَزْم الضريع فَكُلُّهاَ
حَدْباَءُ داميةُ اليدين حَرُود[٢٥]

(٢٢) غوارب : جمع غارب ، وغارب كل شىء : أعلاه . والآلاء : شجر من شجر الرمل دائم الخضرة أبدا يؤكل مادام رطبا . والشبرق : جنس من الشوك ، إذا كان رطبا فهو شبرق فإذا يبس فهو الضريع .

(٢٣) سورة إبراهيم / ٥٠ .

(٢٤) آن : اسم فاعل من أنى الماء : إذا سخن وبلغ الحرارة (راجع اللسان : أنى) .

(٢٥) فى اللسان (ضرع) : والضريع : نبت بالحجاز له شوك كبار . وهزم الضريع : ما تكسر منه . وحدباء : صفة للمؤنث من « الحدب » وهو ما ارتفع وغلظ من الظهر . والحرود : قليلة درِّ اللبن .

فأراد أن هؤلاء قوم يقتاتُون ما لا يشبعهم ، وضرَب الضريع لهم مثلا . أو يُعذَّبون بالجوع كما يُعذبُ من قُوتُه الضريع .

وكان ما أراد الله بهذا معلوماً عندهم مفهوماً ، ولو لم يكن كذلك لأنكروه كما أنكروا قوله : ﴿ **إنَّهاَ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فى أَصْلِ الجَحيم طَلْعُهاَ كأنَّهُ رُءُوسُ الشَّياطين** ﴾[٢٦] وقالوا : كيف تكون فى النار شجرة والنار تأكل الشجر ؟ فأنزل الله : ﴿ **وما جَعَلْناَ الرُّؤْياَ التى أَرَيْنَاكَ إلاّ فِتْنَةً للنّاس والشَّجَرةَ المَلْعُونَة فى القرآن** ﴾[٢٧] ، يعنى بالرؤيا : ما رآه ليلة أُسْرِىَ به وأخْبَرَ عنه ، فارتد لذلك قوم ، وزاد الله فى بصائر قوم . وأراد بالشجرة الملعونة : شجرة الزَّقُّوم . فهذا وجه .

وقد يكون الضريع وشجرة الزَّقُّوم : نَبْتَين من النار ، أو من جوهرٍ لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالها ، وأَنْكالُهاَ وعقارِبُها وحيَّاتُها — لو كانت على ما نعلم ، لم تبق على النار ، وإنما دَلّنا الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة للدلالة ، والمعانى مختلفة .

● وما فى الجنة من شجرها وثمرها وفُرُشِها ، وجميع آلاتها — على مثل ذلك .

قال « ابن عباس » : نخل الجنة ، جذوعها من زُمُرُّد أخضر ، وكَرَبُها[٢٨] من ذهب أحمر ، وسعَفُها كِسْوَةٌ لأهل الجنة ، منها مُقَطَّعَاتُهم[٢٩] وحُلَلُهم . وثمرها أمثال القِلال والدِّلاءِ ، أشدُّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، ليس له عَجَمٌ[٣٠] .

* * *

● وقوله : ﴿ **وماَ كانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون** ﴾ ، ثم قال على إثر ذلك

---

(٢٦) سورة الصافات / ٦٤ — ٦٥ .

(٢٧) سورة الإسراء / ٦٠ .

(٢٨) فى اللسان « كرب » : « الكرب : أصول السعف الغلاظ العراض التى تيبس فتصير مثل الكف ، واحدتها كربة ... » .

(٢٩) فى اللسان : « قطع » « والمقطعات من الثياب شبه الجباب ونحوها من الخز » .

(٣٠) فى اللسان « عجم » : « والعجم بالتحريك : النوى ، نوى التمر والنبق . وقيل هو كل ما كان فى جوف مأكول كالزبيب وما أشبهه .

﴿ وماهُمْ ألاَّ يُعَذِّبَهُم الله ﴾[31] فإن النَّضْر بن الحارث قال : ﴿ اللّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحقَّ مِنْ عِنْدِك فأَمْطِر عَلَيْنَا حِجَارةً مِنَ السَّماءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيم ﴾[32] يُريد أهْلِكنا ومحمدًا ومَن معه عامة . فأنزل الله تعالى : وما كانَ الله مُعذِّبهم وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، أى وفيهم قوم يستغفرون يعنى المسلمين .

يدلّكَ على ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وما كانَ الله لِيُعَذِّبهم وأنتَ فيهم ، وما كان اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون ﴾ ، ثم قال : ﴿ وما لهم ألاَّ يُعذِّبهم اللهُ ﴾ خاصة ﴿ وهم يَصُدُّون عن المسجد الحرامِ ، وما كانُوا أولياءَه إنْ أَوْلياؤُه إلا المتَّقون ﴾[33] يعنى المسلمين ، فعذّبهم الله بالسيف بعد خروج النبى عنهم، وفى ذلك نزلت : ﴿ سَأَلَ سائلٌ بعذاب واقعٍ ﴾ ، أى دعا داعٍ بعذاب واقع ، يعنى « النضر بن الحارث » ﴿ للكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾[34] ، يقول : هو للكافرين خاصة دون المؤمنين ، وهو معنى قول « ابن عباس » .

وقال « مجاهد » فى قوله ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ : عَلِمَ أن فى أصلابهم من سَيَسْتَغْفِر .

* * *

● وأما قولهم : أين قوله : ﴿ فإنْ خِفْتم ألاَّ تُقْسِطُوا فى اليَتَامَى ﴾ من قوله : ﴿ فانكِحُوا ما طابَ لكُمْ من النِّساء ﴾[35] ، فهل شىء أشْبَه بشىء أليقُ به من أحد الكلامين بالآخر ؟!

والمعنى : أن الله تعالى قصَرَ الرجال على أربع نسوة وحَرّم عليهم أن ينكحوا أكثر منهن ؛ لأنه لو أباح لهم أن ينكحوا من الحرائر ما أباح من مِلْكِ اليمن — لم يستطيعوا العدل عليهن بالتّسْوية بينهن ، فقال لنا : فكما تخافون ألا تعدلوا بين اليتامى

(٣١) سورة الأنفال / ٣٣ ، ٣٤ .
(٣٢) سورة الأنفال / ٣٢ .
(٣٣) سورة الأنفال / ٣٤ .
(٣٤) سورة المعارج / ١ ، ٢ .
(٣٥) سورة النساء / ٣ .

إذا كفلتموهم ، فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن ، فانكحوا اثنتين وثلاثا وأربعا ، ولا تتجاوزوا ذلك فتعجزوا عن العدل .

ثم قال : فإن خفتم أيضاً ألا تعدلوا بين الثلاث والأربع ، فانكحوا واحدةً ، أو اقتصروا على ما ملكت أيمانكم من الإماَء ، ذلك أدْنَى ألا تَعُولُوا ، أى لا تجوروا وتميلوا .

وقال « ابن عباس » قُصِرَ الرجال على أربع من أجل اليتامى .

يقول : لما كان النساء مكفولات بمنزلة اليتامى ، وكان العدل على اليتامى شديداً على كافلهم — قُصِرَ الرجال على ما بين الواحدة إلى الأربع من النساء ، ولم يُطْلَقَ لهم ما فوق ذلك ؛ لئلا يميلوا .

باب المتشابه

يتحدث المؤلف فيه عن : معنى المتشابه والحكمة من إنزاله في القرآن ثم رأيه فى تفسير آية ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ .

وقد بدأ حديثه بالإشارة إلى الحكمة من إنزال المتشابه ، وتتمثل فى أن القرآن الكريم أنما نزل بلغة العرب ، وعلى طرائقها فى التعبير . ومذاهبها فى الإيجاز ، والاختصار والإطالة والتوكيد ، والإشارة الى الشىء ، وإغماض بعض معانيه ، حتى لا يظهر عليها الا المنقب المبرّز ، وحينئذ يكون للعالم فضيلة النظر ، وحسن الاستخراج ودقة التنقيب عن المعنى .

والقرآن عَطاء للعالِم وغيره ، ولذا رأينا من آياته ما لا يحتاج الى إعمال عقل ، أو كدٍّ خاطر ورأينا آياتٍ أخرى تحتاج إلى جهد وبحث وتنقيب .

وليس القرآن بدعا فى ذلك بل هذا ما عليه فصيح الكلام فى لغة العرب ، ولذا يورد ابن قتيبة أمثلة له من كلام (النبى ﷺ) ، وأبى بكر ، وعمر ، وعلى ، وغيرهم من فصحاء العرب ثم يورد أمثلة من الشعر الذى اختلف فى معناه كثير من العلماء .

فرأيه ــ إذن ــ أن المتشابه يلفه الغموض ، وهذا الغموض نفسه لون من ألوان البلاغة ، لأنه حافز للعالم على البحث والتنقيب ، ثم ارتياد الآفاق وراء المعانى[1] .

(١) د . زغلول سلام ، أثر القرآن فى تطور النقد الأدبى ص ١٢١ .

ويرد ابن قتيبة[٢] على القائلين إن المتشابه لا يعلمه الراسخون فى العلم ، فيقول : « ولو لم يكن للراسخين فى العلم حظ فى المتشابه الا أن يقولوا : ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ — لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين ، بل على جهلة المسلمين ؛ لأنهم جميعا يقولون : ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ .

ويستدل على ذلك بأن المفسرين لم يتوقفوا عن شيء من القرآن — دون تفسير . بل أمرُّوه كله على التفسير ، حتى فسروا الحروف المقطعة فى أوائل السور .

ويختم المؤلف هذا الباب بالحديث عن معنى المتشابه ، وهو يقصد به : ما غمض ودق من الألفاظ لأنه أشبه غيره ، فلم تكد تفرق بينهما .

وقد يتوسع فى معناه ، فيطلق على ما غمض ودق ، وإن لم يشابه غيره ، أو يلتبس به . ومثل المتشابه « المشكل » وسمى مشكلا لأنه أشكل . أى دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله . ثم قد يقال لما غمض — وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة مشكل .

يقول « ابن قتيبة » :

ولسنا ممن يزْعُم : أنّ المتشابه فى القرآن لا يعلمه الراسخون فى العلم . وهذا غلط من متأَوِّليه[٣] على اللّغة والمعنى .

---

(٢) يتفق هذا الرأى مع ما عليه كثير من أهل السنة ؛ راجع تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ، ص ١٢٩ .

(٣) اختلف فى « المتشابه » هل يمكن أن يعلمه غير الله ، أو لا يعلمه الا الله ؟ قولان منشؤهما اختلاف العلماء فى فهم قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنّا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » . سورة آل عمران / ٧ .

فمن قال إن المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه جعل « الراسخون فى العلم » معطوفا على لفظ الجلالة ويقولون حال .

ومن قال لا يمكن الاطلاع على علمه جعل « الراسخون » مبتدأ ، « ويقولون » خبر . وقد ذهب إلى الرأى الأول « مجاهد » و« ابن عباس » الذى روى عنه قوله « أنا ممن يعلم تأويله » واختار هذا ايضا « الإمام النووى » .

وقال ابن الحاجب : إنه الظاهر وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم ، خصوصا أهل السنة فذهبوا الى الثانى . راجع : الاتقان ، جـ ٢ ص (٣) . =

ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عبادَه ، ويدلَّ به على معنى أرادَه .

فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره لَلَزِمَنَا للطاعِن مقالٌ ، وتعلّق علينا بِعِلَّةٍ . وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله ﷺ ، لم يكن يعرف المتشابه ؟! .

وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى : ﴿ وَماَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ الله ﴾[4] جَازَ أن يعرفه الرّبّانيون من صحابته ؛ فقد علّم « عليًّا » التفسير .

ودعا « لابن عباس » فقال :

« اللهم علّمهُ التأْوِيل ، وفَقّهه فى الدين »[5] .

ورَوَى عبدُ الرّزّاق ، عن إسرائيلَ ، عن سِمَاكِ بن حَرْب ، عن عِكْرِمَة ، عن « ابن عباس » أنه قال :

كلّ القرآن أعلَمُ إلا أربعاً : غِسْلِين ، وحَنانَاً ، والأَوَّاه ، والرَّقِيم . وكان هذا من قول « ابن عباس » فى وقت ، ثُمَّ عَلِمَ ذلك بَعْدُ .

● حدثنى محمد بن عبد العزيز ، عن موسى بن مسعود ، عن شِبْل ، عن ابن أبى نُجَيح ، عن « مُجَاهد » قال : تعلمونه وتقولون : آمنا به .

ولو لم يكن للراسخين فى العلم حظ فى المتشابه إلا أن يقولوا : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين ، بل على جهلة المسلمين ؛ لأنهم جميعاً يقولون : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ .

* * *

وبعد :

فإنّا لم نرَ المفسرين توقّفُوا عن شىء من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه

= أما « ابن تيمية » فيرى أن الرأى الأول هو اختيار كثير من أهل السنة !! راجع تفسير سورة الإخلاص ، ص ١٢٩ .

(٤) سورة آل عمران / ٧ .

(٥) روى البخارى فى صحيحه ــ فى كتاب العلم ــ عن ابن عباس قال ضمنى رسول الله ﷺ وقال : « اللهم علمه الكتاب » .

وفى سنن ابن ماجة (١ ــ ٥٨) « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » .

إلا الله ،بل أَمَرُّوهُ كلَّه على التفسير ، حتى فسروا « الحروف المُقَطّعة » فى أوائل السوَرَ ، مثل : آلر ، وحم ، وطه ، وأشباه ذلك . وسترى ذلك فى الحروف المشكلة ، إن شاء الله .

* * *

فإن قال قائل : كيف يجوز فى اللغة أن يعلمه الراسخون فى العلم ، والله تعالى يقول : ﴿ **وَماَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ اللهُ وَالرَّاسِخونَ فى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ ، وأنت إذا أشركت الراسخين فى العلم انقطعوا عن « يقولون » ، وليست هاهنا وَاوُ نَسَقٍ تُوجِبُ للراسخين فِعْلَين . وهذا مذهب كثير من النحويين فى هذه الآية ، ومن جهته غلِطَ قومٌ من المتأَوِّلين ؟

قلنا له : إن « يقولون » هاهنا فى معنى الحال ، كأنه قال : الرّاسخون فى العلم قائلين : آمنا به . ومثله فى الكلام : لا يأتيك إلا عبدُ الله ، وزيد يقول : أنا مَسرُورٌ بزيارتك . يريد : لا يأتيك إلا عبد الله وزيد قائلا : أنا مسرور بزيارتك .

ومثله « لابن مُفَرِّغٍ الحِمْيرِىّ » يرثى رجلا[6] فى قصيدة أولها :

أَصَرَمْتَ حبَـلَك مِـنْ أُمامَـهْ
مـن بَعـدِ أَيَّـامٍ برامَـهْ :
والرِّيـحُ تَبْكِـى شَجْوَهـاَ
والبَـرْقُ يَلْمَـعُ فى غَمامَـهْ

أراد : والبرقُ لا معاً فى غمامةٍ تبكى شجْوَه أيضاً[7] ، ولو لم يكن البرق يَشْرَكُ الرِّيح فى البكاء ، لم يكن لذكره البرقَ ولمعَه معنى .

* * *

● **وأصل « التّشَابُهِ » : أن يُشْبِه اللفظُ اللفظَ فى الظاهر ، والمعنيان**

---

(٦) القصيدة ليست فى الرثاء ، بل فى هجاء عباد بن زياد « قاله محقق الكتاب » .

(٧) أى أنه جعل « البرق » معطوفا على الريح ، وجعل « يلمع » حالاً له .

مختلفان . قال الله جل وعز فى وصف ثمر الجنة : ﴿ **وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً** ﴾[٨] ، أى متّفِق المناظر ، مُختلِف الطُّعُوم . وقال : ﴿ **تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾[٩] ، أى يُشْبه بعضُها بعضاً فى الكفر والقسوة .

ومنه يقال : اشتبه علىَّ الأمرُ ، إذا أشبه غيرَهُ فلم تَكَد تَفْرُقُ بينهما ، وشَبَّهْتَ علىَّ : إذا لَبَّسْتَ الحقَّ بالباطل ، ومنه قيل لأصحاب المخَارِيق : أصحابُ الشُّبَه ، لأنهم يُشَبِّهُونَ الباطل بالحق .

ثم قد يقال لكلِّ ما غَمُضَ وَدَقَّ : مُتَشَابِهٌ ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشّبه بغيره ، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المُقَطَّعَةِ فى أوائل السّوَر : متشابه ، وليس الشك فيها ، والوقوف عندها لِمُشاَكَلَتِهاَ غيرَها ، والتباسِها بها .

● **ومثل المتشابه « المُشْكِل » . وسمى مشكِلا : لأنه أشْكل** ، أى دخل فى شكْلِ غيره فأشْبَهَهُ وشاكله .

ثم قد يقال لما غَمُضَ ــ وإن لم يكن غموضُه من هذه الجهة ــ مُشكِلٌ .

* * *

وقد بيّنتُ ما غَمُضَ من معناه لالتباسه بغيره ، واستِتاَرِ المعانى المختلفة تحتَ لفظه ، وتفسير « المشكل » الذى ادُّعِىَ على القرآن فسادُ النّظم فيه .

وقدّمت قبل ذلك « أبواب المجاز » : إذْ كان أكْثَرُ غَلَطِ المتأوِّلين من جهته .

وأرجو أن يكون فى ذلك ما شفى مرضَ القلوب ، وهدى من الحَيْرَة ، إن شاء الله .

---

(٨) سورة البقرة / ٢٥ .

(٩) سورة البقرة / ١١٨ .

باب القول في المجاز

أما هذا الباب فلا أبالغ إذا قلت إنه من أهم الأبواب التى انتظمها « تأويل مشكل القرآن » وقد أفاد الدرس البلاغى إلى حد كبير من الأفكار والملاحظات التى احتواها هذا الباب .

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن القضايا التى تناولها هذا الباب ـــ أرى أن نشير الى مفهوم « ابن قتيبة » للمجاز ، وهو مفهوم يراه الدارسون أوسع بكثير من المفهوم الذى حدده البلاغيون فيما بعد للمجاز ، إذ هو عندهم ما يقابل الحقيقة ، أو يعنى استخدام اللفظ فى غير معناه اللغوى الوضعى .

فالمجازات عنده تعني : طرق القول ومآخذه . ومن هذه الطرق : الاستعارة ، والتمثيل والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص[1] .

ومن الواضح أن كثيرا من هذه الأساليب لا تدخل ضمن مفهوم المجاز بمعناه عند البلاغيين بل لا ينتظمها علم واحد من علوم البلاغة الثلاثة (المعانى ، البيان ،

---

(١) حين يعرف ابن قتيبة المجاز على هذا النحو فانه يعنى به : الخروج عن حدود التعبير الطبيعى إلى تعبير يصح أن نسميه تعبيرا فنيا فيه فضل تأنق وتفنن لغرض خاص يقصد إليه) راجع د . زغلول سلام : أثر القرآن فى تطور النقد العربى ص ١١٢ .

والبديع) . ومهما يكن من شيء ، فإن أهم ما فى هذا الباب أن ابن قتيبة حرص على تقديم رأى وَسَط بين رأيين متناقضين ، يدوران حول قضية المجاز فى القرآن الكريم .

فالمعتزلة ، ومن تابعهم يرفضون الأخذ بظاهر الآيات التى تتحدث عن ذات الله وصفاته ، ومنها صفة الكلام ، ولذا يؤولون كل ما ورد عنها تأويلا يعتمد على المجاز ، وبالغوا فى ذلك وأسرفوا . يشير ابن قتيبة إلى ذلك فيقول : « وذهب قوم » فى قول الله وكلامه : إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعانى ، وصرفوه فى كثير من القرآن إلى المجاز »[٢] .

فقوله تعالى للسماء والأرض : ﴿ **ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتاَ أَتَيْنا طَئِعِينَ** ﴾ يعلقون عليه بقولهم : لم يقل الله ، ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدوما ؟ وإنما هذه عبارة : لكوناهما فكانتا » .

وقالوا : ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلاءْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مزِيدٍ** ﴾ وليس يومئذ قول منه لجهنم ، ولا قول من جهنم ، وإنما هى عبارة عن سعتها ...

ويرد ابن قتيبة عليهم فيقول : « وقد تبين لمن عرف اللغة ، أن القول يقع فيه المجاز ، فيقال : قال الحائط فمال ، وقل برأسك إلىَّ أى أمله ، وقالت الناقة ، وقال البعير . ولا يقال فى مثل هذا المعنى تكلم ، ولا يعقل الكلام إلا بالنطق بعينه .. »[٣] .

وينتهى من هذا ليقرر أن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا تؤكد بالتكرار فتقول : أراد الحائط أن يسقط ولا تقول أراد الحائط أن يسقط إرادةً شديدةً » ..
وبعد ما يقرر طبيعة أفعال المجاز على هذا النحو ، يتوقف عند قوله تعالى :

﴿ **وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً** ﴾ فيبين أن الله قد استخدم « وكلم » ثم وكّده بالمصدر ولذا فلا مجاز هنا .

---

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٠٦ .
(٣) السابق ص ١٠٩ .

وهكذا يعرض ابن قتيبة موقف المعتزلة من المجاز ، ثم يرد عليهم ردوداً لغوية حينا ، وعقدية حينا آخر وأدبية حينا ثالثاً .

ثم يلتفت — إلى رأى هو على النقيض من رأى المعتزلة ، وأعنى به رأى القائلين بعدم جواز المجاز فى أسلوب القرآن ، على اعتبار أن المجاز — فى رأيهم — نوع من الكذب لا يليق بالقرآن ؛ إذ كيف يريد الجدارُ بقوله تعالى : ﴿ **فَوَجد فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ** ﴾ .

وابن قتيبة يعنف على هؤلاء ، ويرى أن ما قالوه هو من أشنع جهالاتهم وأدلها على سوء نظرهم . ثم يبذل جهدا كبيرا فى التفرقة بين المجاز والكذب .... » .

« ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب الى غير الحيوان باطلا — كان أكثر كلامنا فاسدا ، لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ... ولو قلنا للمُنْكِر لقوله : ﴿ **جدارا يريد أن ينقض** ﴾ : كيف كنت أنت قائلاً فى جدار رأيته على شفا انهيار : رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بُدّاً من أن يقول : جدار يهم أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض .... وأياً ما قال فقد جعله فاعلا »[4] .

وهكذا يصل ابن قتيبة الى رأيه الوسط فهو يرى أن المجاز واقع فى القرآن لأنه طريقة من طرق التعبير ، وقد جرى على ذلك كلام العرب ولكنه لا يسرف فى استخدامه ، أو فى القول به دائما مطلقا ، فلكلٍ مقامٌ .

وبعد هذه الدراسة النظرية للمجاز ، يبدأ فى تناول اقسامه التى سبق أن اشار إليها فى تعريفه له . ويفرد لكل قسم مبحثا خاصا ، سماه بابا ، يعرض فيه ما جاء فى كتاب الله مع ما يماثله من كلام العرب .

يقول « ابن قتيبة » :

وأما « المجاز » فمن جهته غلِطَ كثير من الناس فى التأويل ، وتشعَّبت بهم الطرق ، واختلفت النِّحل : فالنصارى تذهب فى قول المسيح عليه السلام فى « الإنجيل » : « أدعو أبى ، وأذهب إلى أبى » وأشباه هذا ، إلى أُبوّة الولادة .

ولو كان المسيح قال هذا فى نفسه خاصةً دون غيره ، ما جاز لهم أن يتأوَّلوه

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٣٣ .

هذا التأويل فى الله ـــ تبارك وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ـــ مع سعة المجاز ، فكيف وهو يقوله فى كثير من المواضع لغيره ؟ كقوله حين فتح فَاهُ بالوحى : « إذا تصدَّقْتَ فلا تُعلم شِمالَك بما فعلت يمينُك ، فإنّ أباك الذى يَرى الخَفِيّات يَجزيك به علانيةً ، وإذا صلّيتم فقولوا : يا أبانا الذى فى السماء لِيَتَقَدَّسَ اسمُك ، وإذا صُمْتَ فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غيرُ أبيك » .

وقد قرأوا فى « الزَّبُور » أن الله تبارك وتعالى قال لداود عليه السلام : « سيولد لك غلام يُسمَّى لى ابناً وأُسَمَّى له أباً » .

وفى « التّوراة » أنه قال ليعقوب عليه السلام : « أنت بِكْرِى » .

وتأويل هذا أنه فى رحمته وبرّه وعطفه على عباده الصالحين ، كالأَب الرحيم لولده .

وكذلك قال المسيح للماء : « هذا أبى » ، وللخبز : « هذا أمى » ؛ لأنّ قِوَامَ الأَبْدَان بهما ، وبقاءَ الروح عليهما ، فهما كالأبوين الَّذين منهما النَّشْأَةُ ، وبِحَضَانَتِهما النَّماءُ .

وكانت العرب تُسمِّى الأرض أُمًّا ؛ لأنها مُبْتَدَأُ الخلق ، وإليها مرجعهُم ، ومنها أقواتُهم ، وفيها كِفايتُهم .

وقال « أُمَيّة بن أبى الصَّلْت » :

والأرضُ مَعْقِلُنـا وكانت أُمَّنـا
فيهـا مقـابرُنـا وفيهـا نُولَـدُ

و « قال » يذكرها :

منها خُلِقْنا وكانت أُمَّنا خُلِقَتْ
ونحنُ أبناؤُهـا لـو أننـا شُكُـرُ
هِىَ القَرَارُ فما نَبْغِى بها بَدَلاً
ما أَرْحَم الأَرْضَ إلا أَنَّنا كُفُـرُ

وقال الله تعالى فى الكافر : ﴿ **فَأُمُّهُ هاَوِيَةٌ** ﴾[٥] لمّا كانت الأُمُّ كافِلَةَ الولد

(٥) سورة القارعة / ٩ .

وغاذِيَته ، ومَأْوَاه ومُرَبِّيته ، وكانت النار للكافر كذلك ـــ جعلها أُمَّه .

وقال فى أزواج النبى ، ﷺ ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهمْ ﴾[٦] ، أى : كأمهاتهم فى الحُرُمات .

وفى « التوراة » : « إنّ الله بَرَّكَ اليومَ السابع وَطهَّره ، من أجل أنه استراح فيه من خَلِيقَتِه التى خلَق » .

وأصل الاستراحة : أن تكون فى مُعَانَاة شىء يُنْصِبُك ويُتعبُك ، فتستريحَ .

ثم يَنْتَقِلُ ذلك فتصير الاستراحة بمعنى : الفراغ . تقول فى الكلام : استرَحْنا من حاجتك وأَمْرِنا بها . تريد فَرَغْنا ، والفراغُ ، أيضاً يكون من الناس بعد شُغل .

ثم قد ينتقل ذلك فيصير فى معنى القَصْد للشىء ، تقول : لئن فرغتُ لك ، أى قصَدْتُ قصْدَك .

وقال الله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾[٧] . والله تبارك وتعالى لا يشْغَلُهُ شأنٌ عن شأنٍ . ومَجازُهُ : سنقصد لكم بعد طول التَّرْك والإمْهال .

وقال « قتادة » : قد دَنا من الله فراغ لخَلْقِه . يريد : أن الساعة قد أزِفَت وجاء أَشْرَاطُهَا .

* * *

● وتأوّل قوم فى قوله تعالى : ﴿ فى أىِّ صُورَةٍ مَّاشَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[٨] معنى « التناسخ » . ولم يُرِد الله فى هذا الخطاب إنساناً بعينه ، وإنما خاطب به جميع الناس كما قال : ﴿ يأَيُّهاَ الإِنْسانُ إِنَّكَ كادحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾[٩] كما يقول القائل : ياأيها الرجل ، وكُلُّكُم ذلك الرجل .

فأراد أنه صَوَّرَهم وعَدَّلهم ، فى أىّ صورة شاء ركّبهم : من حُسنٍ وقُبحٍ ، وبياضٍ ، وسواد ، وأُدْمَةٍ وحُمْرَة .

---

(٦) سورة الأحزاب / ٦ .

(٧) سورة الرحمن / ٣١ .

(٨) سورة الانفطار / ٨ .

(٩) سورة الانشقاق / ٦ .

ونحوه قوله : ﴿ **وَمَنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأرضِ واخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُم وأَلْوَانِكُمْ** ﴾[١٠] .

* * *

● **وذهب « قوم »**[١١] **فى قول الله وكلامِه : إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعانى** . وصرفوه فى كثير من القرآن إلى « المجاز » كقول القائل : قال الحائط فمال ، وَقُلْ برأسك إلىَّ ، يريد بذلك المَيل خاصة ، والقولُ فضْل .

● وقال « بعضهم » فى قوله للملائكة : ﴿ **اسْجُدُوا لِآدَمَ** ﴾ : هو « إلهام » منه للملائكة ، كقوله : ﴿ **وأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْل** ﴾[١٢] أى ألهمها . وكقوله : ﴿ **وَما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحيْاً أوْ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ أوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بإِذْنِه ما يَشَاءُ** ﴾[١٣] وذهبوا فى « الوحى » ههنا : إلى الإلهام .

* * *

● وقالوا فى قوله للسماء والأرض : ﴿ **ائْتِياَ طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْناَ طَائِعِينَ** ﴾[١٤] : لم يقل الله ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدوما ؟ وإنما هذا عبارة : لكَوَّناهما فكانتا .

قال « الشاعر » حكايةً عن ناقته :

تَقُولُ إذا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِى :
أَهَـذَا دِينُـهُ أَبَـداً وَدِينِـى[١٥]

---

(١٠) سورة الروم / ٢٢ .

(١١) يقصد بهؤلاء المعتزلة الذين أسرفوا فى القول بالمجاز حينما تناولوا آيات الصفات ، والآيات التى تتحدث عن اليوم الآخر فى القرآن الكريم وهم قد فعلوا ذلك ظنا منهم أن فى هذا تنزيها لله عز وجل عن التشبيه بالمخلوقين .

(١٢) سورة النحل / ٦٨ .

(١٣) سورة الشورى / ٥١ .

(١٤) سورة فصلت / ١١ .

(١٥) فى اللسان « درأ » : « ودرأت وضين البعير إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشده به » . وفى « وضن » يقول : « الوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير » .

أَكُلَّ الدَّهْرِ حَلٌّ وَارْتِحَالٌ ؟
أَمَا يُبْقِى عَلَىَّ وَلا يَقِينِى ؟

وهى لم تقل شيئاً من هذا ، ولكنه رآها فى حال من الجَهْد والكَلاَلِ ، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذى ذكر .

وكقول « الآخر » :

* شَكا إلّى جَمَلِى طُولَ السُّرَى[16] *

والجمل لم يَشْكُ ، ولكنه خَبَّر عن كثرة أسفاره ، وإتعابه جملَهُ ، وقضَى على الجمل بأنه لو كان متكلما لا شتكى ما به .

وكقول « عنترة » فى فرسه :

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَناَ بِلَبَانِهِ
وَشَكَا إلَىَّ بِعَبْرةٍ وَتَحَمْحُمِ[17]

لما كان الذى أصابه يُشتكى مثله ويُسْتَعْبَرُ منه ، جعلهَ مُشْتَكِياً مُسْتَعْبِراً ، وليس هناك شكوى ولا عَبرة .

* * *

● قالوا : ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيد** ﴾[18] وليس يومئذ قول منه لجهنم ، ولا قول من جهنم ، وإنما هى عبارة عن سعتها .

● وفى قوله : ﴿ **تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى** ﴾[19] يريد : أن مصير من أدبر وتولى إليها ، فكأنها الداعية لهم ؛ كما قال « ذو الرُّمة » :

---

(١٦) السرى : سير الليل عامته ، وقيل : سير الليل كله (راجع اللسان : سرى) .

(١٧) اللسان فى « زور » ازور عنه : عدل عنه وانحرف . وفى (لبن) : اللبان : الصدر . وفى (عبر) : العبرة : الدمعة ، وقيل هى الدمعة قبل أن تفيض . وفى (حمم) الحمحمة : صوت الفرس دون الصهيل .

(١٨) سورة ق / ٣٠ .

(١٩) سورة المعارج / ١٧ .

دَعَتْ مَيَّةَ الأَعْدَادُ وَاسْتَبْدَلَتْ بِهَا
خَنَاطِيلَ آجَالٍ من العِيْنِ خُذَّلِ[20]

والأعداد : المياه ، لما انتقلت مَيّةُ إليها ورغبت عن مائها ، كانت كأنها دعتها .

وكقول « الآخر » :

ولقد هَبَطْتُ الوادِيَيْنِ وَوَادِياً
يدعُو الأنيسَ بِهِ الغَضِيضُ الأَبكَمُ

والغضيض الأبكم : الذّباب ، يريد : أنه يَطِنّ فيدُل بطنينه على النبات والماء ، فكأنه دعاء منه .

وقال « أبو النجم » يذكر نبتاً .

مُسْتَأْسِداً ذِبانُهُ فى غَيْطَلِ
يَقُلْنَ للرَّائِدِ : أعْشَبْتَ انْزِلِ[21]

و لم يقل الذباب شيئاً من هذا ، ولكنه دل على نفسه بطنينه ، ودل مكانه على المرعى ؛ لأنه لا يجتمع إلا فى عشب ، فكأنه قال للرائد : هذا عشب فأنزل .

وقال « آخر » يصف ذئباً :

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إذا لم يَسْمَعِ
بِمِثْلِ مِقْرَاعِ الصَّفَا المُوَقَّعِ

يريد : أنه يتشمم ثم يَتّبع الرائحة بخَطْمٍ[22] كأنه الفأس التى يُكسر بها الصخر ، فجعل تشممه استخباراً .

* * *

(٢٠) الآجال جمع إجل وهو القطيع من بقر الوحش والظباء . والآجال الخناطيل هى الآجال المتفرقة أو التى لا تنقطع . والعين : يقصد بها هنا البقر الوحشى وفى اللسان ، مادة « عدد » : « قال ذو الرمة يذكر امرأة حضرت ماء عِدّاً بعد ما نشت مياه الغدران فى القيظ : دعت مية الأعداد ... الخ واستبدلت بها : يعنى منازلها التى ظعنت عنها حاضرة أعداد المياه ، فخالفتها إليها الوحوش وأقامت فى منازلها » .

(٢١) اللسان فى « أسد » : « استأسد النبت : طال وعظم » . وفى « ذبب » : « الذبان مفرده : ذباب » وفى « غطل » : والغيطل : هو الشجر الكثير الملتف .

(٢٢)اللسان فى « خطم » : « والخطم من كل دابة مقدم أنفها وفمها نحو الكلب والبعير » .

قال أبو محمد :

وقد تبين لمن قد عرف اللغة ، أن القول يقع فيه المجاز ، فيقال : قال الحائط فمال ، وقُلْ برأسك إلىّ ، أى أَمِلهُ ، وقالت الناقة ، وقال البعير .

ولا يقال فى مثل هذا المعنى : تكلم ، ولا يُعْقَلُ الكلام إلا بالنطق بعينه ، خلا موضع واحد وهو أن تتبين فى شىء من الموات عبرة وموعظة فتقول خَبَّر وتكلم وذكّر ؛ لأنه دلّك معنى فيه ، فكأنه كلمك ، وقال « الشاعر » :

وَعَظَتْكَ أجْدَاثٌ صُمُتْ
ونَعَتْكَ أَلْسِنَةٌ خُفُتْ
وتكلّمَتْ عن أَوْجُهٍ
تَبْلَى وعن صُوَرٍ سُبُتْ
وأرتْك قَبْرَكَ فى القُبُورِ
وأنتَ حَىٌّ لم تَمُتْ

وقال « الكُمَيْت » يمدح رجلا :

أَخْبرَتْ عن فَعَالِهِ الأرض واسْتَنْطَق
مِنها اليَبَابَ والْمَعْمُورَا[٢٣]

أراد أنه حفر فيها الأنهار ، وغرس الأشجار ، وأثّر الآثار ، فلما تَبيَّنت للناظر صارت كأنها مُخْبِرَةٌ .

وقال « عَوْفُ بن الخَرِع » يذكر الدار :

وقَفْتُ بها ما تُبِينُ الكلامَ
لسائِلِها القولَ إلا سِرَارا

يقول : ليست تُبِينُ الكلام لمخاطبها ، إلا أنّ ظاهر ما يَرى دليل على الحال ، فكأنه سِرارٌ من القول ، ولهذا قالت الحكماء : كل صامت ناطق . يريدون أنّ أثر الصنعة فيه يدل على مُحْدِثه ومدبّره .

---

(٢٣) فى اللسان « يبب » : « أرض يباب : أى خراب .

ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿ **أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطاناً فهو يَتَكلّم بما كانُوا به يُشْرِكُون** ﴾[24] أى أنزلنا عليهم برهاناً يستدلون به ، فهو يدلهم .

وتبيَّن له أيضاً أنّ أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا تُوَكّد بالتكرار ، فتقول : أراد الحائط أن يسقط ، ولا تقول : أراد الحائط أن يسقط إرادةً شديدة ، وقالت الشجرة فمالت ، ولا تقول : قالت الشجرة فمالت قولاً شديدا . والله تعالى يقول : ﴿ **وكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً** ﴾[25] فوكّد بالمصدر معنى الكلام ، ونفَى عنه المجاز .

وقال : ﴿ **إنَّما قَوْلُنا لِشَىء إذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ له كُنْ فَيَكُون** ﴾[26] فوكّد القول بالتكرار ، ووكّد المعنى بإنما .

* * *

● وأما قول من قال منهم : إن قوله للملائكة ﴿ **اسْجُدُوا لآدَم** ﴾[27] إلهام ، ﴿ **وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً أوْ مِنْ وَراءِ حِجَاب** ﴾[28] أى إلهاما ــ فما نُنْكِرُ أنّ القول قد يسمى وحياً ، والإيماءَ وَحياً ، والرمزَ بالشفتين والحاجبين وَحْياً ، والإلهامَ وحياً . وكل شيء دلَلْتَ به فقد أوحيتَ به ، غير أنّ إلهام النَّحْل تَسْخِيرُها لاتخاذ البيوت ، وسلوك السُّبُل والأَكلِ من كل الثمرات .

وقال « العَجَّاجُ » وذَكَرَ الأرضَ :

* وحَى لها القَرارَ فاسْتَقَرّتِ *

أى : سخّرها لأن تستقر ، فاستقرت .

* * *

● وأما قوله : ﴿ **وما كَانَ لِبشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْيًا أوْ مِنْ وَراءِ حِجاَبِ**

(٢٤) سورة الروم / ٣٥ .
(٢٥) سورة النساء / ١٦٤ .
(٢٦) سورة النحل / ٤٠ .
(٢٧) سورة البقرة / ٣٤ والاعراف / ١١ والإسراء / ٦١ والكهف / ٥٠ وطه / ١١٦ .
(٢٨) سورة الشورى / ٥١ .

أو يُرْسِلَ رسولاً فيُوحِي بإذْنِه ما يَشَاءُ ﴾[29] فالوحى الأول : ما أراه الله تعالى الأنبياء فى منامهم .

والكلام من وراء الحجاب : تكليمُه موسى .

والكلام بالرسالة : إرْسالُهُ الرّوحَ الأمينَ بالرُّوح من أمره إلى من يشاء من عباده .

ولا يقال لمن ألهمه الله : كلّمَهُ الله ؛ لما أَعْلَمْتُكَ من الفرق بين « الكلام » « والقول » .

ولا يجوز أن يكون قوله للملائكة وإبليس ، وطُولُ مراجعتِه إياه فى السّجود ، والخروج من الجنة ، والنَّظِرَةُ إلى يوم البعث — إلْهَاماً . هذا مالا يُعْقَل . وإن كان ذلك تسخيراً فكيف يُسخّرُ لشيءٍ يَمْتَنِعُ منه ؟.

* * *

● وأما تأولهم فى قوله جل وعزّ للسّماء والأرض **﴿ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالتاَ : أَتَيْناَ طائِعِينَ ﴾**[30] : إنه عبارة عن تكوينه لهما . وقوله لجهنم : **﴿ هل امْتَلأْتِ وَتَقولُ : هَل مِنْ مَزِيد ﴾**[31] إنّه إخبارٌ عن سَعَتِها — فما يُحوِجُ إلى التَّعَسُّف والتماس المخارج بالحيل الضعيفة ؟ وما ينفع من وجود ذلك فى الآية والآيتين والمعنى والمعنيين — وسائرُ ما جاء فى كتاب الله عزّ وجلّ من هذا الجنس ، وفى حديث رسول الله ﷺ — مُمْتَنِعٌ عن مثل هذه التأويلات ؟

وما فى نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب ؟ والله تبارك وتعالى يُنْطِق الجلودَ ، والأيدىَ ، والأرجل ، ويُسَخّرُ الجبال والطير ، بالتَّسبيح . فقال : **﴿ إنَّا سَخّرْنا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾**[32] وقال : **﴿ ياجِبالُ أَوِّبِى مَعَهُ والطَّيْرَ ﴾**[33] أى سَبِّحْنَ معه . وقال :

---

(٢٩) سورة الشورى / ٥١ .

(٣٠) سورة فصلت / ١١ .

(٣١) سورة ق / ٣٠ .

(٣٢) سورة ص / ١٨ ، ١٩

(٣٣) سورة سبأ / ١٠ .

﴿ وإنْ مِنْ شَىْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إنَّه كان حليماً غفوراً ﴾[٣٤] .

وقال فى جهنم : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾[٣٥] أى تتقطع غيظاً عليهم كما تقول : فلان يكاد يَنقَدُّ غيظاً عليك ، أى ينشق .

وقال : ﴿ إذا رَأَتْهُمْ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾[٣٦] وروِى فى « الحديث » أنها تقول : « قَط قَطْ » أى[٣٧] حسبى .

---

(٣٤) سورة الإسراء / ٤٤ .

(٣٥) سورة الملك / ٨ .

(٣٦) سورة الفرقان / ١٢ .

(٣٧) أخرج البخارى ــ فى كتاب الإيمان والنذور : باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته ــ من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول : قط قط وعزتك ويزوى بعضها إلى بعض » وقد ذكر الأستاذ المحقق تخريجاتٍ للحديث فلتنظر فى الأصل .

باب الاستعارة

يستغرق هذا الباب ما يقرب من خمسين صفحة من الكتاب ، يبدؤها ابن قتيبة بتعريف الاستعارة فيقول : فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمىْ بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها أو مشاكلا ، فيقولون للنبات نوء لأنه يكون عن النوء عندهم »[1] .

ومن الآيات التى ذكرها متضمنة صورة استعارية قوله تعالى « **أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** »[2] أى كان كافرا فهديناه وجعلنا له إيمانا يهتدى به سبيل الخير والنجاة « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » أى فى الكفر فاستعار الموت مكان الكفر والحياة مكان الهداية والنور مكان الايمان .

ولا يفوته أن يتحدث عن المبالغة فى الاستعارة وهو يرى أنها ليست كذبا بل هى من قبيل إرادة التوضيح واستقصاء الصفة ثم إنها طريقة متعارف عليها بين القائل والسامع ، ومن صور المبالغة التى عرض لها قوله تعالى ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِم السَّمَاءُ والأَرْضُ** ﴾ تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأو رفيع المكان عام النفع ، كثير الصنائع : أظلمت الشمس له وكسف القمر لفقده وبكته الريح والبرق والسماء والأرض » يريدون المبالغة فى وصف المصيبة . وأنها قد شملت وعمت

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٣٥ .

(٢) الأنعام / ١٢٢ . وانظر تأويل مشكل القرآن ، ص ١٤٠ .

وليس ذلك بكذب ؛ لأنهم جميعاً متواطئون عليه والسامع يعرف مذهب القائل فيه[٣] .

ويجتهد ابن قتيبة فى الدفاع عن الشعراء الذين ينتحون هذا النحو من المبالغة فى تعبيراتهم وأدائهم الفنى فنراه يقول : « وكان بعض أهل اللغة » يأخذ على الشعراء من هذا الفن وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهبهم .

وهكذا يمضى ابن قتيبة فى الحديث عن الصور الاستعارية موضحاً أغراضها وشواهدها فى لغة العرب وآيات الكتاب المبين . وقد أخذ عليه الباحثون أنه وسع مفهوم الاستعارة ذلك أنه لا يشترط أن تكون العلاقة بين المستعار له والمستعار منه هى المشابهة كما يشترط التحديد البلاغى لمفهوم الاستعارة ، ولذلك رأينا فى هذا الباب ــ باب الاستعارة ــ صوراً مجازية غير الاستعارة ، من ذلك التعبير عن النبات بالنوء ، وعن المطر بالسماء . ومن الواضح أن المثالين من قبيل المجاز المرسل ؛ إذ ليست العلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى المنقول إليه الكلام هى المشابهة وإنما هى فى المثال الأول السببية ، وفى المثال الثانى المكانية .

كما اعتبر بعض صور الكناية من الاستعارة ، من ذلك قوله تعالى ﴿ **وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ ، ويعلق ابن قتيبة على ذلك بقوله : « أى طهِّر نفسك من الذنوب فكنى عن الجسم بالثياب ؛ لأنها تشتمل عليه » .

وربما يجعل بعض صور التشبيه البليغ من الاستعارة مثل قوله تعالى : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ** ﴾ و ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ** ﴾ فالآيتان عنده من قبيل الاستعارة ، بينما يعتبرها البلاغيون من التشبيه البليغ لأن طرفى التشبيه موجودان فى كلتا الآيتين ومهما يكن من أمر فإن الدرس البلاغى قد أفاد كثيرا مما أورده ابن قتيبة فى هذا الباب الهام .

يقول « **ابن قتيبة** » :

فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة ، إذا كان المسمى بها بسبب من

(٣) السابق ، ص ١٦٨ .

الأخرى ، أو مُجاوراً لها ، أو مُشَاكِلاً . فيقولون للنبات : نوءٌ[٤] لأنه يكون عن النوءِ عندهم .

قال « رؤبة بن العجاج » :

* وَجفَّ أَنْوَاءُ السّحَابِ المُرْتَزَقْ *

أى جفّ البقل .

ويقولون للمطر : سماءٌ ؛ لأنه من السماء ينزل ، فيقال : مازلنا نَطَأُ السماء حتى أتيناكم .

قال « الشاعر » :

إذا سَقَطَ السَّماءُ بأَرْضِ قَوْمٍ
رَعَيْنَاهُ وإنْ كانُوا غِضَابَا

ويقولون : ضَحكتِ الأرض : إذا أنبتت ؛ لأنها تُبدِى عن حُسْنِ[٥] النبات ، وتَنْفَتِقُ عن الزهرِ ، كما يَفْتَرُّ الضاحكُ عن الثغر ، ولذلك قيل لطَلْع النخل إذا انفتق عنه كافورُهُ : الضَّحْكُ ؛ لأنه يبدو منه للناظر كبياض الثغر . ويقال : ضَحكت الطَّلعَةُ ، ويقال : النَّورُ يُضَاحِكُ الشمس ؛ لأنه يدور معها .

وقال « الأعْشَى » يذكر رَوْضَةً :

يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ
مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ[٦]

---

(٤) فى اللسان « نوأ » : قال أبو عبيدة : النوء هو النجم الذى يكون به المطر » .

(٥) حين يورد المؤلف هذه الأمثلة على أنها من الاستعارة فإن هذا يوضح أنه لا يشترط أن تكون العلاقة بين المستعار له والمستعار منه هى المشابهة كما يشترط البلاغيون ــ ولذا رأيناه يذكر صورا مجازية على أنها استعارة وهى ليست كذلك . من هذا قوله إن التعبير عن النبات بالنوء ، والتعبير عن المطر بالسماء هو من قبيل الاستعارة . والبلاغيون يرونها من قبيل المجاز المرسل إذ ليست العلاقة بين المعنى الأصلى ، والمعنى المنقول له هى المشابهة بل هى فى المثال الأول السببية ، لأن النوء سبب النبات . وهى فى المثال الثانى المكانية ، لأن السماء مكان المطر .

(٦) اللسان « كهل » : « وقول الأعشى : يضاحك الشمس معناه يدور معها . ومضاحكته إياها حسن له ونضرة . والكوكب : معظم النبات . والشَّرِق : الريان الممتلىء ماءً . والمؤزَّر : الذى صار النبت كالإزار له . والعميم : النبت الكثيف الحسن » .

وقال « آخر » :

* وضحِكَ المُزنُ بها ثمَّ بَكَى[٧] *

يريد بضحكه انعِقَاقَه[٨] بالبرق ، وببكائه : المطر .

ويقولون : لَقِيتُ من فلانٍ عَرقَ القِرْبَةِ ، أى شِدَّةً ومشقَّةً . وأصل هذا أن حامل القِرْبَة يتْعَبُ فى نَقْلِها حتى يَعرَقَ جبينهُ ، فاستُعِيرَ عَرَقُها فى موضع الشِّدَّةِ .

ويقول الناس : لقيتُ من فلانٍ عَرَقَ الجَبين ، أى شدّة .

ومثل هذا فى كلام العرب كثير يطول به الكتاب ، وسنذكر ما فى كتاب الله تعالى منه .

* * *

● **فمن الاستعارة** فى كتاب الله قوله عز وجل : ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ** ﴾[٩] أى عن شِدَّةٍ من الأمر ، كذلك قال « قَتَادَةُ » . وقال « إبراهيم » : عن أمر عظيم .

وأصل هذا أنّ الرجل إذا وَقَعَ فى أمرٍ عظيم يحتاج إلى معاناته والجدّ فيه — شَمَّر عن ساقِهِ ، فاستعُيرت « الساق » فى موضع الشدة .

وقال « دُرَيْد بن الصِّمَّة » :

كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ
صَبُورٌ على الجَلاَّءِ طَلاَّع أَنْجُدِ[١٠]

(٧) المزن : هو السحاب عامة ، أو هو السحاب ذو الماء .

(٨) الانعقاق : الانشقاق .

(٩) سورة القلم / ٤٢ . ومن الواضح أن الصورة هنا كنائية وليست استعارية ، إذ لا علاقة بين الشدة والساق .

(١٠) الكميش : الماضى العزوم السريع فى أموره . وأضاف السرعة إلى الإزار على المجاز . والجلاء : الخصلة العظيمة . طلاع أنجد : ركاب لصعاب الأمور . أو هو السامى لمعالى الأمور . و « الأنجد » جمع نجد ، وهو ما ارتفع وغلظ من الأرض .

وقال « الهُذلىّ » :

وكُنْتُ إذا جارِى دعاَ لِمَضُوفَةٍ
أُشَمِّرُ حتّى ينَصُفَ السَّاقَ مِئْزَرِى[11]

* * *

● **ومنه** قول الله عز وجل ﴿ **ولا يُظْلَمُون فَتِيلاً** ﴾[12] ﴿ **ولا يُظْلَمُون نَقِيراً** ﴾[13] « والفَتيل » : ما يكون فى شقّ النّواة . « والنّقِيرُ » : النُّقْرَةُ فى ظهرها . ولم يُرِد أنهم لا يظلمون ذلك بعينه ، وإنما أراد أنّهم إذا حُوسِبُوا لم يُظلموا فى الحساب شيئاً ولا مِقْدَار هذين التّافهين الحقيرين .

والعرب تقول : ما رَزَأْتُه زِبالاً . « والزِبَالُ » ما تحمله النَّملة بفمها ، يريدون ما رَزَأْتُه شيئا .

وقال « النابغة الذُّبْيانِى » :

يَجْمَعُ الجَيْشَ ذا الأُلُوفِ ويَغْزُو
ثم لا يَـرْزَأُ العَـدُوَّ فَتيـلا[14]

وكذلك قوله عز وجل : ﴿ **والذين تَدْعُون مِنْ دُونه ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** ﴾[15] وهو « الفُوفَةُ » التى فيها النّواة . يريد ما يملكون شيئاً .

● **ومنه** قوله عز وجل : ﴿ **وقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورا** ﴾[16] أى قصَدْنا لأعمالهم وعَمَدنا لها . والأصل أنّ مَنْ أراد القُدُومَ إلى موضع عَمَدَ له وقَصَدَهُ .

« **والهباء المنثور** » : ما رأيته فى شعاع الشمس الداخل من كُوَّة البيت .

---

(١١) فى اللسان « ضيف » : « والمضوفة : الأمر يُشْفَق منه ويُخَاف » .
(١٢) سورة النساء / ٤٩ ، والاسراء / ٧١ .
(١٣) سورة النساء / ٥٣ .
(١٤) فى اللسان : « رزأ » : ويقال : مارَزَأْتُه ماله ... أى ما نقصته » .
(١٥) سورة فاطر / ١٣ .
(١٦) سورة الفرقان / ٢٣ .

و« **الهباء المُنبَثُّ** » : ما سَطع من سَنابِك الخيل[١٧] وإنما أراد أنّا أبطَلْناهُ كما أنّ هذا مُبطَّل لا يُلْمَس ولا ينتفع به .

● **ومنه قوله** : ﴿ وأفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾[١٨] يريد أنها لا تَعِي خيراً ؛ لأن المكان إذا كان خَالياً فهو هواءٌ حتى يَشغلَهُ الشئُ .

● ومثله قوله عز وجل : ﴿ **وكذلك أعْثَرْناَ عَلَيْهِمْ** ﴾[١٩] يريد أطْلَعْنَا عليهم . وأصل هذا أنّ من عَثر بشيءٍ وهو غافل نظر إليه حتى يَعرِفه . فاستُعِيرَ العِثَارُ مكان التبيّن والظهور . ومنه يقول الناس : ما عثرتُ على فلانٍ بسوء قطُّ . أى ما ظهَرتُ على ذلك منه .

* * *

● **ومنه قوله عز وجل** : ﴿ **إنّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَنْ ذكْر رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بالحِجَاب** ﴾[٢٠] أراد الخيلَ ، فسماَّها الخَيْرَ لما فيها من المنافع .

قال « الرّاجز » بعد أن عدَّد فضائِلها وأسبابَ الانتفاع بها :

فالخيلُ والخيراتُ فى قَرْنَيْنِ

وقال « طُفَيل » :

وللخيلِ أيّامٌ فمَنْ يَصْطَبِرْ لَهـاَ
ويَعْرِفْ لها أيَّامَهَا الخيرَ تُعـقِبِ

* * *

● **ومنه قوله عز وجل** ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فأحْيَيْناهُ وجَعَلْنا لهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فى النَّاسِ** ﴾[٢١] . أى كان كافرا فهديناه وجعلنا له إيماناً يَهتْدى به سُبُلَ الخير

---

(١٧) سنابك الخيل : أطراف حوافرها .
(١٨) سورة ابراهيم / ٤٣ .
(١٩) سورة الكهف / ٢١ .
(٢٠) سورة ص / ٣٢ .
(٢١) سورة الأنعام / ١٢٢ .

والنَّجاة ﴿ كَمَنْ مَثلُه فى الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْهَا ﴾ أى فى الكُفْر . فاستعار « الموت » مكانَ الكُفْرِ ، « والحياةَ » مكَان الهداية ، « والنّورَ » مكان الإيمان .

● **ومنه** قوله عز وجل : ﴿ **وَوَضَعْنَا عنكَ وِزْرَكَ** ﴾[٢٢] أى إثْمَكَ وأصل الوِزْرِ : ما حمله الإنسان على ظهره . قال الله عز وجل : ﴿ **ولَكِنَّا حُمِّلْنا أوْزَاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ** ﴾[٢٣] أى أحمالاً من حُليهّم . فشبّه الإثم بالحمل ، فَجُعِلَ مكانَهُ ، وقال فى موضع آخر : ﴿ **ولَيَحْمِلُنَّ أثْقَالَهُمْ وأثْقالاً مَعَ أثْقالِهِمْ** ﴾[٢٤] يريد آثامهم .

* * *

● ومن ذلك قوله : ﴿ **ولَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** ﴾[٢٥] أى نكاحاً ، لأن النكاح يكون سراً ولا يظهر ، فاستُعِيرَ له السرُّ .

قال « رُؤبَة » :

فَعفَّ عَنْ أَسْرَارِهَا بَعْدَ العَسَقْ

والعَسَق : الملازمة .

● **ومنه** قوله : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ** ﴾[٢٦] أى مُزْدَرَعٌ لكم كما تُزْدَرَعُ الأرض .

● **ومنه** قوله ﴿ **وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيه** ﴾[٢٧] أى تترَخَّصُوا . وأصل هذا أن يصرفَ المرء بصره عن الشيءِ ويُغمضَه ، فسُمّى التَّرخُّصُ إغْمَاضاً . ومنه يقولُ الناس للبائع : أَغْمِضْ وغمّض . يريدون لا تستقص وكن كأنّك لم تُبْصِر .

---

(٢٢) سورة الشرح / ٢ .

(٢٣) سورة طه / ٨٧ .

(٢٤) سورة العنكبوت / ١٣ .

(٢٥) سورة البقرة / ٢٣٥ .

(٢٦) سورة البقرة / ٢٢٣ .

(٢٧) سورة البقرة / ٢٦٧ .

● ومنه قوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[٢٨] لأنَّ المرأة والرجل يتجردان ويجتمعان فى ثوب واحد ، ويَتَضَامَّانِ فيكون كلُ واحدٍ منهما للآخر بمنزلة اللباس[٢٩] .

قال « النابغة الجَعْدِىّ » :

إذا مَـا الضَّجِيـعُ ثَنَـى جِيدَهـاَ
تَـدَاعَتْ عَلَيْـهِ فَكَـانَتْ لِبَـاساً

* * *

● ومنه قوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[٣٠] أى طَّهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب ؛ لأنّها تشتمل عليه .

قالت « ليلى الأخيليةُ » وذكرتْ إبلا :

رَمَوهاَ بأَثْوابٍ خِفَافٍ فَلا تَرَى
لها شبهَاً إلاَّ النَّعَامَ المُنَفَّـرَا[٣١]

أى ركبوها فرمَوها بأنفسهم .

وقال « آخر » :

لا هُـمَّ إنَّ عامِرَ بن جَهـمِ
أَوْذَمَ حجـاً فى ثيـابٍ دُسْمِ[٣٢]

أى هو متدنّس بالذنوب .

---

(٢٨) سورة البقرة / ١٨٧ .

(٢٩) الحق أن قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » ، وقوله : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » من قبيل التشبيه البليغ لإن طرفى التشبيه موجودان فى كلتا الآيتين . ومعروف أن الطرفين لا يجتمعان فى الاستعارة .

(٣٠) سورة المدثر / ٤ .

(٣١) فى اللسان « ونفر الظبى وغيره : شرد .

(٣٢) « أوذم الشىء : أوجبه » ومعنى أوذم حَجّاً فى ثياب دُسْم : أحرم بالحج وهو مُدَنَّس بالذنوب » راجع « وذم » فى اللسان .

والعرب تقول : قومٌ لِطَافُ الازُر . أى خِماصُ البطون ؛ لأنَّ الأُزُرَ تُلاثُ عليها . ويقولون : فِدًى لك إزارى يريدون : بدنى ، فتضع الإزار موضعَ النَّفْسِ .

قال « الشاعر » :

ألا أَبْلِغْ أبـا حَـفْصٍ رَسُولاً
فِدًى لَكَ مِنْ أَخِى ثِقَةٍ إزَارِى

وقد يكون الإزارُ فى هذا البيت : الأهل . قال « الهُذلى » :

تَبـرَّأُ مـن دَمِّ القَتيـل وبَـزِّهِ
وقد عَلِقَتْ دمَّ القتيل إزَارُهـا[٣٣]

أى نفسها .

ويقولون للعَفاَفِ : إزارٌ ؛ لأنّ العفيف كأنّه استتر لمّا عفَّ .

وقال « عَدِىّ بن زَيْد » :

أجْـل أنَّ اللّهَ قَـدْ فَضَّلَكُـمْ
فَوقَ ما أَحْكِـى بِصُلْبٍ وإزَارِ[٣٤]

فالصُّلبُ : الحسَبُ ، سمّاه صُلْباً لأنَّ الْحَسَب : العشيرة . والخَلْقُ . من ماء الصّلب . والإزار : العفاف .

ويجوز أن يكون سَمَّى العشيرة صُلْباً لأنّهم ظَهْرُ الرجل ، والصُّلبُ فى الظّهر .

* * *

(٣٣) فى اللسان « بز » : « والبَزُّ والبِزَّة : السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف .

(٣٤) فى اللسان « حكأ » : « قال عدى بن زيد العبادى يصف جارية :

أجل إن الله قد فضلكم ... فوق من أحكأ صلبا بإزار

أراد فوق من أحكأ إزارًا بصلب ، (أحكأ الازار : شده وأحكمه) ، معناه : فضلكم على من ائتزر ، فشد صلبه بإزار ، أى فوق الناس أجمعين ؛ لأن الناس كلهم يحكئون أزرهم بأصلابهم ويروى : فوق ما أحكى بصلب وإزار

أى بحسب وعفه ، أراد بالصلب هنا : الحسب . والإزار : العفة عن المحارم ، أى فضلكم الله بحسب وعفاف فوق ما أحكى : أى أقول .

● **وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾**[٣٥] : أى سِتْراً وحجابا لأبصاركم .

قال « ذو الرُّمة » :

وَدَوِّيَّةٍ مِثْلِ السَّمَاءِ اعْتَسَفْتُهَا
وقد صَبَغَ اللَّيلُ الْحَصَى بِسَوَادِ[٣٦]

أى لمّا ألبسَهُ الليلُ سَوادَهُ وظُلمتَه ، كانَ كأنَّه صَبَغَهُ .

وقد يَكْنُون باللباس والثوب عما سَتَر ووقى ، لأنّ اللباس والثوبَ وَاقِيانِ ساتِرَان .

وقال « الشاعر » :

كَثَوْبِ ابن بِيضٍ وقاهم بـه . فَسَدَّ على السَّالكين السَّبِيلا

قال الأصمعى : « ابن بيض » رجلٌ نحَرَ بعيراً له على ثَنِيّةٍ فسَدَّها فلم يقدر أحد أنْ يجوز ، فَضُرِبَ به المثل فقيل : سَدّ ابن بيضٍ الطريقَ .

وقال غير الأصمعى : « ابن بيض » رجلٌ كانت عليه إتَاوَةٌ فهرب بها فاتَّبَعَهُ مُطالبهُ ، فلما خشىَ لحاَقَه وضع ما يطالبه به على الطريق ومضى ، فلما أخذ الإتاوةَ رجع وقال : « سدّ ابن بيضٍ الطريق » أى منعَنا من اتباعِه حين وَفَى بما عليه ، فكأنه سدّ الطريق .

فكَنَى الشاعرُ عن البعير — إن كان التفسير على ما ذكر الأصمعى — أو عن الإتاوَةِ — إن كان التفسير على ما ذَكَرَ غيره — بالثوب ؛ لأنهما وَقيا كما يقى الثوبُ .

وكان « بعض المفسرين » يقول فى قوله عز وجل : **﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً ﴾**[٣٧] أى سكَنا ، وفى قوله تعالى : **﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ﴾**[٣٨] أى سكن لكم .

---

(٣٥) سورة الفرقان / ٤٧ .

(٣٦) دوية : فلاة ، مثل السماء : فى استوائها . اعتسفتها : سرت فيها على غير هداية . نقلاً عن الأصل .

(٣٧) سورة الفرقان / ٤٧ .

(٣٨) سورة البقرة / ١٨٧ .

وإنما اعتَبر ذلك من قوله : ﴿ **جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيه** ﴾[٣٩] ومن قوله : ﴿ **جعَلَ مِنهَا زَوْجَهاَ لِيَسْكُنَ إلَيْها** ﴾[٤٠] .

* * *

● **ومن الاستعارة** : ﴿ **وَأَمَّا الذين ابْيَضَّتْ وجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ** ﴾[٤١] يعنى جَنَّته ، سمَّاها رحمة ؛ لأن دخولهم إيَّاها كان برحمته .

ومثله قوله : ﴿ **فأَمَّا الذين آمَنُوا بالله وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فى رَحْمَةٍ مِنه وَفَضْلٍ** ﴾[٤٢] . وقد تُوضَعُ « الرحمةُ » موضع « المطر » لأنه يَنزل برحمته .

قال تعالى : ﴿ **وهُوَ الذى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بين يَدَىْ رَحْمَتِه** ﴾[٤٣] يعنى المطر .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خزَائِنَ رَحْمَةِ ربِّى** ﴾[٤٤] يعنى مفاتيح رزقه .

وقال تعالى : ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهاَ** ﴾[٤٥] أى من رزق .

* * *

● **ومن الاستعارة** : اللسان يوضع موضع القول ؛ لأنّ القول يكونُ بها . قال الله ، عز وجل ، حكايةً عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ **واجْعَل لى لسَانَ صِدْقٍ فى الآخِرين** ﴾[٤٦] . أى ذِكْراً حسناً . وقال « الشاعر » :

---

(٣٩) سورة يونس / ٦٧ .
(٤٠) سورة الأعراف / ١٨٩ .
(٤١) سورة آل عمران / ١٠٧ .
(٤٢) سورة النساء / ١٧٥ .
(٤٣) سورة الأعراف / ٥٧ .
(٤٤) سورة الإسراء / ١٠٠ .
(٤٥) سورة فاطر / ٢ .
(٤٦) سورة الشعراء / ٨٤ .

إنّي أَتَتْنِى لِسَانٌ لا أُسَرُّ بِهَا
من عَلوَ لا عَجَبٌ مِنْهاَ ولا سَخَرُ

أى أتانى خبرٌ لا أُسَرُّ به .

* * *

● **ومنه** الذِّكْرُ يوضعُ موضع الشرف ؛ لأنَّ الشّريف يُذْكر .

قال الله تعالى : ﴿ **وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾[47] يريد أن القرآن شرفٌ لكم .

وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ** ﴾[48] أى شرفكم . وقال : ﴿ **بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِم فَهُمْ عن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُون** ﴾[49] أى أتيناهم بشرفهم .

● **ومنه قوله تعالى** : ﴿ **فَلاَ تَقُلْ لَهما أُفٍ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا** ﴾ أى لا تستثقل شيئاً من أمرهما ، وتَضِقْ به صدراً ، ولاتُغْلِظ لهما .

والناس يقولون لما يكرهون ويستثقلون : أُفٍ له . وأصل هذا نفخُكَ للشىء يسقط عليك من تراب أو رماد وغير ذلك ، وللمكان تريد إماطة الشىء عنه لتقعُد فيه . فقيل لكل مُسْتَثْقَل : أُفٍ لك ، ولذلك تُحَرَّكُ بالكسر للحكاية ، كما يقولون : غاقِ غاقِ ، إذا حكَوْا صوْتَ الغراب والوجه أن يُسكَّن هذا ، إلا أنه يُحرَّك لاجتماع الساكنين ، فربما نُوِّن ، وربما لم ينوّن ، وربما حُرِّك إلى غير الكسر أيضاً .

* * *

● **ومنه قوله تعالى** : ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ** ﴾[51] يريد كلما هاجوا شراً وأجمعوا أمراً ليحاربوا النبى ﷺ ــ سكّنه الله وَوَهَّن أمرهم .

---

(٤٧) سورة الزخرف / ٤٤ .
(٤٨) سورة الأنبياء / ١٠ .
(٤٩) سورة المؤمنون / ٧١ .
(٥٠) سورة الإسراء / ٢٣ .
(٥١) سورة المائدة / ٦٤ .

● ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[٥٢] . الإصر : الثِّقْل الذى ألزمَهُ الله بنى إسرائيل فى فرائضهم وأحكامهم ، ووضعه عن المسلمين . ولذلك قيل للعهد : إصرٌ .

قال تعالى : ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى ﴾[٥٣] أى عهدى ؛ لأن العهد ثِقْلٌ ومَنْعٌ من الأمر الذى أُخِذَ له .

﴿ وَالأَغْلالُ ﴾ : تحريمُ الله عليهم كثيراً مما أطلقه لأمَّة محمد ، ﷺ ، وجعله أغْلالاً لأن التحريم يمنع كما يقبض الغُلُ اليَدَ ، فاستُعِيرَ .

قال « أبو ذؤيبٍ » :

فَلَيْسَ كَعهْدِ الدَّارِ ياأمّ مــالكٍ
ولكن أُحاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسِلُ
وَعَادَ الفَتَى كالكَهْلِ لَيْسَ بقَائلٍ
سِوَى العَدْلِ شَيْئاً فاستراح العَواذِلُ

يقول : ليس الأمرُ كعهْدِك إذ كنا فى الدَّار ونحن نَتَبسَّطُ فى كل شىء ولا نَتوقّى ، ولكن أسْلَمْنَا فصِرْنا من موانع الإسلام فى مثل الأغْلال المحيطة بالرِّقاب القابضة للأيدى .

ومن هذا قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً ﴾[٥٤] ، أى قبضنا أيديهم عن الإنفاق فى سبيل الله بموانع كالأغلال .

* * *

● ومن ذلك قوله : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾[٥٥] ، يريد الخِتان ، فسماه صِبْغةً ، لأن النصارى كانوا يَصبُغُون أولادهم فى ماءٍ ويقولون :

---

(٥٢) سورة الأعراف / ١٥٧ .
(٥٣) سورة آل عمران / ٨١ .
(٥٤) سورة يس / ٨ .
(٥٥) سورة البقرة / ١٣٨ .

هذا طُهْرَةٌ لهم كالختان للحُنَفاء ، فقال الله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللّهِ ﴾ أى الزَمُوا صبغة الله لا صبغة النصارى أولادهم ؛ وأراد بها ملة إبراهيم عليه السلام .

* * *

● **ومنه قوله** : ﴿ **مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ** ﴾[٥٦] ، أى مالها من تَنَظُّرٍ وَتَمكُّثٍ إذا بدأَتْ ، ولذلك سمّاها ساعة لأنها تأتى بغْتَةً فى ساعة .

وأصل الفَوَاقِ أن تُحلب الناقة ثم تُترك ساعة حتى يجتمع اللبن ثم تُحلَب ، فما بين الحَلْبَتين فَوَاق ، فاستعير الفَوَاق فى موضع الانتظار .

* * *

● **ومنه قوله** : ﴿ **فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْل ذَنُوبِ أَصْحَابِهِم** ﴾[٥٧] ، أى حظاً ونصيباً .

وأصلُ الذَّنوب : الدّلوُ ، وكانوا يَسْتَقون الماء ، فيكون لهذا ذَنُوبٌ ولهذا ذَنُوبٌ ، فاستُعيرَ فى موضع النَّصيب ، وقال « الشاعر » :

إنَّـــا إذا نَازَعَنَـــا شَرِيبُ
لنـــا ذَنـــوبٌ ولـــه ذَنُـــوب[٥٨]

* * *

● والعرب تقول : « أخى وأخوك أَيُّنا أَبْطَشُ ؟ » يريدون : أنا وأنت نَصْطرع فننظر أَيُّنا أشدُّ ؟ فيَكْنى عن نفسه بأخيه ، لأن أخاه كنفسه .

---

(٥٦) سورة ص / ١٥ .
(٥٧) سورة الذاريات / ٥٩ .
(٥٨) فى اللسان « شرب » : « والشريب : صاحبك الذى يشاربك ويورد إبله معك » .

باب المقلوب

وهو عنده نوعان : نوع يتصل بالمعنى ، ونوع يتصل بموقع اللفظ فى التعبير أو التركيب . أما النوع الأول فيقصد به ما أسماه علماء اللغة بالتضاد ويعنى استعمال اللفظ فى معنيين متضادين .

وقد عنى ابن قتيبة بشرح الأسباب التى تؤدى إلى هذه الظاهرة ، وذكر منها :

(١) التطير والتفاؤل ، كقولهم للديغ ، سليم ، تطيراً من السقم وتفاؤلا بالسلامة ، وللفلاة مفازة أى منجاة وهى مهلكة .

(٢) المبالغة فى الوصف : كقولهم للغراب : أعور ؛ لحدة البصر .

(٣) الاستهزاء كما فى قوله تعالى على لسان قوم شعيب لنبيهم ﴿ **إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيد** ﴾ .

(٤) التوسع فى دلالة بعض الألفاظ كما فى إطلاقهم على المستغيث : صارِخ وإطلاقهم على المغيث : صارخ ؛ لأن المستغيث يصرخ فى استغاثته والمغيث يصرخ فى إجابته . واستعمال الظن لليقين وللشك كما فى قوله تعالى : ﴿ **قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللهِ** ﴾ ، أى يستيقنون . وكما فى إطلاق « الشارى » على البائع وعلى المشترى لأن كل واحدٍ منهما اشترى . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمِ مَعْدُودَةٍ** ﴾ أى باعوه[1] .

---

(١) هذا النوع من الأضداد التى يمكن أن ترد إلى معنى عام يجمعها لا يعترف به من قبل بعض العلماء ، أمثال : أبى على القالى . انظر : أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ط جامعة الكويت ، ص ١٩٧ ، أما « ابن قتيبة » فمن الواضح أنه على النقيض من هذا الرأى تماماً .

أما النوع الذى يتصل بموقع اللفظ فى التعبير أو التركيب فمن أمثلته « **ثم دنا فتدلى** » أى : تدلى فدنا ؛ لأنه تدلى للدنو ودنا بالتدلى .

وهنا يتعرض ابن قتيبة لما أسماه بالقلب على الغلط كما فى مثل قول الشاعر :

كانت فـــريضة ما تقـــول كما
كان الزنـــا فـــريضة الرجـــم

أراد« كما كان الرجم فريضة الزنا » .

ويأخذ ابن قتيبة على بعض اللغويين تأويلهم بعض آيات الله على أنها من قبيل هذا القلب ، وما هى كذلك . ويذكر فى هذا المقام قوله تعالى ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً ونداءً** ﴾[٢] حيث يذهبون إلى أنه قد وقع التشبيه بالراعى فى ظاهر الكلام ، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم .

ويعلق « ابن قتيبة » على هذا بقوله : « وهذا ما لا يجوز على أحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل لو لم يجد له مذهباً ؛ لأن الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط ، أو على طريق الضرورة للقافية ، أو لاستقامة وزن البيت ....

ثم أخذ يدلل على صدق ما يقول ، وكان مما أورده قول « لبيد » :

نحن بنو أم البنين الأربعة .

قال ابن الكلبى : هم خمسة ، فجعلهم للقافية أربعة .

ثم ينتهى من ذلك كله إلى القول إن « الله تعالى لا يغلط ولا يضطر ، وإنما أراد : « ومثل الذين كفروا ومثلنا فى وعظهم كمثل الناعق بمالا يسمع ، فاقتصر على قوله : « **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا** » وحذف ومثلنا لأن الكلام يدل عليه »[٣] .

ثم يعود « ابن قتيبة » ثانيا إلى إيراد أمثلة لما تم فيه تقديم أو تأخير لبعض العبارات

---

(٢) سورة البقرة / ١٧١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ٢٠٣ .

أو الكلمات كما فى قوله تعالى : « **فَكَذَّبُوه فَعَقَرُوهَا** » ، أى : فعقروها فكذبوه بالعقر . وقد يجوز أن يكون أراد : فكذبوا قوله : إنها ناقة الله فعقروها[٤] .

يقول « **ابن قتيبة** » :

ومن المقلوب : أن يُوصف الشيءُ بضدّ صِفته للتطّير والتفاؤل ، كقولهم لِلّديغِ : سليمٌ ، تَطَيّراً من السُّقم ، وتفاؤلاً بالسّلامة . وللعطشان : نَاهِل ، أى سينْهَل . يَعْنُون : يَرْوَى . وللفلاة : مفَازَة ؛ أى منجاة ، وهى مَهلَكَةٌ .

وللمبالغة فى الوصف ، كقولهم للشمس : جَوْنَةٌ ، لشدّة ضوئها . وللغراب : أعْوَر ؛ لحدّة بصره .

وللاستهزاء ، كقولهم للحبشىّ : أبو البَيْضَاء . وللأبيض : أبو الجَوْن .
ومن هذا قولُ قومِ شُعَيب : ﴿ **إنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشيد** ﴾[٥] .
كما تقول للرجل تستجهله : يا عاقل ، وتستخفه : يا حليم .

قال « الشاعر » :

فقــلتُ لِسَيِّدِنَــا : يَا حَلِيــمُ
إنَّكَ لَـمْ تَـأْسُ أَسْواً رَفِيقــاً[٦]

قال قتادة : ومن الاستهزاء قولُ الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُون ، لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيه ، وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُون** ﴾[٧] .

---

(٤) السابق ٢٠٦ .

(٥) سورة هود / ٨٧ .

(٦) فى اللسان : الأسا : المداواة والعلاج ... وأسا الجرح أسواً وأسا : داواه .

(٧) سورة الأنبياء / ١٢ ، ١٣ . وفى الكشاف : جـ ٣ ص ٥ : والركض : ضرب الدابة بالرِّجل ومنه قوله تعالى : « اركض برجلك » فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن يشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم .

وفى قول « عَبيد بن الأبْرَص » لِكِنْدَة ـــ طَرَفٌ من هذا المعنى :

هَــلاّ سألْتَ جُمُــوع كِنْـــدَة

يـــومَ وَلَّـــوْا : أَيْـــنَ أَيْنَـــا ؟

يستهزىء بهم حين انهزموا ، يريد أين تذهبون ؟ ارجعوا .

● **وأما قول الله** سبحانه : ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾[8] ، **فبعضُ الناس** يَذْهَبُ به هذا المذهب ، أى أنت الذليل المهان .

وبعضهم يريد : أنت العزيز الكريم عند نفسك . وهو معنى تفسير « ابنِ عباس » لأن « أبا جهل » قال : ما بين جبليها أعزُّ منى ولا أكرم ، فقيل له : ﴿ **ذق إنّك أنت العزيز الكريم** ﴾ .

* * *

ومن ذلك أن يسمّى المتضادّان باسم واحد ، والأصل واحد .

فيقال للصبح : صَرِيمٌ ، ولليل : صَرِيمٌ[9] . قال الله سبحانه : ﴿ **فَأَصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ** ﴾[10] ، أى سوداء كالليل ؛ لأنّ الليل يَنْصرِمُ عن النهّار ، والنهار ينصرم عن الليل .

* * *

وللظُّلمة : سُدْفَةٌ . وللضوء : سُدفةٌ . وأصل السُّدْفة : السُّتْرَة ، فكأن الظلام إذا أقبل سِتْرٌ للضّوء ، والضوء إذا أقبل سِتْرٌ للظّلام .

* * *

وللمستغيث : صارخ . وللمُغيث : صارخ ؛ لأن المستغيثَ يصرُخ فى استغاثته ، والمُغيث يصرُخ فى إجابته .

* * *

---

(٨) سورة الدخان / ٤٩ .

(٩) يقال : صَرَمْت الشيءَ صَرْماً : قَطَعْتُه . والانصرام : الانقطاع (اللسان : صرم) .

(١٠) سورة القلم / ٢٠ .

ولليقين : ظَنٌّ . وللشك : ظَنٌّ ؛ لأنْ فى الظن طَرفاً من اليقين . قال الله عز وجل : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللّهِ ﴾(١١) ، أى يَستيقنُون .

وكذلك : ﴿ إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾(١٢) ، ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾(١٣) ، و ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ ﴾(١٤) ، هذا كله فى معنى « اليقين » .

قال « دريد بن الصِّمة » :

فَقُلْتُ لَهُمْ : ظُنُّوا بِأَلْفَىْ مُدَجَّجٍ
سراتُهـمُ فى الفَـارِسِيِّ الـمُسَرَّدِ(١٥)

أى تيقنوا بإتيانهم إيَّاكُم .

وكذلك جعلوا « عَسَى » شكاً ويقيناً ، « ولعل » شكاً ويقيناً . كقوله : ﴿ فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُون ﴾(١٦) ، أى ليهتدوا .

* * *

وللمشترى : شارٍ ، وللبائع : شارٍ ؛ لأنَّ كلّ واحدٍ منهما اشترى .

وكذلك قولهم لكل واحدٍ منهما : « بائع » ؛ لأنه باع وأخذ عِوَضاً مما دَفع ، فهو « شارٍ » و « بائعٌ » .

قال الله عز وجل : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ ﴾(١٧) ، أى باعُوه . وقال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَاشَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾(١٨) .

---

(١١) سورة البقرة / ٢٤٩ .

(١٢) سورة الحاقة / ٢٠ .

(١٣) سورة الكهف / ٥٣ .

(١٤) سورة البقرة / ٢٣٠ .

(١٥) المدجج : الّلابس السلاح التام . وسراتهم : خيارهم . وعنى بالفارس المسرد : الدروع . وفى اللسان : « سرد » والسَّرْد : اسم جامع للدروع وسائر الحَلَق وما أشبهها من عمل الحلق ، وسمى سردا لأنهُ يُسْرد فيثقب طرفا كل حلقةٍ بالمسمار ، فذلك الحلق المسرد .

(١٦) سورة الأنبياء / ٣١ .

(١٧) سورة يوسف / ٢٠ .

(١٨) سورة البقرة / ١٠٢ .

وقال « ابن مُفَرِّغ » :

وَشَرَيْتُ بُـــــرْداً لَيْتَنِـــــى
مِـنْ بَعْـدِ بُـرْدٍ كُـنْتُ هَامَــهْ

« وبُرْدٌ » : غلام كان له فباعه وندم على بيعه .

* * *

● و « وراء » تكون بمعنى « خَلْف » وبمعنى « قُدَّام » .

ومنها المُواراةُ والتَّوارِى . فكلُّ ما غاب عن عينك فهو وراءٌ ، كانَ قُدَّامَك أو خلفك .

قال الله عز وجل : ﴿ **وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** ﴾[19] ، أى أمامَهم .

وقال : ﴿ **مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ** ﴾[20] ، أى أمامه .

وقال : ﴿ **وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** ﴾[21] .

● وقالوا للكبير : « جَلَلٌ » ، وللصغير : « جَلَلٌ » ؛ لأنَّ الصغير قد يكون كبيراً عند ماهو أصغر منه ، والكبير يكون صغيراً عند ماهو أكبر منه ، فكلّ واحدٍ منهما صغير كبير .

● ولهذا جُعلت « بعض » بمعنى « كلّ » ؛ لأنَّ الشىءَ يكون كلُّه بعضاً لشىءٍ ، فهو بعضٌ وكُلٌّ .

وقال عز وجل : ﴿ **وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ** ﴾[22] .

---

(١٩) سورة الكهف / ٧٩ .

(٢٠) سورة إبراهيم / ١٦ . وقد كتبت هذه الآية فى الأصل المطبوع الذى نقتبس منه النصوص هكذا (من ورائهم) وهو خطأ .

(٢١) سورة إبراهيم / ١٧ .

(٢٢) سورة الزخرف / ٦٣ .

« وكلٌّ » بمعنى « بعض » ، كقوله : ﴿ **وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾[٢٣] ، و ﴿ **يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ** ﴾[٢٤] ، وقال : ﴿ **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾[٢٥] .

* * *

● وجُعلتْ « فوق » بمعنى « دون » في قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾[٢٦] ، أي فما دونها ؛ لأن « فوق » قد تكون « دون » عند ماهو فَوْقَهَا ، و « دون » قد تكون « فوق » عند ماهو دونهَا .

* * *

● و « خشيتُ » بمعنى : « علمت » . قال عز وجل : ﴿ **فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً** ﴾[٢٧] ، أي عَلِمْنا . وفي قراءة أُبيّ[٢٨] : ﴿ **فَخَافَ رَبُّكَ** ﴾ .

ومثله : ﴿ **إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ** ﴾[٢٩] . وقوله : ﴿ **فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنفَاً أَوْ إِثْماً** ﴾[٣٠] ، أي علم .

وقوله : ﴿ **وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ** ﴾[٣١] ؛ لأنَّ في الخشية والمخافة طَرَفاً من العلم .

---

(٢٣) سورة النمل / ٢٣ .

(٢٤) سورة النحل / ١١٢ .

(٢٥) سورة الأحقاف / ٢٥ .

(٢٦) سورة البقرة / ٢٦ .

(٢٧) سورة الكهف / ٨٠ .

(٢٨) في البحر المحيط ١٥٥/٦ « وفي قراءة أبي : (فخاف ربك) والمعنى : فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره » .

(٢٩) سورة البقرة / ٢٢٩ .

(٣٠) سورة البقرة / ١٨٢ . وفي اللسان « جنف » ، قال الزجاج : أي مَيْلا . أو إثما : أي قصداً لإثم .

(٣١) سورة الأنعام / ٥١ .

● و « رَجَوْتُ » بمعنى : « خِفْتُ » . قال الله سبحانه : ﴿ مَالَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً ﴾[٣٢] ، أى : لا تخافون لله عظمته ؛ لأنَّ الرّاجِى ليس بمستيقن ، ومعه طَرَفٌ من المخافة .

قال « الهُذَلِىّ » :

إذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا
وَحَالَفَهَا فى بَيْتِ نُوبٍ عَوامِلِ[٣٣]

أى : لم يخفها .

* * *

و « يئستُ » بمعنى : « علمتُ » من قول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[٣٤]؛ لأنّ فى علمك الشىءَ وتيقّنِك له يأسَك من غيره .

قال « لَبيد » :

حَتَّى إذَا يَئِسَ الرُّمَاةُ فأَرْسَلُوا
غُضْفاً دَوَاجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُهَا[٣٥]

أى : علموا ماظهر لهم فيئسوا من غيره .

---

(٣٢) سورة نوح / ١٣ .

(٣٣) النوب : النحل . وفى اللسان : « قال أبو عبيدة : سميت نوبا ، لأنها تَضْرب إلى السواد . وقال أبو عبيد : سميت به لأنها ترعى ثم تنوب إلى موضعها » راجع اللسان : مادة « نوب » .

(٣٤) سورة الرعد / ٣١ . وقد قال الزمخشرى فى « الكشاف » م ٢ ص ٢٨٨ : « ومعنى أفلم ييئس : أفلم يعلم . قيل هى لغة قوم من النخع . وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لأن اليائس عن الشىء عالم بأنه لا يكون ... ويدل عليه أن عليا وابن عباس ، وجماعة من الصحابة ، والتابعين قرؤا : أفلم يتبين وهو تفسير : أفلم ييئس . وفى اللسان « يأس » .

وقال أبو اسحاق : القول عندى فى قوله تعالى : « أفلم ييئس الذين آمنوا » من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون لأنه قال : « لو يشاء الله لهدى الناس جميعا » .

(٣٥) الغُضْف : كلاب الصيد . وكلب داجن : قد ألف البيت . وقفل الجلد فهو قافل : يبس . والأعصام : القلائد ، واحدتها : عصمة ، ثم جمعت على عصم ثم جمع عصم على أعصام . (راجع اللسان مادة : غضف ، ودجن ، وقفل) .

وقال « آخر » :

أقولُ لهم بالشِّعْبِ إذْ يَأْسِرُونَنى
ألَمْ تَيْئَسُوا أنّى ابنُ فَارِس زَهْدَم[٣٦]

أى : ألم تعلموا .

● **ومن المقلوب : أن يقدِّمَ مايوضِّحه التأخيرُ ، ويؤَخِّر مايوضحه التقديمُ .**

كقول الله تعالى : ﴿ **فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾[٣٧] ، أى مُخلف رُسلِه وعْدَه ؛ لأنَّ الإخْلافَ قد يقعُ بالوعد كما يقعُ بالرُّسُل ، فتقول : أخلفتُ الوعد ، وأخلفتُ الرُّسلَ .

● وكذلك قولُه سبحانه : ﴿ **فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ** ﴾[٣٨] .

ـب . فإنِّى عَدُوٌّ لهم ؛ لأنّ كل من عاديته عاداك .

● وكذلك قوله : ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدلَّى** ﴾[٣٩] أى : تدلى فدنا ؛ لأنّه تدَلّى للدُّنُوّ ، ودنا بالتَدَلِّى .

● ومنه قوله سبحانه : ﴿ **بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** ﴾[٤٠] أى : بل على الإنسان من نفْسِه بصيرةٌ . يريد شهادةَ جوارِحه عليه ؛ لأنها منه ، فأقامه مُقامها .

وقال « ذو الرمَّة » :

وتكسُو المِجنَّ الرِّخْوَ خَصراً كأنه
إهانٌ ذَوَى عن صُفرةٍ فهو أَخْلَقُ[٤١]

وكان الوجه أن يقول : « وتكسو الخَصر مجنا » فقلب ؛ لأنّ كسوتُ يقع

(٣٦) زهدم : اسم فرس ، وفارسه يقال له فارس زهدم (راجع اللسان : زهدم) .

(٣٧) سورة إبراهيم / ٤٧ .

(٣٨) سورة الشعراء / ٧٧ .

(٣٩) سورة النجم / ٨ .

(٤٠) سورة القيامة / ١٤ .

(٤١) المجن : ما أجنها أى سترها من الثياب ، الرخو لأنها ضامرة . والإهان : عود العذق ، وهو الكباسة والعرجون ، شبهها به لملاسته ، يقول : خصرها دقيق أملس ، مثل هذا العرجون . أورده المحقق .

على الثوب ، وعلى الخصر ، وعلى القميص ولابِسِه ، تقول : كسوتُ الثوبِ عبْد الله ، وكسوتُ عبدَ الله الثوبَ .

وقال « أبو النَّجْم » :

* قبل دُنوِّ الأُفْقِ من جَوْزَائه *

وكان الوجه أن يقول : « قبل دُنُوِّ الجوزاء من الأفق » فقلب ؛ لأن كل شيء دنا منك فقد دنوت منه .

وقال « الرَّاعِى » يصف ثوراً :

فَصَبَّحَتْهُ كِلابُ الغَوْثِ يُوسِدُها
مُستوضِحون يَرَوْنَ العَينَ كالأَثرِ

وكان الوجه أن يقول : « يرون الأثر كالعين » لعلمهم بالصيد وآثاره فقلب ؛ لأنهم إذا رَأَوْا الأثر كالعين ، فقد رأوا العين كالأثر .

وقال « النابغة » :

وقد خِفتُ حتى ما تزيد مخافتى
على وَعِلٍ فى ذى المَطارةِ عاقِلِ[٤٢]

وكان الوجه أن يقول : « حتى ماتزيد مخافةُ وَعِلٍ على مخافتى » فقلب ، لأن المخافتين استوتا .

وقال « رُؤْبَةُ بن العَجَّاج » :

ومَهْمَـــةٍ مُغْبَـــرَّةٍ أَرْجَـــاؤُه
كـــأنَّ لـــونَ أَرْضِهِ سماؤُه[٤٣]

وكان الوجه أن يقول : « كأن لون سمائه من غبرتها لونُ أرضه » فقلب ؛ لأن اللونين استويا .

وقال « الآخر » :

* وصار الجمرُ مِثْلَ ترابِها *

(٤٢) الوعل : تيس الجبل . ذى المطارة : جبل .

(٤٣) المهمة : الفلاة بعينها لا ماء بها ولا أنيس .

أى صار ترابُها مثل الجمر .

وقال عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[٤٤] أى خُلِق العجل من الإنسان ، يعنى العجلة . كذلك قال « أبو عبيدة » .

● ومن المقلوب ما قُلِب على الغَلَط :

كقول « خِدَاش بن زُهَير » .

وتُـرْكَبُ خيـلٌ لا هَـوَادَةَ بـينها
وتَعْصى الرِّمَاحُ الضَّيَّاطِرَةِ الْحُمْرِ[٤٥]

أى « تَعْصى الضياطرةُ بالرِّمَاح » وهذا مالا يقع فيه التأويلُ ؛ لأن الرماح لا تعصى بالضياطرة وإنما يعصى الرجالُ بها ، أى يطعنون .

ومنه قول « الآخر » :

أَسْلَمْتُـــــــهُ فى دِمشْقَ كما
أَسْلَـمَتْ وَحْشِيَّـــةٌ وَهَقَـــا[٤٦]

أراد : « كما أسلم وحشيةً وهقٌ » فقلب على الغلط .

وقال « آخر » :

كانَت فـريضَةَ ما تَقُـــولُ كما
كان الزِّنـــا فـــريضَةَ الرجْـــمِ

أراد « كما كان الرجم فريضة الزنا » .

* * *

---

(٤٤) سورة الأنبياء / ٣٧ .

(٤٥) الضياطرة : جمع ضَيْطر ، وهو الرجل الضخم الذى لا غناء عنده (اللسان : ضطر) وفيه أيضا : « قال ابن سيده : يجوز أن يكون عنى : أن الرماح تشقى بهم أى أنهم لا يحسنون حملها ولا الطعن بها ويجوز أن يكوت على القلب أى تشقى الضياطرة الحمر بالرماح يعنى أنهم يقتلون بها . والهوادة : المصالحة والموادعة » .

(٤٦) الوهق : الحبل المغار يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان (راجع اللسان : وهق) .

● وكان « **بعضُ أصحاب اللغة** »[٤٧] يذهبُ فى قول الله تعالى : ﴿ **ومثلُ الذينَ كَفرُوا كَمَثلِ الذى يَنعِقُ بما لا يسمعُ إلا دُعَاءً ونِدَاءً** ﴾[٤٨] إلى مثل هذا فى القلب ، ويقولُ : وقع التشبيه بالراعى فى ظاهر الكلام ، والمعنى للمنعوق[٤٩] به وهو الغنم . وكذلك قوله سبحانه : ﴿ **ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولِى القُوَّةِ** ﴾[٥٠] أى : تنهض بها وهى مُثْقَلَة .

وقال « **آخر** » فى قوله سبحانه : ﴿ **وإنّه لِحُبِّ الخيرِ لشديدٌ** ﴾[٥١] أى : وإن حُبَّهُ للخير لشديدٌ .

وفى قوله سبحانه : ﴿ **واجْعَلْنا للمتقينَ إماماً** ﴾[٥٢] أى : اجعل المُتقين لنا إماماً فى الخير .

وهذا مالا يجوزُ لأحدٍ أن يحكم به على كتابِ الله عزّ وجلّ لو لم يجِدْ له مذهبا ؛ لأنّ الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغَلَط ، أو على طريق الضرورة للقافية ، أو لاستقامة وزن البيت .

فمن ذلك قول « لبيدٍ » :

* نحن بَنُو أُمِّ البنينَ الأربعة *

قال ابن الكلبى : هم خمسة ، فجعلهم للقافية أربعة .

---

(٤٧) يشير إلى ذلك « أبو حيان » فى البحر المحيط جـ ١ ص ٤٨٢ فيقول : « وقيل التقدير ومثل الذين كفروا فى عدم فهمهم عن الله وعن رسوله كمثل المنعوق به من البهائم التى لا تفقه من الأمر والنهى غير الصوت فيراد بالذى ينعق الذى يُنعق به فيكون هذا من المقلوب عندهم قالوا كما تقول دخل الخاتم فى يدى والخف فى رجلى وكقولهم عرض الحوض على الناقة ... وذهب إلى هذا التفسير أبو عبيدة والفراء وجماعة » .

(٤٨) سورة البقرة / ١٧١ .

(٤٩) النعيق : دعاء الراعى الشاة .

(٥٠) سورة القصص / ٧٦ .

(٥١) سورة العاديات / ٨ .

(٥٢) سورة الفرقان / ٧٤ .

وقال « آخر » يصف إبلاً :

صَبَّحْنَ مِنْ كَاظِمَةَ الخُصَّ الخَرِبْ
يَحْمِلْنَ عَبَّاسَ بن عَبدِ المُطَّلِبْ[٥٣]

أراد : « عبد الله بن عباس » فذكر أباه مكانه .

وقال « الصَّلَتَانُ » :

أرى الحَطَفَى بَذَّ الفَرَزْدَقَ شِعْرُهُ
ولكنَّ خيراً مِنْ كُلَيْبٍ مُجَاشِعُ[٥٤]

أراد : « أرى جَريراً بَذّ الفرزدق شعره » فلم يمكنه فذكر جَدَّه .

وقال « ذو الرّمة » :

عَشيَّـةَ فَـرَّ الحارِثِيُّـونَ بعدَمـا
قضى نَحبَهُ فى ملتقى القومِ هَوْبَرُ[٥٥]

قال ابن الكلبى : هو « يزيد بن هَوبَر » فاضطرّ .

وقال « أوسٌ » :

فهـل لكُـم فيها إلـىَّ فإنّنـى
طَبيبٌ بما أَعْيَا النِّطاسِىَّ حِذْيَمَـا[٥٦]

أراد : « ابن حِذيَم » وهو طبيب كان فى الجاهلية .

وقال « بن مَيَّادةَ » وذكر بعيراً :

كأَنَّ حَيْثُ تَلْتَقِى منه المُحُـلْ
مِـنْ جَانِبَيْـهِ وَعِلَيْـنِ وَوَعِـلْ[٥٧]

---

(٥٣) كاظمة : موضع قريب من البصرة . الخص : بيت من شجر أو قصب .

(٥٤) فى اللسان : « بَذَّ فلانٌ فلاناً : إذا ما علاه وفاقه فى حُسْن أو عمل » .

(٥٥) وقضى نحبه : مات .

(٥٦) النطاسى : العالم بالأمور ، الحاذق بالطب وغيره .

(٥٧) فى اللسان « محل » : ابن سيده : والمحالة الفِقْرَةَ من فقَار البعير ، وجمعه محال وجمع المحال مُحُل .
والشاعر هنا يشبه ضلوع البعير فى اشتباكها بقرون الأوعال (جمع وعل وهو تيس الجبل) .

أراد : وعلين من كل جانب ؛ فلم يمكنه فقال : وَوَعِلِ .

وقال « أبو النجم » :

ظَلَّت وَوِرْدٌ صادقٌ مِنْ بَالِهَــا
وَظَلّ يُوفى الأُكَمَ ابـنُ خالِهــا

أراد : فحلَهَا : فجعله ابنَ خالها .

وقال « آخر » :

* مثل النصارى قتلوا المسيحَا *

أراد : اليهودَ :

وقال « آخر » :

* وَمِحْورٍ أُخْلِصَ مِنْ مَاءِ اليَلَبْ[٥٨] *

واليَلَب : سُيورٌ تُجْعَلُ تحت البيض ؛ فتوهّمه حديدا .

وقال « رؤبة » :

* أو فضَّةٌ أو ذهَبٌ كِبْريتُ *

وقال « أبو النجم :

* كَلَمْعَةِ البَرْقِ بِبَرْقٍ خُلَّبُهْ[٥٩] *

أراد : بخلَّبِ برقه ؛ فقلب .

وقال « آخر » :

إنَّ الكريــمَ وَأَبِــيكَ يَعْتَمِـــلْ
إنْ لَمْ يَجِدْ يَوْماً عَلَى مَنْ يَتَّكِلْ[٦٠]

---

(٥٨) اليلب : جُلودٌ يُخْرَزُ بعضها إلى بعض ، تلبس على الرءوس خاصة وليست على الأجساد ... وهو اسم جنس ، الواحد منه : يلبة . (اللسان : يلب) .

(٥٩) الخُلَّب : السحاب يومض بَرْقُه حتى يرجى مطره ثم يُخْلِف ويتقشع وكأنه من الخلابة وهى الخداع . ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا ينجز وعده إنما أنت كبرقٍ خُلَّبٍ . (اللسان : خلب) .

(٦٠) فى اللسان : « عمل » : اعتمل الرجل : عمل بنفسه .

أراد : إن لم يجد يوما من يتكل عليه .

فى أشباهٍ لهذا كثيرة يطول باستقصائها الكتاب .

* * *

● والله تعالى لا يغلط ولا يُضْطَرُّ ، وإنما أراد : ومَثَل الذين كفروا ومثَلنا فى وعظهم كمثل الناعق بمالا يسمع ، فاقتصر على قوله : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ ؛ وحذف ومثلُنا ؛ لأنَّ الكلام يدل عليه . ومِثْلُ هذا كثير فى الاختصار .

وقال « الفراء » :

أراد : ومثل واعظ الذين كفروا ؛ فحذف ، كما قال : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا** ﴾[٦١] ، أى : أهلها .

* * *

● وأراد بقوله : ﴿ **مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ** ﴾[٦٢] ، أى : تُميلُها من ثِقْلها .

قال « الفراء » : أنشدنى بعض العرب :

حتى إذا ما التأَمَتْ مَفاصِلُهْ

ونَاءَ فى شِقِّ الشِّمالِ كاهِلُهْ[٦٣]

يُريد : أنه لما أخذ القوس ونزع ، مال عليها .

قال : ونَرَى قولَهم : « ماساءَك ونَاءَكَ » ، من هذا . وكان الأصلُ « أناءكَ » . فأُلْقِىَ الألِفُ لما اتبعَه « ساءك » كما قالوا : « هَنَأَنِى ومَرَأَنِى » ، فاتبع مَرَأَنِى هَنَأَنِى . ولو أفرد لقال : أَمْرَأَنِى .

* * *

● وأراد بقوله : ﴿ **وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾[٦٤] ، أى : وإنه لحبِّ المال لبخيل ، والشدة : البخلُ ههنا ؛ يقال : رَجُلٌ شديدٌ ومتشدِّدٌ .

---

(٦١) سورة يوسف / ٨٣ .

(٦٢) سورة القصص / ٧٦ .

(٦٣) فى اللسان : « نوأ » : ناء بحمله ينوء : نهض بجهد ومشقة . وقيل : أثقل فسقط .

(٦٤) سورة العاديات / ٨ .

● وقوله سبحانه : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إمَاماً ﴾[٦٥] ، يريد : اجعلنا أئمةً فى الخير يقتدى بنا المؤمنون ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[٦٦] ، أى : قادةً ، كذلك قال المفسّرون .

وروى عن « بعض خيار السلف » : أنه كان يدعو الله أن يُحمَل عنه الحديث ؛ فَحُمِلَ عنه .

وقال « بعض المفسرين » فى قوله : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلمُتَّقِينَ إمَاماً ﴾ ، أى : اجعلنا نَقْتَدِى بمن قبلنا حتى يَقْتَدِىَ بنا من بعدَنا . فهم على هذا التأويل مُتَّبِعُونَ ومُتَّبَعُون .

* * *

● ومن المُقدّم والمؤخّر قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً ﴾[٦٧] ، أراد : أنزل الكتاب قيّماً ولم يجعل له عِوَجاً .

● وقوله : ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإسْحَاقَ ﴾[٦٨] ، أى : بشرناها بإسحاق فضحكت[٦٩] .

● وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾[٧٠] ، أى : فعقروها فكذّبوه بالعقر .

وقد يجوز أن يكون أراد : فكذّبوا قوله : إنها ناقة الله ؛ فعقروها .

---

(٦٥) سورة الفرقان / ٧٤ .

(٦٦) سورة السجدة / ٢٤ .

(٦٧) سورة الكهف / ١ ، ٢ .

(٦٨) سورة هود / ٧١ .

(٦٩) فى اللسان : « ضحك » : « وروى الأزهرى عن الفراء فى تفسير هذه الآية : لماقال رسل الله عز وجل لعبده وخليله إبراهيم : لا تخف ، ضحكت عند ذلك امرأته وكانت قائمة عليهم ، وهو قاعد ، فضحكت فبشرت بعد الضحك بإسحاق . وإنما ضحكت سروراً بالأمن ؛ لأنها خافت كما خاف إبراهيم . وقال بعضهم هذا مقدم ومؤخر ، المعنى فيه عندهم : فبشرناها بإسحاق فضحكت بالبشارة » .

(٧٠) سورة الشمس / ١٤ .

قال « الأعشى » :

لقد كان فى حَولٍ ثواءٍ ثَوَيْتُهُ
تَـقَضِّى لُبَانَـاتٍ ويَسأمُ سائـــمُ[٧١]

أراد : لقد كان فى ثواء حَولٍ ثَوَيْتُه .

وقال « ذو الرُّمَّة » يصف الدَّار :

فأضحت مبَاديها قِفاراً رُسُومُهـا
كأنْ لَمْ سِوَى أَهْلٍ مِنَ الوَحْشِ تُوهَلُ[٧٢]

أراد : كأن لم تُوهل سوى أهلٍ من الوحش .

* * *

● وقد كان « بعضُ الْقَرَأَة » يقرأ : ﴿ **وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلاَدَهُمْ شُرَكائِهِمْ** ﴾[٧٣] ، أى : قَتْلُ شُرَكائِهِمْ أَوْلاَدَهُمْ .

* * *

● ومن المُقدّم والمؤخّر قولُه سبحانه : ﴿ **إنّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعذِّبَهُمْ بِها فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ** ﴾[٧٤] .

وقال « ابن عباس » فى رواية الكَلْبى : أراد : ولا تُعجبْك أموالهم وأولادهم فى الدنيا ؛ إنما يريد الله أن يعذّبهم بها فى الآخرة .

* * *

(٧١) الثواء : طول الإقامة ... ثويت بالمكان : أطلت الإقامة به ، لبانات : جمع « لبانة » وهى الحاجة من غير فاقة ولكن من همة . ويسأم سائم : من السآمة ، وهى الملل والضجر .

(٧٢) مباديها : جمع « مبدى » وهو الموضع الذى يخرج إليه القوم فى البادية ــ وقفار : جمع قفر وهو المكان الخلاء . رسومها : آثارها . (اللسان : « بدا » ، و « قفر » و « رسم ») .

(٧٣) سورة الأنعام / ١٣٧ . هذه قراءة صحيحة مشهورة بلغت التواتر وقارئها هو « ابن عامر » من كبار التابعين الذين أخذوا عن الصحابة ، كعثمان بن عفان وأبى الدرداء رضى الله عنهما . وهو مع ذلك عربى صريح من صميم العرب فكلامه حجة وقوله دليل ؛ لأنه كان قبل أن يوجد اللحن .
ولهذا فلا عبرة لطعن طاعن فى هذه القراءة ما دام قد ثبت تواترها . راجع النشر فى القراءات العشر « المجلد الثانى » ص ٢٦٣ .

(٧٤) سورة التوبة / ٥٥ .

● ومنه قوله سبحانه : ﴿ **وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزَاماً وأَجَلٌ مُسَمًّى** ﴾[٧٥] ، أى : ولولا كلمة سبقت وأجلٌ مسمّى ، لكان العذابُ لِزاماً .

● ومنه قوله سبحانه : ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَ تَّبَعْتُم الشَّيْطَانَ إلاّ قَلِيلاً** ﴾[٧٦] ، أراد : لَعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ،لا تبعتم الشيطان .

قال « الشاعر » :

فَأَوْرَدْتُهَا مَـاءَ كَـأَنَّ جِمَامَـهُ
مِنَ الْأَجْنِ حِنّاءٌ مَعاً وَصَبِيبُ[٧٧]

أى : فأَوْرَدْتُها ماءً كأنَّ جِمَامَه حِنّاءٌ وصبيبٌ معاً .

---

(٧٥) سورة طه / ١٢٩ .

(٧٦) سورة النساء / ٨٣ .

(٧٧) أوردتها : يعنى الناقة ، جمام الماء : ما اجتمع منه . وكثرة الأجن : تغير الماء . الصبيب : شجر حجازى يختصب به كالحناء . يصف الماء بالتغير لبعد عهده بالواردة إذا كان فى فلاة نائية ليس بها إنسان « راجع الأصل » ص ٢٠٩ .

باب الحذف والاختصار

وقد بين فيه أن القرآن الكريم قد احتوى أسلوبه على ثمانية أنماط للحذف والاختصار . وهذه الأنماط هى :

(١) أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له ، كقوله تعالى « واسأل القرية التى كنا فيها » ، أى سل أهلها .

(٢) أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما وتضمر للآخر فعله كقوله تعالى « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » والتقدير فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم ، لأن معنى « أجمعوا » من أَجْمَعَ الأمرَ إذا نواه وعزم عليه .

(٣) أن يأتى الكلام على أن له جواباً فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به كقوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم » أى لعذبكم .

(٤) حذف الكلمة أو الكلمتين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمانِكُم** ﴾ والمعنى : فيقال لهم : أكفرتم . وقوله تعالى :﴿ **وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ** ﴾ أراد ولا من فى السماء بمعجز .

ويتوقف ابن قتيبة عند بعض الآيات التى أشكلت وغمضت لما فيها من اختصار وإضمار ، ومن الآيات التى توقف عندها فى هذا المقام قوله تعالى : ﴿ **يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ إِلاَّ مَنْ ظَلِمْ ثُمّ بَدَّل حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى**

غفورٌ رَحيمٌ ﴾[1] . فالإشكال هنا مبعثه استثناء « من ظلم » مما قبله وهم المرسلون !! مع أن المعروف أن الرسل معصومة مغفور لها آمنة يوم القيامة ؟!

وقد أورد ابن قتيبة رأيا يقول إن فى الكلام إضمارا ، كأنه قال لا يخاف لدى المرسلون بل غيرهم الخائف ؛ إلا من ظلم ثم تاب فإنه لا يخاف . لكن ابن قتيبة يستبعد هذا الرأى ؛ لأن العربية لا تلجأ إلى الحذف إلا إذا كان ثمة مايدل عليه وليس فى الآية — كمايرى ابن قتيبة — مايدل على المحذوف . ورأى ابن قتيبة أن الاستثناء صحيح ، ويشرح ذلك بقوله : « والذى عندى فيه ، والله أعلم أن « موسى » عليه السلام ، لماخاف الثعبان وولى ولم يعقب ، قال الله عز وجل : **﴿ ياموسى لاَ تَخفْ إنّى لاَ يَخافُ لَدىَّ الْمُرسَلُونَ ﴾** وعلم أن موسى مستشعر خيفة أخرى من ذنبه فى الرجل الذى وكزه فقضى عليه ؛ فقال : « **إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء** » أى توبة وندما ؛ فإنه يخاف ، **وإنّى غَفُورٌ رَحِيم**[2] . كمايشير ابن قتيبة إلى رأى القائلين إن « إلا » هنا بمعنى الواو .

(٥) حذف جواب القسم إذا كان فى الكلام بعده ما يدل عليه ، كقوله تعالى : **﴿ قٓ ، وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُّنذِرٌ مِنْهُم فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَىءٌ عَجِيب أئِذا مِتْنَا ﴾** نبعث . ثم قالوا : **﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾** أى لا يكون .

(٦) حذف « لا » فى الكلام كقوله تعالى : **﴿ تَاللَّهِ تَفْتوء تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾** أى لا تزال تذكر يوسف .

(٧) أن تضمر لغير مذكور كما فى قوله تعالى : **﴿ حتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾** يعنى الشمس ، ولم يذكرها قبل ذلك .

(٨) حذف الصفات ، أى حذف حروف الصفات ، وهو يقصد بحروف الصفات حروف الجر آخذا بمصطلح الكوفيين . ومن أمثلة هذا الحذف قوله تعالى : **﴿ واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَه سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾** أى اختار منهم . وكقوله تعالى : **﴿ الَّذِينَ إنْ مَكَنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾** أى : مكنا لهم .

(١) سورة النمل / ١٠ ، ١١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٠ .

يقول « ابن قتيبة » :

من ذلك : أن تحذفَ المضاف وتُقيمَ المضاف إليه مُقامه وتجعلَ الفعل له .

كقوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلِ القَرْيَةَ التى كُنَّا فيها** ﴾[3] أى سل أهلها .

﴿ **وَأُشْرِبُوا فى قُلوبهم العِجْلَ** ﴾[4] أى حُبَّهُ .

و ﴿ **الحجُّ أشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ** ﴾[5] أى وقتُ الحج .

وكقوله : ﴿ **إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ المماتِ** ﴾[6] أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات .

وقوله سبحانه : ﴿ **لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَسَاجِدُ** ﴾[7] فالصلوات لا تُهَدَّم ، وإنما أراد بيوتَ الصلوات .

قال « المفسرون » : الصوامِعُ للصَّابئين ، والبِيَعُ للنّصارى ، والصلوات : كنائس اليهود ، والمساجد للمسلمين .

وقوله : ﴿ **مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ** ﴾[8] أى أخرجكَ أهلُها .

وقوله : ﴿ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار** ﴾[9] أى مكركم فى الليل والنهار .

وقوله : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بَالله** ﴾[10] ؟ أى : أجعَلتُم صاحب سِقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن ؟! ويكون يريد : أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله وجهاده ؟ كما قال : ﴿ **ولَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللّهِ** ﴾[11] .

---

(٣) سورة يوسف / ٨٢ .

(٤) سورة البقرة / ٩٣ .

(٥) سورة البقرة / ١٩٧ .

(٦) سورة الإسراء / ٧٥ .

(٧) سورة الحج / ٤٠ .

(٨) سورة محمد / ١٣ .

(٩) سورة سبأ / ٣٣ .

(١٠) سورة التوبة / ١٩ .

(١١) سورة البقرة / ١٧٧ .

قال « الهُذلى » :

يُـمشّى بَيْننـا حَانـوتُ خَمْـرٍ
من الخُرْسِ الصَّراصِرَةِ القِطَاطِ[12]

أراد صاحبَ حانُوت خمر ، فأقام الحانوت مُقامه .

وكذلك قول « أبى ذُؤَيْب » فى صفة الخمر :

تَوَصَّلُ بالرُّكْبـانِ حِينـاً وَتُولِـفُ
الجِوارَ وَيُغْشِيها الأَمَـانَ رِبابُهـا[13]

اللفظ للخمر والمعنى للخَمَّار ، أى يتَوَصَّلُ الخمار بالركب ليسير معهم ويأمن بهم . وكذلك « قوله » :

أَتَوْهَا بِرِبْحٍ حَاوَلَتْـهُ فَأَصْبَـحَتْ
تُكَفَّتُ قَدْ حَلَّتْ وَسَاغَ شَرَابُهَا[14]

يريد : أَتَوْا صاحبها بربح ، فأقامها مُقامه .

وقال « كُثَيِّر » يذكر الأَظْعان :

حُزِيَتْ لى بحَزْمِ فَيْدَةَ تُحْدَى
كاليَهُـودِىّ مِـنْ نَطـاة الرِّقَـالِ[15]

أراد كنخْل اليهودىّ من خَيْبر ، فأقامه مُقامها .

ومثله قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَدْعُ نادِيَه** ﴾[16] أى : أهله .

---

(١٢) الصراصرة : نبط الشام . والقَطاط جمع قَطّ : وهو ذو الشعر الجعد القصير .

(١٣) توصل : تتوصل ، بالركبان ، يعنى أهل الخمر . وفى اللسان : « ربب » « قوله : تؤلف الجوار أى تجاور فى مكانين . والرِّباب : العهد الذى يأخذه صاحبها من الناس لإجارتهم ... وقال شَمِر : الرِّباب فى بيت أبى ذؤيب جمع رَبّ .

(١٤) قوله تكفت من « كفت الشئ : ضمه وقبضه » .

(١٥) حزيت : رفعت . حزم فيدةَ : موضع . ونطاة : حِصْن بخيبر ، وقيل عين بها وقيل هى خيبر نفسها . والرِّقال جمع رَقْلَة وهى النخلة إذا فاتت يد المتناول .

(١٦) سورة العلق / ١٧ .

وقال « الشاعر » :

لهم مَجْلِسٌ صُهْبُ السِّبَالِ أَذِلَّةٌ
سَوَاسِيَـةٌ أَحْرَارُهـا وَعَبِيدُهـا[١٧]

* * *

● **ومن ذلك أن تُوقِعَ الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، وتضمرَ للآخر فعله .**

كقوله سبحانه : ﴿ **يَطوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِين** ﴾[١٨] .

ثم قال : ﴿ **وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ** ﴾[١٩] والفاكهة واللحمُ والحورُ العين لا يُطاف بها ، وإنما أراد : ويُؤْتَوْن بلحم طير .

● ومثله قوله : ﴿ **فأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ** ﴾[٢٠] أي : وادعوا شركاءكم ، وكذلك هو في مصحف عبد الله .

قال « الشاعر » :

تَـرَاهُ كـأَنَّ اللهَ يَجْـدَعُ أَنْفَــهُ
وَعَيْنَيْهِ إنْ مَوْلاهُ ثَابَ لَهُ وَفْرُ[٢١]

أي يجدع أَنْفَه ، ويفقأ عينيه .

---

(١٧) صُهْب : حُمْر ، السِّبال : الشوارب . والعرب تصف الأعداء بأنهم « صهب السبال » وإن لم يكونوا كذلك « راجع اللسان : صهب » .

(١٨) سورة الواقعة / ١٧ ، ١٨ .

(١٩) سورة الواقعة / ٢٠ ، ٢٢ .

(٢٠) سورة يونس / ٧١ . وقد صح هذا التقدير لأن معنى « أجمعوا » من « أجمع الأمر » إذا نواه وعزم عليه .

(٢١) يجدع : يقطع . ثاب : رجع .

وأنشد « الفراء » :

عَلَفْتُهــا تبنــاً ومــاءً بــارداً
حتى شَتَتْ همَّالةً عَيْناهــا [٢٢]

أى علفتُها تبنا ، وسقَيْتُها ماء باردا .

وقال « آخر » :

إذا ما الغَانِيَـاتُ بَـرَزْنَ يومــاً
وزَجَّجْنَ الحَوَاجِبَ والعُيُونَـا [٢٣]

والعُيون لا تُزَجَّجُ ، وإنما أراد : وزجَّجْنَ الحواجب ، وكَحَّلْنَ العيون .

وقال « الآخر » :

ورأيتُ زَوْجَكِ فى الوَغَـــى
مُتَقَلِّــداً سَيْفــاً وَرُمْحَــا [٢٤]

أى متقلداً سيفا ، وحاملا رمحا .

* * *

● **ومن ذلك : أن يأتى بالكلام مَبْنِيًّا على أنّ له جوابا ، فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب به .**

كقوله سبحانه : ﴿ **ولو أنَّ قُرْآناً سُيِّرتْ به الجِبَالُ أَوْ قُطِّعتْ بِه الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِه المَوْتَى بَلْ لِلهِ الأَمْرُ جَمِيعا** ﴾[٢٥] أراد : لكان هذا القرآن ، فحذف .

وكذلك قوله : ﴿ **ولولا فَضْلُ اللهِ عليكم ورَحْمَتُه وأنَّ اللهَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ** ﴾[٢٦] أراد : لعذّبكم ، فحذف .

---

(٢٢) شتت : تفرقت . همَّالة من هَمَلَت عينُه : فاضت وسالت .

(٢٣) الغانيات : جمع غانية وهى التى غنيت بحسنها وجمالها عن الحَلْى . والزَّجَج : دقة فى الحاجبين وطول .

(٢٤) الوغى : الحرب .

(٢٥) سورة الرعد / ٣١ .

(٢٦) سورة النور / ٢٠ .

قال « الشاعر » :

فأُقْسِم لو شَىءٌ أتانا رسولُه
سِواكَ ؛ ولكنْ لم نَجِدْ لك مَدْفَعَا

أى لردَدْناه .

وقال الله عز وجل : ﴿ **ليسوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قائِمةٌ يتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ الليلِ وهُمْ يَسْجُدونَ** ﴾[27] . فذكَر أُمَّةً واحدةً ولم يذكر بعدها أخرى . وسواءٌ تأتى للمُعَادلة بين اثنين فما زاد .

وقال : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ اللَّيلِ ساجِداً وقائماً** ﴾[28] ولم يذكر ضِدَّ هذا ؛ لأن فى قوله : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُون والذين لا يَعْلَمُون** ﴾ دليلا على ما أراد .

وقال « الشاعر » :

أَرَاكَ فما أَدْرِى أَهَمٌّ هَمَمْتُهُ
وذُو الهَمِّ قِدْماً خَاشِعٌ مُتَضَائِلُ[29]

ولم يأت بالأمر الآخر .

وقال « أبو ذُؤَيب » :

عَصَيْتُ إليها القَلْبَ إنّى لِأَمْرِهِ
سَمِيعٌ ، فما أدرى أَرُشْدٌ طِلاَبُها ؟

أراد : أرشدٌ هو أم غىٌّ ؟ فحذف .

* * *

ومن ذلك : حذف الكلمة والكلمتين .

كقوله : ﴿ **فأمَّا الذين اسْوَدَّتْ وُجُوهُهم أَكَفرْتُمْ** ﴾[30] والمعنى فيقال لهم :

---

(٢٧) سورة آل عمران / ١١٣

(٢٨) سورة الزمر / ٩ .

(٢٩) قِدْماً : اسم من القِدَم .

(٣٠) سورة آل عمران / ١٠٦ .

أكفرتم ؟ وقوله : ﴿ ولو تَرَى إذِ المُجْرِمُونَ ناكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهم ربّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا ﴾[٣١] والمعنى : يقولون ربنا أبصرنا .

وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾[٣٢] . والمعنى يقولان ربنا تقبّل منا .

وقال « ذو الرُّمة » يصف حميرا :

فلمَّا لَبِسْنَ اللَّيلَ أو حينَ نَصَّبَتْ
له من خَذَا آذَانِها وهو جانحُ[٣٣]

أراد أو حين أقبل الليل نَصَّبَتْ . و « قال » :

* وقد بدا لِذِى نُهْيَةٍ أن لا إلى أُمِّ سَالمِ[٣٤] *

أراد : أن لا سبيل إلى أم سالم .

* * *

وقال الله عز وجل : ﴿ وقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالِدَينِ إحْسَاناً ﴾[٣٥] . أى ووصَّى بالوالدين .

وقال « النَّمِرُ بن تَوْلَب » :

فـإِنَّ المَنِيَّـةَ مَـنْ يَخْشَهـا
فَسَوفَ تُصَادِفُـــه أَيْنَمـــا

أراد أينما ذهب .

وقال الله عز وجل : ﴿ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فى يوم ٍ عَاصِفٍ ﴾[٣٦] .
أراد : فى يوم عاصف الرِّيح ، فحذف ؛ لأنَّ ذكر الرِّيح قد تقدَّم ، فكانَ فيه دليل .

---

(٣١) سورة السجدة / ١٢ .

(٣٢) سورة البقرة / ١٢٧ .

(٣٣) نَصَّبَتْ من النصب وهو إقامة الشىء ورفعه . والخذا : استرخاء الأذن .

(٣٤) لِذِى نُهْية : لصاحب العقل .

(٣٥) سورة الإسراء / ٢٣ .

(٣٦) سورة إبراهيم / ١٨ .

وقال تعالى : ﴿ **ومَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فى الْأَرضِ ولا فى السَّماء** ﴾[٣٧] . أراد : ولا مَنْ فى السماء بِمُعْجِز .

* * *

وقال تعالى : ﴿ **وأَدْخِلْ يَدَكَ فى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فى تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ** ﴾[٣٨] . أراد فى تسع آيات إلى هذه الآية ، أى معها . ثم قال : ﴿ **إلى فرعون** ﴾ . ولم يقل مُرْسَلاً ولا مبعوثا ؛ لأن ذلك معروف .

ومثله : ﴿ **وإلى ثَمُودَ أخاهُم صالحاً** ﴾[٣٩] . أى : أرسلنا .

قال « الشاعر » :

رَأَتْنى بحَبْلَيْها فَصَدَّتْ مَخَافَةً
وفى الحبلِ رَوْعَاءُ الفُؤَادِ فَرُوقُ[٤٠] .

أراد مقْبلاً بحبليها .

وقال عز وجل : ﴿ **فإذا جاءَ وَعْدُ الآخرَةِ لِيَسُوءُوا وجُوهَكُمْ** ﴾[٤١] . أراد : بعثناهم ليسوءُوا وجوهكم ، فحذفها ؛ لأنه قال قبلُ : ﴿ **فإذا جاءَ وَعْدُ أُولاَهُما بَعَثْنَا عَلَيْكُم عِبَاداً لنا** ﴾[٤٢] . فاكتفى بالأول من الثانى ؛ إذ كان يدل عليه .

وكذلك قوله : ﴿ **عنِ اليَمِينِ وعن الشِّمالِ قَعِيدٌ** ﴾[٤٣] . فاكتفى بذكر الثانى من الأول .

* * *

(٣٧) سورة العنكبوت / ٢٢ .
(٣٨) سورة النمل / ١٢ .
(٣٩) سورة الأعراف / ٧٣ .
(٤٠) روعاء : شهمة ذكية . فروق : من الفَرَق ، وهو الخوف .
(٤١) سورة الإسراء / ٧ .
(٤٢) سورة الإسراء / ٥ .
(٤٣) سورة ق / ١٧ .

● وقد يُشْكِلُ الكلامُ ويَغْمُضُ بالاختصار والإضمار .

كقوله : ﴿ **أَفَمَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عملِهِ فَرَآهُ حَسَناً فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فلا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهِمْ حسَراتٍ** ﴾[٤٤] . والمعنى : أفمن زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسنا ، ذهبت نفسُك حسرةً عليه ؟! فلا تذهبْ نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

وكقوله سبحانه : ﴿ **إنّى لا يخافُ لَدَىَّ المُرْسَلُون إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فإنِّى غَفُورٌ رَحيمٌ** ﴾[٤٥] لم يقع الاستثناء من المرسلين ؛ وإنما وقع من معنًى مضمرٍ فى الكلام ، كأنه قال : لا يخاف لدىَّ المرسلون ، بل غيرُهم الخائف ؛ إلا من ظلم ثم تاب فإنه لا يخاف .

وهذا قول « الفراء » : وهو يَبعدُ : لأن العرب إنما تحذف من الكلام ما يدل عليه ما يظهر ؛ وليس فى ظاهر هذا الكلام — على هذا التأويل — دليلٌ على باطنه .

قال أبو محمد :

والذى عندى فيه ، والله أعلم ، أنَّ « موسى » عليه السلام ، لما خاف الثعبان وولّى ولم يُعَقِّب ، قال الله عز وجل : ﴿ **يا موسَى لا تخفْ إنِّى لا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرسَلُونَ** ﴾ وعَلِم أن موسى مُسْتَشْعِرٌ خِيفةً أخرى من ذنبه فى الرَّجل الذى وَكَزَه فقضى عليه ؛ فقال : ﴿ **إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ** ﴾ أى توبةً وندما ؛ فإنه يخَافُ ، وإنى غفور رحيم .

و « بعض النحويين » يحمل « إلاّ من ظلم » بمعنى : ولا من ظلم ، كقوله : ﴿ **لِئَلاَّ يَكونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حجَّةٌ إلاّ الَّذين ظَلَمُوا مِنهُمْ** ﴾[٤٦] . على مذهب من تأول هذا فى « إلاّ » ؛ كقوله فى سورة الأنفال ، بعد وصف المؤمنين : ﴿ **كمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بَيْتِكَ بالْحَقِّ** ﴾[٤٧] . ولم يُشَبِّهْ قصة المؤمنين بإخراج

---

(٤٤) سورة فاطر / ٨ .

(٤٥) سورة النمل / ١٠ ، ١١ . وقد ذهب الزمخشرى إلى أن « إلا » فى قوله تعالى : « إلا من ظَلم » بمعنى « لكن » . الكشاف جـ ٣ ص ١٣٤ .

(٤٦) سورة البقرة / ١٥٠ .

(٤٧) سورة الأنفال / ٥ .

الله إياه ، ولكن الكلام مردودٌ إلى معنى فى أول السورة ومحمولٌ عليه ، وذلك : أن النبى ﷺ ، رأى يوم بدرٍ قِلَّة المسلمين وكراهة كثير منهم للقتال ، فَنَفَّل كلَّ امرىءٍ منهم ما أصاب ، وجعل لكل من قتل قتيلا كذا ، ولمن أتى بأسير كذا ؛ فكره ذلك قومٌ فتنازعوا واختلفوا وحاجّوا النبى ، ﷺ ، وجادلوه ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **يسألونكَ عنِ الأَنْفالِ قل : الأَنْفالُ للهِ والرَّسُولِ** ﴾ : يجعلها لمن يشاء ﴿ **فاتَّقُوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** ﴾ . أى فَرِّقُوها بينكم على السواء ﴿ **وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ فيما بعد ﴿ **إنْ كنتُمْ مؤمنين** ﴾[48] ؛ ووصف المؤمنين ثم قال : ﴿ **كما أَخْرَجَكَ ربُّكَ مِن بَيْتِكَ بالحقِّ وإنَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ** ﴾ يريد : أن كراهتهم لِمَا فعلتَه فى الغنائم ككراهتهم للخروج معك ، كأنه قال : هذا من كراهيتهم كما أخرجَك وإيَّاهم ربُّك وهم كارهون .

* * *

● ومن تتبع هذا من كلام العرب وأشعارِها وجده كثيراً .

قال « الشاعر » :

فلا تَدْفِنُونِى إنَّ دَفْنى مُحَرَّمٌ
عليكم ، ولكنْ خامِرِى أُمَّ عامر

يريد : لا تدفنونى ولكن دعونى للتى يقال لها إذا صِيدَت : خامِرِى أُمَّ عامر ، يعنى الضَّبع ، لتأكلنى .

وقال « عَنْترةُ » :

هل تُبْلِغَنِّى دارَها شَدَنِيَّةٌ
لُعِنَتْ بمَحْرُومِ الشَّرابِ مُصَرَّمِ[49]

---

(٤٨) سورة الأنفال / ١ .

(٤٩) شدنية : ناقة منسوبة إلى « شدن » موضع أو محل باليمن . وأراد بالشراب هنا اللبن . ومصرم : منقطع . وهو يقول هنا : هل تبلغنى دار الحبيبة ناقة شدنية لعنت ودُعِىَ بأن تحرم اللبن ويقطع وإنما شرط هذا لتكون أقوى وأصبر على معاناة شدائد الأسفار لأن كثرة الحمل والولادة يكسبها ضعفا وهزالا .

يريد : دُعَى عليها بأن يحرم ضرعُها أن يَدِرَّ فيه لبن ، فاستجيب للداعى ، فلم تحمل و لم تُرضع .

ومثله قول « الآخر » :

* مَلْعُونَةٌ بِعُقْرٍ أَوْ خَادِجِ[٥٠] *

أى : دُعَى عليها أن لا تحملَ ، وإن حملت : أن تُلقَى ولدَها لغير تمام ؛ فإذا لم تحمل الناقة و لم تُرضِع كان أقوى لها .

* * *

ومن أمثال العرب : « عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُساً » أى : أنْ يأتينا من قِبَل الغويْرِ بأسٌ ومكروه . والغُوير : ماء ، ويقال : هو تصغير غار .

* * *

ومثله قوله سبحانه : ﴿ **قُل هى للذينَ آمنوا فى الحياةِ الدُّنيَا خالصةً يومَ القيامةِ** ﴾[٥١] .

أى هى للذين آمنوا — يعنى فى الدنيا — مشتركة ، وفى الآخر خالصة .

ومنه قوله : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾[٥٢] . أى يخوّفكم بأوليائه ؛ كما قال سبحانه : ﴿ **لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ** ﴾[٥٣] أى لينذركم ببأس شديد .

وقوله : ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لا عِوَجَ لَهُ** ﴾[٥٤] أى لا عوج لهم عنه .

وقوله : ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً** ﴾[٥٥] . أى يعلم أنّ العزّة لمن هى .

---

(٥٠) خادج : « أى تلقى بولدها قبل أوانه لغير تمام » راجع اللسان « خدج » .
(٥١) سورة الأعراف / ٣٢ .
(٥٢) سورة آل عمران / ١٧٥ .
(٥٣) سورة الكهف / ٢ .
(٥٤) سورة طه / ١٠٨ .
(٥٥) سورة فاطر / ١٠ .

وقوله : ﴿ **ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ** ﴾[٥٦] أى ما أريد أن يرزقوا أنفسهم . ﴿ **وما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** ﴾ **أى ما أريد أن يطعموا أحداً من خلقى .**

وأصل هذا : أن البشر عباد الله وعياله فمن أطعم عيال رَجُلٍ ورزقَهم ، فقد رزقَه وأطعَمه ، إذ كان رزقهم عليه .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ **ألاّ يَسْجُدُوا للهِ الذى يُخْرِجُ الخَبْءَ** ﴾[٥٧] أراد : ألاَ يا هؤلاءِ اسجدوا لله .

وقال « الشاعر » :

* يادارَ سَلْمَى يا اسْلمى ثم اسْلِمِى *

* * *

ومن الاختصار : القَسَمُ بلا جواب إذا كان فى الكلام بعده ما يدلُّ على الجواب .

كقوله : ﴿ **قٓ وَالقُرْآنِ المَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكافِرُونَ هذا شيءٌ عَجِيبٌ أَئِذَا مِتْنَا** ﴾ نبعث . ثم قالوا : ﴿ **ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾[٥٨] أى : لا يكون .

وكذا قوله عز وجل : ﴿ **والنّازِعَاتِ غَرْقاً ، والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ، والسَّابِحَاتِ سَبْحاً ، فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ، فالمدَبِّرَاتِ أَمْراً** ﴾ . ثم قال : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** ﴾[٥٩] . ولم يأت الجواب لعلم السامع به ؛ إذ كان فيما تأخّر من قوله دليلٌ عليه ؛ كأنّه قال : والنَّازِعاتِ وكذا وكذا ، لتبعثُنَّ ؛ فقالوا : ﴿ **أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً** ﴾[٦٠] نُبعث ؟! .

* * *

(٥٦) سورة الذاريات / ٥٧ .
(٥٧) سورة النمل / ٢٥ .
(٥٨) سورة ق / ١ ـــ ٣ .
(٥٩) سورة النازعات / ١ ـــ ٦ .
(٦٠) سورة النازعات / ١١ .

ومن الاختصار قوله : ﴿ إلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾[٦١] أراد : كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فيبلِّغَه فاه .

قال « ضابىء » :

فإنِّى وإياكُم وَشَوْقاً إليكُم
كقابِض ماءٍ لم تَسِقْهُ أَنَامِلُهْ[٦٢]

و « العرب » تقول لمن تعاطى ما لا يجد منه شيئاً : هو كالقابِض على الماءِ .

---

(٦١) سورة الرعد / ١٤ .

(٦٢) « وسقت الشىء وَسْقا : إذا حملته » . والشاعر يريد أن يقول : ليس فى يدى شىء من ذلك كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شىء . « راجع اللسان » : « وسق » .

باب تكرار الكلام والزيادة فيه

حرص المؤلف فى هذا الباب على أن يرد على مزاعم الطاعنين القائلين إن من آيات الله مالا يخلو من الزيادة والحشو ، والتكرار ، على نحو لا يفيد المعنى ، ولا يهدف إلى غرض .. ولذا فقد وقف ابن قتيبة عند ظاهرة التكرار فى القرآن يستبطن أسرارها ويكشف دلالاتها وما تهدف إليه ، مؤكدا أنه مامن لقطة ولا تعبير قرآنى إلا له غاية ودلالة ربما لا تبين إلا للمنقب المبرز .

وهو فى دراسته لا يقف عند تكرار اللفظ وحده ، أو العبارة بمفردها بل يوسع دائرة بحثه فينظر إلى التكرار كظاهرة عامة فيتكلم عن التكرار فى الأنباء والقصص شارحاً الحكمة منه ، ثم ينتقل إلى الحديث عن التكرار بالآية ، وذلك تحت عنوان « تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض » ويتوقف — فى هذا المجال — عند قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وقوله ﴿ **قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ وقد انتهى إلى أن التكرار الواقع فى سورة الكافرون إنما أريد بِهِ التوكيد وحسم الأمر ؛ « لأنهم أرادوه أن يعبد ما يعبدون ، ليعبدوا ما يعبد ، وأبدءوا فى ذلك وأعادوا ، فأراد الله عز وجل حسم أطماعهم ، وإكذاب ظنونهم ، فأبدأ وأعاد فى الجواب »[1] .

وربما كان للمسألة وجه آخر فإن القرآن الكريم كان ينزل شيئا بعد شىء وآية بعد آية . وكأن المشركين قالوا للرسول — ﷺ : أسْلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٣٧ .

بإلهك فأنزل الله « لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد » ثم مكثوا مدة وقالوا تعبد آلهتنا يوماً أو شهراً أَوْ حَوْلاً ، ونعبد إلهك يوما أو شهرا أو حولا فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَاعَبَدْتُمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ .

وأما تكرار ﴿ **فَبِأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فإنه عَدَّد فى هذه السورة نَعْماءه ، وأذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ؛ ليفهمهم النعم ويقررهم بها .

ثم يتحدث عن تكرار المعنى بلفظين مختلفين قصدا إلى إشباع المعنى وتوكيده كما فى قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » وهى منها وقد أفردها بالذكر ترغيباً فيها وتشديداً لأمرها .

ثم ينتقل ابن قتيبة إلى الحديث عن ظاهرة الزيادة التى ترد فى آيات القرآن الكريم مؤكدا أنها تأتى لتقوية المعنى وتوكيده ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **يَقُولُون بِأَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِى قُلُوبِهِم** ﴾ لأن الرجل قد يقول بالمجاز : كلمت فلاناً ، وإنما كان ذلك كتاباً أو إشارة على لسان غيره ، فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم[٣] .

وقد جرّه هذا الحديث إلى تناول زيادة بعض الحروف مثل : لا ، وألا ، والباء ، ومن ، واللام ، والكاف ... إلخ .

ويعنينا أن نوضح أن القول بزيادة هذه الحروف فى بعض الآيات ليس معناه أنها قد جاءت لغوا لا فائدة وراءها إذ إن المتفق عليه بين العلماء أن زيادة هذه الحروف تعنى أنها لم تستعمل فى معانيها الوضعية التى تعورف عليها وإن كانت قد أفادت معنى من المعانى الثانوية المهمة التى يعنى بها البلغاء ويقصدون إلى تحقيقها كالعموم وتوكيد العموم . وكنا نود أن يشرح ابن قتيبة هذه المعانى البلاغية ، لكنه لم يفعل إلا نادراً .

وقد قال ابن قتيبة بزيادة لفظ « الوجه » فى قوله تعالى ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ وقد لجأ إلى ذلك خشية القول بالتشبيه وهو بذلك يخالف ما عليه أهل

(٢) السابق ، ص ٢٣٩ .

(٣) السابق ، ص ٢٤١ .

السنة الذين يؤمنون بكل ما ورد فى القرآن الكريم دون نفى أو تأويل .

يقول « ابن قتيبة » :

وأما تكرار الأنباء والقصص ، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوما فى ثلاث وعشرين سنة ، بفرضٍ بعد فرض : تَيسيراً منه على العباد ، وتدريجا لهم إلى كمال دينه ، ووَعْظٍ بعد وعظ : تنبيهاً لهم من سِنَة الغَفْلَة ، وشَحْذاً لقلوبهم بِمُتَجَدِّدِ الموعظة ، وناسخٍ بعد منْسُوخٍ : استِعْبَاداً لهم واختباراً لبصائرهم . يقول الله عز وجل : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا** ﴾[٤] .

الخطاب للنبى ، ﷺ ، والمراد بالتثبيت هو والمؤمنون .

وكان رسول الله ، ﷺ ، يتخَوَّل[٥] أصحابَهُ بالموعظة مخافة السآمة عليهم ، أى يتَعَهَّدهُم بها عند الغفلة ودُثُور[٦] القلوب .

ولو أتاهم القرآن نَجْماً واحداً لسبَقَ حدوث الأسباب التى أنزله الله بها ، ولثقُلَت جُمْلَةُ الفرائض على المسلمين ، وعلى من أراد الدخول فى الدين ، ولبطل معنى التنبيه ، وفسد معنى النسخ ؛ لأن المنسوخ يُعْمَلُ به مدة ثم يُعمل بناسخه بعده .

وكيف يجوز أن يَنزل القرآن فى وقت واحد : افعلوا كذا ولا تفعلوه ؟ .

ولم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كلّه ، ولا أن يختموه فى التعلم ، وإنما أنزله ليعملوا بمُحْكَمِه ، ويؤمنوا بمتشابِهه ، ويأْتَمِروا بأمره ، وينتهوا بزجره : ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة ، ويقرءوا فيها الميسور .

قال « الحسن » : نزل القرآن ليُعْمَلَ به ، فاتخذ الناس تِلاوتَه عَمَلاً .

وكان أصحاب رسول الله ، ﷺ ، ورضى عنهم — وهم مصابيح الأرض

---

(٤) سورة الفرقان / ٣٢ .

(٥) يتخول : يتعهد .

(٦) أصل الدثور : الدروس ، وهو أن تهب الريح على المنزل فتغشى رسومه بالرمل وتغطيها بالتراب فاستعير ذلك للقلوب .

وقادةُ الأنام ومُنْتَهى العلم ــ إنما يقرأ الرَّجلُ منهم السورتين ، والثلاث ، والأربع ، والبعض والشّطر من القرآن ، إلا نفراً منهم وفقهم الله لجمعِه ، وسهّل عليهم حفظه .

قال « أنس بن مالك » : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا . أى جلّ فى عيوننا ، وعظُم فى صدورنا .

قال « الشَّعْبى » : توفى أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، رحمهم الله ، ولم يجمعوا القرآن .

وقال : لم يختمه أحد من الخلفاء غير « عثمان » .

وروى عن شَرِيك ، عن اسماعيل بن أبى خالد أنه قال :

سمعت « الشَّعْبى » يحلف بالله ، عز وجل ، لقد دخل « عَلِىٌّ » حُفْرَتَهُ وما حفظ القرآن[٧] .

* * *

● وكانت وفودُ العرب تردُ على رسول الله ، ﷺ ، فيُقْرِئُهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافيا لهم .

وكان يبعث إلى القبائل المتفرِّقة بالسُّور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مُثَنَّاةً ومكرّرة لَوَقَعَتْ قصَّة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، وقصة لوط إلى قوم .

---

(٧) فى تفسير القرطبى ٥١/١ « قال أبو بكر الأنبارى : والحديث الذى حدثناه إبراهيم بن موسى ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عمر بن هارون الخراسانى ، عن ربيعة بن عثمان ، عن محمد بن كعب القرظى ، قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله ، ﷺ ، حى : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ــ حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب ، فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعول عليه » . قلت وقوله عليه السلام « خذوا القرآن من أربعة : من ابن أم عبد .. » يدل على صحته . ومما يبين لك ذلك : أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق ، كل منهم عزا قراءته التى اختارها ، إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله ، ﷺ ، لم يستثن من جملة القرآن شيئاً : فأسند « عاصم » قراءته إلى « على وابن مسعود » وأسند « ابن كثير » قراءته إلى « أُبى » وكذلك « أبو عمرو بن العلاء » أسند قراءته إلى « أبى » وأما عبد الله بن عامر ، فإنه أسند قراءته إلى « عثمان » وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله ، ﷺ ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ، ورجالها ثقات . قاله الخطابى » .

فأراد الله ، بلطفه ورحمته ، أن يشهر هذه القصص فى أطراف الأرض ويُلْقِيهَا فى كل سمعٍ ، ويثبتها فى كل قلب ، ويزيد الحاضرين فى الإفهام والتحذير .

● وليست القصص كالفروض ؛ لأنَّ كُتبَ رسول الله ، ﷺ ، كانت تُنْفَذُ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة ، وعددها وأوقاتها ، والزّكاة وسنتها ، وصوم شهر رمضان ، وحجّ البيت . وهذا مالا تُعرف كيفيته من الكتاب ، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء . وكان هذا فى صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين ، فلما نشره الله عز وجل فى كل قطر ، وبثّه فى آفاق الأرض ، وعلم الأكابر الأصاغر ، وجُمِع القرآن بين الدِّفَّتيْن : زال هذا المعنى ، واجتمعت الأنباء فى كل مصر وعند كل قوم .

* * *

● **وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضُه يجزىء عن بعض** ، كتكراره فى : ﴿ **قُلْ يا أَيُّهَا الكافِرُونَ** ﴾وفى سورة الرحمن بقوله : ﴿ **فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فقد أعْلَمْتُك أنَّ القرآن نزل بلسان القوم ، وعلى مذاهبهم . ومن مذاهبهم التكرار : إرادةَ التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار : إرادة التخفيف والإيجاز ؛ لأن افتنان المتكلم والخطيب فى الفنون ، وخروجَه عن شىء إلى شىء أحسن من اقتصاره فى المقام على فنّ واحد .

وقد يقول القائل فى كلامه : والله لا أفعله ، ثم والله لا أفعله . إذا أراد التوكيد وحَسْمَ الأطماع مِنْ أنْ يَفعله . كما يقول : والله أفعله ، بإضمار « لا » إذا أراد الاختصار .

قال الله عز وجل : ﴿ **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾[8] .

وقال : ﴿ **فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً** ﴾[9] .

وقال : ﴿ **أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى** ﴾[10] .

---

(٨) سورة التكاثر / ٣ — ٤ .

(٩) سورة الانشراح / ٥ — ٦ .

(١٠) سورة القيامة / ٣٤ — ٣٥ .

وقال : ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ** ﴾[11] كُلّ هذا يراد به التأكيد للمعنى الذى كُرِّر به اللفظ .

وقد يقول القائل للرجل : اعْجَل اعجل ، وللرامى : ارمِ ارم .

وقال « الشاعر » :

* كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لكم كَمْ كَمْ وَكَمْ *

وقال « الآخر » :

هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْدَةَ
يَوْمَ وَلَّوا أَيْنَ أَيْنَا

وقال « عَوْف بن الخَرِع » :

وكَادَتْ فَزَارَةُ تَصْلَى بِنَا
فَأَوْلَى فَزَارَةُ أَوْلَى فَزَارَ

* * *

● **وربما جاءت الصفَة فأرادوا توكيدها ، واستوحشُوا من إعادتها ثانية لأنها كلمةٌ واحدةٌ ، فغيَّرُوا منها حرفاً ، ثم أتبعوها الأولى .**

كقولهم : « عَطْشَانُ نَطْشَان » كرهُوا أن يقولوا : عَطْشان عطشان ، فأبدلوا من العين نوناً .

وكذلك قولهم : « حَسَنٌ بَسَنٌ » كرهوا أن يقولوا : حسنٌ حسنٌ ، فأبدلوا من الحاء باء . و « شيطان لَيطان » فى أشباه له كثيرة .

* * *

● ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذى أنزلت فيه : ﴿ **قُلْ يا أَيُّهَا الكافِرونَ** ﴾لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون ، ليعبدوا مايعبد ، وأبدَوْا

---

(١١) سورة الانفطار / ١٧ — ١٨ .

فى ذلك وأعادوا ، فأراد الله ، عزّ وجلّ ، حَسْمَ أطماعهم وإكْذَابَ ظُنُونِهم ، فأَبْدَأَ وَأَعَادَ فى الجواب . وهو معنى قوله : ﴿ **وَدُّوا لو تُدهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾[١٢] أى تلين لهم فى دينك فيلينون فى أديانهم .

● **وفيه وجه آخر** ، وهو : أن القرآن كان ينزل شيئاً بَعْدَ شىء وآيةً بعد آية ، حتى لربما نزل الحرفان والثلاثة .

قال « زيد بن ثابت » : كنت أكتب لرسول الله ، ﷺ : ﴿ **لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالمُجَاهِدُون فِى سَبِيلِ اللهِ** ﴾ . فجاء « عبد الله بن أُمِّ مَكْتُوم »[١٣] فقال : يارسول الله إنى أحب الجهاد فى سبيل الله ، ولكن بى من الضرر ما ترى . قال زيد : فَثَقُلَتْ فَخذُ رسول الله ، ﷺ ، على فخذى حتى خشيت أن تَرُضَّها[١٤] ، ثم قال : اكتُب : ﴿ **لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ** ﴾[١٥] .

وروَى عبد الرَّزّاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ، عن « الحسن » أنه قال فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾[١٦] قال : كان ينزل آيةً وآيتين وآياتٍ ، جواباً لهم عما يسألون وردًّا على النبى ﷺ . وكذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ **وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً** ﴾[١٧] شيئاً بعد شىء .

فكأن المشركين قالوا له : أَسْلِمْ ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك ، فأنزل الله : ﴿ **لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾[١٨] . يريد إن لم تؤمنوا حتى أفعل ذلك . ثم غَبَرُوا[١٩] مُدَّة من المدد وقالوا : تعبد آلهتنا يوماً أو شهراً أو حولا ، ونعبد إلهك يوماً أو شهراً أو حولا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَلاَ أَنَا عَابِدٌ**

---

(١٢) سورة القلم / ٩ .
(١٣) كان عبد الله بن أم مكتوم أعمى .
(١٤) ترضها : تكسرها .
(١٥) سورة النساء / ٩٥ .
(١٦) سورة الفرقان / ٣٢ .
(١٧) سورة الإسراء / ١٠٦ .
(١٨) سورة الكافرون / ٢ — ٣ .
(١٩) غبروا : مكثوا .

مَا عَبَدْتُمْ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ ﴾[20] . على شريطة أن تؤمنوا به فى وقت وتشركوا به فى وقت .

قال أبو محمد :

وهذا تمثيل أردت أن أُريَك به موضع الإمكان .

* * *

● **وأما تكرار** ﴿ **فَبِأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فإنه عدَّد فى هذه السورة نَعْماءَه ، وأَذْكَرَ عبادهُ آلاءَه ، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكْرَ كل خَلَّة وصَفَها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ؛ لِيُفهّمَهم النِّعَم ويُقَرِّرهم بها .

وهذا كقولك للرجل أجل أحسنتَ إليه دهرك وتابعت عنده الأيادى ، وهو فى ذلك يُنكرك ويَكفرك : ألم أُبَوِّئْكَ مَنزلاً وأنت طريد ؟ أفتُنْكِرُ هذا ؟ و : ألم أحملك وأنت راجل ؟ ألم أحج بك وأنت صَرُورَةٌ[21] ؟ أَفَتُنْكِرُ هذا ؟ .

ومثل ذلك تكرارُ ﴿ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟** ﴾[22] فى سورة « اقتربت الساعة » أى : هل من مُعْتَبِرٍ ومتّعظ ؟ .

● **وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين ؛ فلإشْبَاع المعنى والاتساع فى الألفاظ .**

وذلك كقول القائل : آمُرُكَ بالوفاء ، وأَنْهَاكَ عن الغدر . والأَمْرُ بالوفاءِ هو

---

(٢٠) سورة الكافرون / ٤ ــ ٥ . وقد ذكر أن من أسباب نزول السورة أنهم قالوا له عليه الصلاة والسلام دع ما أنت فيه ونحن نموّلك ونزوِّجك من شئت من كرائمنا ونملكُك علينا . وإن لم تفعل هذا فلتعبد آلهتنا ونحن نعبد إلهك حتى نشترك فحيث كان الخير نلناه جميعا . ولما كان أكثر شانئه قريشا وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة أنزل الله تعالى هذه السورة تبرياً منهم وإخباراً لا شك فيه أن ذلك لا يكون .

والتكرار الذى فى السورة إما للتوكيد ، وفائدة هذا التوكيد قطع أطماع الكفار وتحقيق بموافاتهم على الكفر وأنهم لا يسلمون أبداً . وقيل ليس ثمة تكرار فإن كل جملة قد تقيّدت بزمانٍ مغاير . والمعنى : لا أعبد الساعة ماتعبدون ولا أنتم عابدون السنة ما أعبد ، ولا أنا عابد فى المستقبل ماعبدتم ولا أنتم عابدون فى المستقبل ماأعبد . وللسورة تخريجات أخرى . انظر : البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٥٢١ .

(٢١) فى اللسان : « صر » : « ورجل صَرُور وصَرُورة : لم يحج قط » .

(٢٢) سورة القمر / ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ .

النّهىُ عن الغدر . و : آمركم بالتَّواصُل ، وأنهاكم عن التّقاطع . والأمر بالتواصل هو النهى عن التقَاطع .

وكقوله سبحانه : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾[٢٣] . والنخل والرُّمّان من الفاكهة ، فأفردهما عن الجملة التى أدخلهما فيها ؛ لفضلهما وحسن موقعهما .

وقوله سبحانه : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾[٢٤] وهى منها ، فأفْرَدَها بالذِّكر ترغيباً فيها ، وتشديداً لأمْرها ، كما تقول : إيتنى كل يوم ، ويومَ الجمعة خاصَّة .

وقال سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾[٢٥] والنَّجْوى هو السر . وقد يجوز أن يكون أراد بالسرّ : ما أسرُّوه فى أنفسهم ، ر ى : ما تسارُّوا به .

وقال « ذو الرّمة » :

لَمْياءُ فى شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ
وفى اللِّثَاتِ وفى أَنْيَابِها شَنَبُ[٢٦]

واللّعس هو : حُوَّةٌ ، فكرّر لما اختلف اللفظان .

ويمكن أن يكون لما ذكر الحُوَّة ، خشى أن يتوهَّم السامع سَواداً قبيحاً ، فَبَيّن أنه لَعَسٌ ، واللعسُ يُستحسن فى الشِّفاه .

* * *

● **وأما الزيادة فى التوكيد** فكقوله سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾[٢٧] لأن الرجل قد يقول بالمجاز : كلمت فلاناً ، وإنما كان ذلك كِتاباً أو إشارة على لسان غيره ، فأَعْلَمَنا أنهم يقولون بألسنتهم .

---

(٢٣) سورة الرحمن / ٦٨ .

(٢٤) سورة البقرة / ٢٣٨ .

(٢٥) سورة الزخرف / ٨٠ .

(٢٦) اللمى : سُمْرة الشفتين . واللِّثاتِ يُسْتَحْسَن . والحُوَّة : سواد إلى الخضرة ، وقيل حمرة تضرب إلى السواد . والشنب : رقة وبَرْد وُعذوبة فى الأسْنان .

(٢٧) سورة آل عمران / ١٦٧ .

وكذلك قوله : ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾[٢٨] لأن الرجل قد يكتب بالمجاز ، وغيرُه الكاتب عنه .

ويقول الأمّى : كتبتُ إليك ، وهذا كتابى إليك . وكلُّ فعلٍ أَمَرْتَ به فأنتَ الفاعلُ له ، وإنْ وَلِيَهُ غيرُك . قال الله عز وجل : فى التّابوتِ : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ ﴾[٢٩] .

قال « ابن عباس » رضى الله عنه فى رواية أبى صالح عنه : هذا كما تقول : حَمَلْتُ إلى بلد كذا وكذا بُرًّا وقمْحاً ، وإنما تريد أمَرْتُ بحمله .

فأعلمنا أنهم يكتبونه بأيديهم ويقولون : هو من عند الله . وقد علموا يقيناً — إذ كتبوه بأيديهم — أنه ليس من عند الله .

وقال تعالى : ﴿ فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴾[٣٠] لأن فى اليمين القُوّةَ وشدَّة البطش ، فأخبرنا عن شدة ضَرْبه بها .

وقال « الشَّمَّاخ » :

إذا مَا رَايــةٌ رُفِـعَتْ لِمَجْــدٍ
تَلَقَّاهَــا عَرَابَـــةُ باليَمِيــــنِ

أى أخذها بقوة ونشاط .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[٣١] كما تقول : رأْىُ عينى وسمعُ أذنى .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾[٣٢] . كما تقول : نفسى التى بين جنْبَىَّ .

---

(٢٨) سورة البقرة / ٧٩ .

(٢٩) سورة البقرة / ٢٤٨ .

(٣٠) سورة الصافات / ٩٣ .

(٣١) سورة الأنعام / ٣٨ .

(٣٢) سورة الحج / ٤٦ . التعبير بقوله « التى فى الصدور » يؤكد أن العمى قد أصاب القلوب حقيقة . انظر المثل السائر لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٠٠ .

وقال : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فى الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[٣٣] .

أراد توكيد ما أوجبه عليه من الصيام بجمع العددين وذِكرهِ مُجْمَلاً ، كما قال « الشاعر » :

ثَـلاثٌ وَاثْنَتَـانِ فَهُـنَّ خَـمْسٌ
وسَادِسَةٌ تَميـلُ إلى شَمَـامِ[٣٤]

* * *

● **وقد تزاد « لا » فى الكلام والمعنى : طَرْحُهَا لإباءٍ فى الكلام أو جَحْدٍ[٣٥] .**

كقول الله عز وجل : ﴿ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[٣٦] . أى ما منعك أن تسجد . فزاد فى الكلام « لا » لأنه لم يسجد .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[٣٧] . يريد وما يشعركم أنها إذا جَاءَتْ يؤمنون ، فزاد « لا » لأنهم لا يؤمنون إذا جاءت .

ومن قرأها بكسر إنَّ ، فإنه يجعل الكلام تاماً عند قوله : ﴿ وَمَايُشْعِرُكُم ﴾ ثم يبتدىء فيقول : ﴿ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(٣٣) سورة البقرة / ١٩٦ .

(٣٤) شَمَام : اسم جبل بالعالية .

(٣٥) الجحد : النفى .

(٣٦) سورة الأعراف / ١٢ . ويقول الزمخشرى (م ٢ ، ص ٥٤) : « لا » فى « أن لا تسجد » صلة بدليل قوله : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » ، ومثلها « لئلا يعلم أهل الكتاب » بمعنى ليعلم . فإن قلت : ما فائدة زيادتها قلت توكيد معنى الفعل الذى تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل ليتحقق علم أهل الكتاب وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك (إذ أمرتك) لأن أمرى لك بالسجود أوجبه عليك إيجابا .

(٣٧) سورة الأنعام / ١٠٩ . والزمخشرى يقدر هنا « بها » متعلقا بـ « يؤمنون » ويشرح الآية بقوله : « يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون ذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون فى إيمانهم إذا جاءت تلك الآية » راجع الكشاف (م ٢ ، ص ٣٤) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعونَ ﴾[٣٨] . يريد أنهم يَرْجِعُون ، فزاد « لا » : لأنهم لا يرجعون .

وقوله سبحانه : ﴿ لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾[٣٩] . يريد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون ، فزاد « لا » فى أول الكلام ؛ لأن فى آخر الكلام جَحْداً .

وكذلك قول « أبى النجم » :

* فمَا أَلُومُ البِيضَ أَلَّا تَسْخَرَا *

أى أن تسخرا ، فزاد « لا » فى آخر الكلام ؛ للجحد فى أوله .

وقول « العَجَّاج » :

* فى بِئْرِ لا حُورٍ سَرَى ومَا شَعَرْ[٤٠] *

فزاد « لا » فى أول الكلام ؛ لأن فى آخره جَحْداً .

* * *

● **وأما زيادة « لا » فى قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بيَوْمِ القِيَامَةِ ، وَلاَ أُقْسِم بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ ﴾[٤١] .**

وقوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالشَّفَقِ واللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾[٤٢] . و : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا

---

(٣٨) سورة الأنبياء / ٩٥ .

(٣٩) سورة الحديد / ٢٩ .

(٤٠) فى اللسان : « حور » : « الحور : الرجوع عن الشىء ، وإلى الشىء حار إلى الشىء ، وعنه حَوْرا ومحارا ومحارة وَحُؤوراً : رجع عنه وإليه . وقول العجاج : فى بئر لا حور سرى وما شعر . أراد فى بئر لا حُؤُور فاسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها . قال الأزهرى : « ولا » صلة فى قوله . وقال الفراء : « لا » قائمة فى هذا البيت صحيحة أراد فى بئر ماء لا يحير عليه شيئا .

(٤١) سورة القيامة / ١ ــ ٢ .

(٤٢) سورة الانشقاق / ١٦ ــ ١٧ .

الْبَلَدِ ﴾[٤٣] : فإنها زيدت فى الكلام على نيّة الرّدّ على المكذبين ، كما تقول فى الكلام : لا والله ماذاك كما تقول . ولو قلتَ : والله ماذاك كما تقول ، لكان جائزا ، غير أن إدخالَكَ « لا » فى الكلام أوّلا ، أبْلغُ فى الرّدِّ .

وكان « بعض النحويين »[٤٤] يجعلها صلة . ولو جاز هذا لم يكن بين خبرٍ فيه الجَحْد ، وخبرٍ فيه الإقرار — فَرْقٌ .

* * *

● و « أَلاَ » تُزَادُ فى الكلام للتنبيه .

كقوله : ﴿ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾[٤٥] و : ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾[٤٦] .

وقال الشاعر :

أَلاَ أَيُّهٰذَ الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الوَغَى
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ : هَل أَنْتَ مُخْلِدِى[٤٧]

أراد أيُّها الزاجرى أن أحضر الوغى فزاد « ألا » وحذف « أنْ » .

* * *

● والباء تُزاد فى الكلام ، والمعنى إلقاؤها .

كقوله سبحانه : ﴿ تَنْبُتُ بالدُّهْنِ ﴾[٤٨] .

---

(٤٣) سورة البلد / ١ .

(٤٤) يذهب بعض العلماء إلى أن « لا » فى هذا الموقع وما يشبهه زائدة للتوكيد . وبعضهم يرى أنها نافية لكلام محذوف ، قال بهذا سعيد بن جبير وبعض النحاة . واختار أبو حيان أن اللام قد أشبعت فتحتها فطالت فتولدت منها ألف . راجع هذه الآراء فى « البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ ، ص ٢١٣ .

(٤٥) سورة هود / ٥ .

(٤٦) سورة هود / ٨ .

(٤٧) يريد أن يقول : ألا أيها الإنسان الذى يزجرنى عن حضور الوغى وشهود اللذات هل تخلدنى إن كففت عنها .

(٤٨) سورة المؤمنون / ٢٠

وقوله : ﴿ اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ ﴾[٤٩] أى اسم ربك

و ﴿ عَيْناً يَشْربُ بِهاَ عِبَادُالله ﴾[٥٠] أى يَشْرَبُهَا .

﴿ وَهُزِّى إلَيْك بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾[٥١] أى هُزِّى جذْعَ .

وقال ﴿ فَستُبْصِرُ وَيُبْصرُونَ بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ ﴾[٥٢] أى أيكُم المفتون .

● وواو النسق تُزَاد حتى يكون الكلام كأنه لا جواب له كقوله :

﴿ حتّى إذَا جاءُوها وَفُتِحَت أبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خزَنتُهاَ ﴾[٥٣] . والمعنى : قال لهم خزنتها .

● وقوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ وَأَوْحَيْناَ إلَيْهِ ﴾[٥٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ للْجَبِينِ وَنادَيْناَهُ ﴾[٥٥] .

وكقوله : ﴿ حَتَّى إذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الْحقُّ ﴾[٥٦] .

وقوله : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خطَايَاكُمْ ﴾[٥٧] أى : لنحمل خطاياكم عنكم .

قال « امرؤ القيس » .

فلمّا أَجَزْنا ساحَةَ الحيِّ وَانْتَحَى بِنا
بَطْنُ خَبْتٍ ذِى قِفَافٍ عَقَنْقَلِ[٥٨] .

---

(٤٩) سورة العلق / ١
(٥٠) سورة الإنسان / ٦
(٥١) سورة مريم / ٢٥
(٥٢) سورة القلم / ٥ ، ٦
(٥٣) سورة الزمر / ٧٢
(٥٤) سورة يوسف / ١٥
(٥٥) سورة الصافات / ١٠٣ ، ١٠٤
(٥٦) سورة الأنبياء / ٩٦ ، ٩٧
(٥٧) سورة العنكبوت / ١٢
(٥٨) أجزنا : قطعنا . والخبت : الخفى المطمئن من الأرض
قفاف جمع « قف » وهو ما غلظ من الأرض وارتفع . والعقنقل : الرمل المتعقد المتبلد .

أراد انتحى .

وقال « آخر » :

حتَّـــى إذا قَمِـــلَتْ بُطُونُكُـــمُ
وَرَأَيْتُـــمُ أَبْنَاءَكُـــمْ شَبُّـــوا[٥٩]
وقلبتُـــم ظهْـــرَ المِجَـــنِّ لَنـــاَ
إن اللئيـــمَ العاجـــزُ الْـــخَبُّ

أراد : قلبتم .

* * *

● **ومما يُزاد فى الكلام : « الوَجْهُ »** ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الذينَ يَدْعُونَ رَبَّهمْ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾[٦٠] . أى : يريدونه بالدعاء .

و ﴿ **كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾[٦١] . أى : إلا هو .

و ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾[٦٢] . أى : فَثَمَّ الله .

و ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ**﴾[٦٣] . أى : لله[٦٤] .

---

(٥٩) قملت بطونكم : كثرت قبائلكم . المجن : التُّرس لأنه يستر حامله ، من عُدَّة الحرب . والخَبُّ : الخَدَّاع .

(٦٠) سورة الأنعام / ٥٢

(٦١) سورة القصص / ٨٨

(٦٢) سورة البقرة / ١١٥

(٦٣) سورة الإنسان / ٩

(٦٤) من الواضح أن « ابن قتيبة » قد قال بزيادة لفظ « الوجه » فى هذه الآيات ليتحاشى التشبيه . وهذا مخالف لما عليه أهل السنة من الإيمان بكل ما جاء به القرآن الكريم دون نفى أو تأويل .

باب الكناية والتعريض

يبدأ ابن قتيبة هذا الباب بالحديث عن « الكُنْيَة » وهى كل اسم صدر بأب أو أم كأبى بكر وأم هانىء وقد شرح المقاصد التى يهدف إليها المتكلم حين يستعملها فقال : « فمنها أن تكنى عن اسم الرجل بالأبوة لتزيد فى الدلالة عليه إذا أنت راسلته أو كتبت إليه ، أذا كانت الأسماء تتفق أو لتعظمه فى المخاطبة بالكنيه ، لأنها تدل على الحنكة وتخبر عن الاكتهال » ويجيب ابن قتيبة عن قول القائلين : إذا كانت الكنية للتعظيم فَلِمَ كنى الله أبا لهب ، وهو عدوه . وسمى محمداً وهو نبيه ؟! .. فيقول : « وربما كان للرجل الاسم والكنية فغلبت الكنية على الاسم ، فلم يعرف إلا بها كأبى سفيان ، وأبى طالب ، وأبى ذر وأبى هريرة » .

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن الكناية بمعنى الإشارة إلى المعنى من طرف خفى وهو يعتبرها الطف وأحسن من الكشف والتصريح ، وقد خلط بينها وبين التعريض رغم أن البلاغيين يفرقون بينهما .

ومن الآيات التى توقف عندها شارحا الصورة الكنائية فيها : قوله تعالى : **﴿ يَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُوُل يَا لَيْتنَى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ، يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذَ فُلاَناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضلَّنى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى ﴾** وقد ذكر ابن قتيبة بعض الآراء المضطربة التى تذهب فى تفسير الآية تفسيراً معوجاً ، ويعلق عليها بقوله « فأما هؤلاء » ففى قولهم ما أنبأ عن نفسه ودَلَّ على جَهْلِ مُتَأَوِّله » .

والحق أنه رغم أن الآية قد نزلت فى رجلين هما عقبة بن ابى معيط وأُبى ابن خلف فإن الله أراد « بفلان » كل من أطيع بمعصية الله ، وأرضى بإسْخاط الله إلى يوم القيامة .

ومن الصور الكنائية فى القرآن أيضا : « **إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ** » فقد كنى الله عن النساء بالنعاج .

ومن أمثلة التعريض قوله تعالى : ﴿ **وإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ** ﴾ والمعنى إنا لضالون أو مهتدون ، وإنكم أيضا لضالون أو مهتدون . وهو جَلَّ وعزَّ يعلم أن رسوله المهتدى وأن مخالفه الضال .

ثم يختم المؤلف بابه عن الكناية بالوقوف عند الآية الكريمة : ﴿ **فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ ومن الواضح أن ظاهر الآية يفيد نسبة الشك إلى النبى ـــ ﷺ ، لذا أخذ ابن قتيبة فى تأويلها وبيان أسرار التعبير فيها .

يقول « **ابن قتيبة** » :

الكناية أنواع ، ولها مواضع :

فمنها أن تَكْنِى عن اسم الرجل بالأُبُوَّةِ ، لتزيد فى الدلالة عليه إذا أنت رَاسَلته أو كتبت إليه ، إذ كانت الأسماء قد تتَّفق .

أو لتعظِّمه فى المخاطبة بالكُنية ، لأنها تدلّ على الْحُنكة[1] وتخْبَر عن الاكْتِهَال[2] .

* * *

وقد ذهب هؤلاء إلى أنَّ الكنية كَذِب مالم يكن الولَدُ مُسَمَّى بالاسم الذى كُنِىَ به عن الأب ، وتقع للرجل بعد الولادة .

(١) الحُنكة : السن والتجربة والبصر بالأمور .

(٢) اكتهل الرجل : صار كَهْلاً والكهل : الرجل الذى وَخطه الشيب .

وقالوا : إن كانت الكناية للتعظيم فما باله كَنَى أبا لهب[3] وهو عدوّه وسمّى محمداً ، ﷺ ، وهو وَليُّه وَنبيُّه ؟ .

والجواب عن هذا : أن العرب كانت ربمّا جعلت اسم الرجل كُنْيَته ، فكانت الكُنية هى الاسم .

قال « أبو محمد » .

خبرنى غير واحد عن الأصمعى : أن أبا عمرو بن العلاء ، وأبا سفيان بن العلاء أسماؤهما كناهما .

● وربما كان للرجل الاسم والكنية ، فغلبت الكنية على الاسم ، فلم يعرف إلا بها ، كأبى سفيان[4] ، وأبى طالب[5] ، وأبى ذر[6] ، وأبى هريرة[7] .

ولذلك كانوا يكتبون : « على بن أبو طالب » و « معاوية بن أبو سفيان » ، لأن الكنية بكمالها صارت اسما ، وحظُّ كلِّ حرف الرفعُ مالم ينصبه أو يجرّه حرف من الأدوات أو الأفعال . فكأنه حين كُنِّى قيل : أبو طالب ، ثم تُرِك ذلك كهيئته ، وجُعل الاسمان واحداً .

وقد رُوى فى « الحديث » أن اسم أبى لهب عبد العزّى ، فإن كان هذا صحيحاً فكيف يذكره رسول الله بهذا الاسم ، وفيه معنى الشرك والكذب ، لأن الناس جميعاً عَبيدُ الله ؟ .

* * *

وقال « المفسرون » فى قول الله عز وجل : **﴿ هُوَ الذِى خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحدَةٍ وَجعَلَ مِنهاَ زَوْجَهاَلِيسْكُنَ إلَيْهَا فَلَمَّا تَغشَّاهاَ حَمَلتْ حَمْلاً خفيفاً فَمَرَّتْ**

---

(٣) اسمه « عبد العزى » : المعارف : ١٢٥ .

(٤) اسمه « صخر بن حرب » (المعارف / ٣٤٤) .

(٥) اسمه عبد مناف (المعارف : ٢٠٣) .

(٦) اسمه جندب بن السكن أو بر بن جناده ، أو جندب بن جنادة (انظر المعارف / ٢٥٢) .

(٧) اسمه عبد الله ، أو عبد عمرو بن عبد غنم ويقال : عبد شمس ، ويقال : عمير بن عامر .

بِهِ ، **فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُماَ لَئِنِ آتَيْتَنَا صَالحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكرِين ﴾**[8] : إن « حوّاء » لما أثقلَتْ أتاها « إبليس » فى صورة رجل فقال لها : ما هذا الذى فى بطنك ؟ وذلك أول حملها ، فقالت : ما أدرى ، فقال لها : أرأيت إن دعوت ربى فولدتِه إنساناً أتُسَمِّينَه بى ؟ فقالت : نعم . وقالت « هى » و « آدم » : **﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صاَلحاً لنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين ﴾** أى : لئن خلقَته بشراً مثلنا و لم تجعله بهيمةً . فلما ولدته أتاها « إبليس » ليسألها الوفاء ، فقالت : ما اسمك ؟ قال : « الحارث » فتسمى بغير اسمه ، ولو تسمى باسمه لعرفته ، فسمته « عبد الحارث » فعاش أياما ثم مات ، فقال الله تعالى : **﴿ فَلَمَّا آتاَهُماَ صاَلحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيما آتَاهُما ﴾**[9] ، وإنما جعلا له الشرك بالتسمية لا بالنية والعَقْد ، وانتهى الكلام فى قصة آدم وحواء ، ثم ذكر مَنْ أشرك به بالعقد والنية من ذرّيتهما ، فقال : **﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾** ولو كان أراد « آدم » و « حواء » لقال : عما يشركان . فهذا يدلُّك على العموم .

وإن كان اسم أبى لهب كنيته فإنما ذكره بما لاُ يعَرف إلا به ، والاسم والكنية عَلَمان يُميِّزان بين الأعيان والأشخاص ، ولا يقعان لعِلة فى المسمى كما تقع الأوصاف ، فبأىِّ شىء عُرِف الرجل ، جاز أن تَذْكُره به غير أن تكذب فى ذلك .

ولو كان من دعا أبا القاسم بأبى القاسم ولا قاسم له ، كان كاذباً — لكان من دعا المُسمى بكلب وقردٍ وغُراب وذُباب — كاذباً ، لأنه ليس كما ذكر .

* * *

● **وقد طعنت « الشّعُوبية »**[10] على العرب بأمثال هذه الأسماء ونسبوهم إلى سوء الاختيار ، وجهلوا معانِيَهم فيها .

وكان القوم يتفاءلون ويتطيرون ، فمن تسمى بالأسماء الحُسْنى أراد أن يَكثر له الفأل بالحسن ، ومن تسمَّى بقبيح الأسماء أراد صرفَ الشرّ عن نفسه .

---

(٨) سورة الأعراف / ١٨٩ .

(٩) سورة الأعراف / ١٩٠ .

(١٠) الشعوبية : نزعة ظهرت فى العصر العباسى تنكر تفضيل العرب على غيرهم وتحاول الحط منهم .

وذلك أن العرب كانت إذا خرجت لِلمَغَآرِ[11] قالوا : إلى من نقصد ؟ فتطيروا من كلب وجُعَل وقرد ونمر وأسد ، وقالوا : ميلوا بنا إلى بنى سعد و [إلى] غَنْمٍ[12] وما أشبه ذلك .

* * *

● **ومن الكناية** قول الله عز وجل : ﴿ **يَاوَيْلَتَى لَيْتَنى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خليلاً** ﴾[13] .

ذهب « هؤلاء وفريق من المُتَسَمّين بالمسلمين » إلى أنه رجل بعينه .

وقالوا : لم كنى عنه ؟ وإنما يَكنِى هذه الكنايةَ من يخافُ المُبادَاة ، ويحتاج إلى المُداجاة .

● وقال آخرون : بل كان هذا الرجل مُسَمًّى فى هذا الموضع ، فغيِّر وكُنى عنه . وذهبوا إلى أنه « عمر » ، وتأوَّلوا الآية فقالوا : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يدَيه** ﴾ . يعنى « أبا بكر » رضى الله عنه .

﴿ **يَقُولُ يالَيْتَنى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** ﴾ . يعنى « محمداً » ﷺ .

﴿ **يا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خلِيلاً** » يعنى « عمر » رضى الله عنه .

﴿ **لَقَدْ أَضَلَّنى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى** ﴾ يعنى « علياً » .

● **قال « أبو محمد »** .

ونقول فى الرد على « أولئك » إذ كان غلطهم من وجهة قد يَغلُط فى مثلها من رَقّ علمه . فأما « هؤلاء » ففى قولهم ما أَنْبَأَ عن نفسه ، ودلَّ على جهل مُتأوِّله .

كيف يكون « علىٌّ » رحمة الله عليه ، ذِكْراً ؟

وهل قال أحد : إن « أبا بكر » لم يسلم ، ولم يتخذ بإسلامه مع الرسول سبيلا ؟ .

---

(١١) المغار : موضع الغارة كالمقام موضع الإقامة ، أو هى الإغارة نفسها .

(١٢) بنوغنم : قبيلة من تغلب « اللسان : غنم » .

(١٣) سورة الفرقان / ٢٨ .

وليس هذا التفسير بنكر من تفسيرهم وما يَدَّعُونه من « علم الباطن » كادّعائهم فى « الجِبْتِ » و « الطَّاغُوت » أنهما رجلان .

وأن « الخمر والميسر » رجلان آخران .

وأن « العنكبوت » غير العنكبوت « والنحل » غير النحل . فى أشباهٍ كثيرة من سخفهم وجهالاتهم .

● وقال « ابن عباس » فى تفسير هذه الآية : إن « عُقْبَةَ بن أبى مُعَيْط » صنع طعاماً ودعا أشراف أهل مكة ، فكان رسول الله ، ﷺ فيهم ، فامتنع من أن يطعم أو يَشْهَدَ « عُقْبَةُ » بشَهَادَة الَحقِّ ، ففعل ذلك ، فأتاه « أُبَىّ بن خَلَف » ، وكان خليله ، فقال : صَبَأْتَ ؟ فقال : لا ولكن دخل علىّ رجلٌ من قريش فاستحييت من أن يخرج من منزلى ولم يَطْعَم .

فقال : ما كنت لِأرضى حتى تبصق فى وجهه وتفعل به وتفعل ، ففعل ذلك ، فأنزل الله هذه الآية عامة ، وهذان الرجلان سبب نزولها .

كما أنه كانت الآية ، والآى ، تنزل فى القصة تقع : وهى لجماعة الناس و « المفسرون » على أن هذه الآية نزلت فى هذين الرجلين ، وإنما يختلفون فى ألفاظ القصة .

فأراد الله سبحانه بـ « الظالم » كل ظالم فى العالم ، وأراد بـ « فلان » كل من أُطِيعَ بمعصية الله وأُرْضِىَ بإسخاطَ الله .

ولو نزلت هذه الآية على تقديرهم فقال : ويَوْمَ يَعَضُّ الظالم ــ قارون وهامان ، وعقْبَةُ بن أبى مُعيْط ، وأُبَىُّ بن خَلَف ، وعُتْبَةُ بن ربيعة ، وشَيْبَة بن ربيعة ، والمغيرة ، وفلان وفلان ، الأسماء ــ على أيديهم يقولون : ياليتنا لم نتخذ فرعون ، ونُمْرُود ، وعقبة بن أبى مُعيْط ، وأبا جهل ، والأسود ، وفلانا ، وفلانا بالأسماء ــ لطال هذا وكثر وثقل ، ولم يدخل فيه من تأخّر بعد نزول القرآن من هذا الصِّنف ، وخرج عن مذاهب العرب ، بل عن مذاهب الناس جميعا فى كلامهم .

فكان « فلان » كناية عن جماعة هذه الأسماء .

وقد يقول القائل : ما جاءك إلا فلان بن فلان ، يريد أشراف الناس و « الشاعر » يقول :

* فى لُجَّةٍ أَمْسِكْ فُلاناً عنْ فُلِ *

يريد : أمسك فلانا عن فلان ، ولم يرد رجلين بأعيانهما ، وأنما أراد أنهم فى غمرة الشّر وضجَّته ، فالحَجَزةُ تقولُ لهذا : أمسك ، ولهذا : كُفّ .

و « الظالم » دليل على جماعة الظالمين كقوله : ﴿ وَيَقُول الكافُر يا لَيْتَنِى كُنْتُ تُراباً ﴾ يريد جماعة الكافرين .

* * *

● ومن هذا الباب « التعريض » :

والعرب تستعمله فى كلامها كثيرا ، فتبلغُ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح ، ويعيبون الرجل إذا كان يُكاشف فى كل شىء ويقولون :

* لاَ يُحْسِنُ التَّعرِيَض إلاَّ ثَلْبا[١٤] *

وقد جعله الله فى خطبة النساء فى عدّتهنّ جائزاً فقال : ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ به مِنْ خِطْبَة النِّسَاء أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾[١٥] ولم يجز التصريح .

والتعريض فى الخِطْبة : أن يقول الرجل للمرأة : والله إنك لجميلة ، ولعل الله أن يرزقك بَعْلاً صالحا ، وإن النساء لَمِنْ حاجتى ، هذا وأشباهه من الكلام .

وروَى بعض أصحاب اللغة أن قوما من الأعراب خرجوا يَمْتَارُونَ[١٦] فلما صدرُوا خالف رجل فى بعض الليل إلى عِكْمِ[١٧] صاحبه فأخذ منه بُرًّا وجعله فى عِكْمِهِ ، فلما أراد الرحلة قاما يَتَعَاكَمان فرأى عكْمه يَشُولُ وعكَمَ صاحبه يثقل ، فأنشأ يقول :

عِكْمٌ تَغَشَّى بَعْضَ أَعْكامِ القَـومْ
لَمْ أَرَ عِكْماً سَارِقاً قبـل اليَـومْ

(١٤) الثلب : شدة الّلوْم والأخذ باللسان .

(١٥) سورة البقرة / ٢٣٥ .

(١٦) يمتارون : يجلبون الطعام (كما فى اللسان : مير) .

(١٧) العكم : العدل (نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير) مادام فيه المتاع وجمعه أعكام وعكوم — راجع اللسان : عكم : عدل .

فخوّن صاحبه بوجه هو ألطف من التصريح .

ورُوِى فى بعض الحديث : أن رجلا[١٨] كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، من مَغْزًى كان فيه :

ألا أبلــغ أبـــا حَـــفصٍ رَسُولاً
فِدًى لك ــ من أخى ثقةٍ ــ إزَارِى[١٩]
قلائصَنَـــا هَـــدَاكَ اللهُ إنـــــا
شُغِلْنَـا عنكـمُ زَمَـنَ الــحِصارِ[٢٠]
فمـا قُـلُصٌ وُجِـدْنَ مُعَقَّــلاتٍ
قفـاَ سَلْـعٍ بِمُخْتَلَـفِ النَّجَـــار[٢١]
يُعَقِّلُهُـــنَّ جَعْـــدٌ شَيْظَمِـــىٌّ
وبـئس مُعَقِّـلُ الــذَّوْدِ الظُّـــؤارِ[٢٢]

قال « أبو محمد » :

وقد ذكرتُ الحديث والتفسير وطريقَه فى كتاب « غريب الحديث » وإنما كَنى بالقُلُص ــ وهى : النُّوق الشَّوابُّ ــ عن النساء ، وعرَّضَ برجل يقال له : جَعْدَة كان يخالِفُ إلى المُغَيَّبات من النساء ، ففهم عمر ، رضى الله عنه ما أراد ، وجلد جَعْدَة ونفاه .

---

(١٨) يذكر صاحب اللسان أن هذا الرجل هو نقيلة الأكبر الأشجعى ، وكنيته « أبو المنهال » وكان قد كتب هذه الأبيات لسيدنا عمر رضى الله عنه حينما بلغه أن والى مدينتهم واسمه جعدة بن عبد الله السلمى كان يخرج الجوارى إلى « سلع » (موضع بقرب المدينة) وذلك عندما يخرج أزواجهن إلى الغزو فيعقلهن ويقول لا يمشى فى العقال إلا الحصان « فربما وقعت فتكشفت » . اللسان : أزر .

(١٩) أبو حفص : كنية لعمر رضى الله عنه ــ وقوله : فدى لك من أخى ثقةٍ إزارى أى فداك أهلى ونفسى .

(٢٠) وقلص : جمع قلوص وهى الفتيّة من الإبل وهو يكنى بها عن الفتيات من النساء .

(٢١) ومعقلات : جميع معقلة وهى المشدودة بالعقال . سلع : موضع بقرب المدينة . والنِّجار : الاصل والحسب .

(٢٢) الشيظمى : الطويل الجسيم الفتى من الناس ، والخيل . الذود : القطيع من الإبل . والظؤار : جمع « ظئور » وهى الناقة المعطوفة على غير ولدها .
أراد الشاعر أن يقول إن الوالى يتعرض للنساء ، فكنى بالعقل عن الجماع أى أن أزواجهن يعقلونهن وهو يعقلهن أيضا .
راجع اللسان مواد : (ازر ، قلص ، عقل ، سلع ، نجر ، ذود ، ظأر) .

وقال « عنترة » :

يا شَاةَ ما قَنصٍ لمن حَلَّتْ لـهُ
حَرُمَتْ عليَّ وليْتَهـا لم تَحْـرُمَ

يُعَرِّض بجارية ، يقول : أيُّ صَيْدٍ أنت لمن حَلَّ له أن يَصِيدَكِ ، فأمَّا أنا فإنَّ حُرْمَةَ الْجِوَار قد حَرَّمَتْك عليّ .

* * *

● **وقد جاء فى القرآن التعريض :**

فمن ذلك ما خبّر الله سبحانه من نبأ الخصم ﴿ **إذْ دَخلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ، قَالُوا لا تَخَفْ خصْمانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بالحَقِّ وَلا تُشْطِطْ** ﴾[٢٣] . ثم قال : ﴿ **إنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ** ﴾[٢٤] .

إنما هو مثل ضربه الله سبحانه له ، ونبهه على خطيئته به .

ووَرَّى عن النساء بذكر النِّعاج ، كما كنى الشاعر عن جارية بشاةٍ ، وكنى الآخر عن النساء بالقُلُص .

وروَى الْمِنْهَال عن سعيد بن جُبَيْر ، عن « ابن عباس » فى قول الله سبحانه ، حكاية عن موسى صلى الله عليه : ﴿ **لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ** ﴾[٢٥] : لم ينس ولكنها من مَعاريض الكلامُ .

أراد ابن عباس أنه لم يقل : إنى نسيت فيكون كاذباً ، ولكنه قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، فأوهمه النسيان ، ولم ينس ولم يكذب .

ولهذا قيل : إن فى المعاريض عن الكذب لمَنْدُوحة[٢٦] .

---

(٢٣) سورة ص / ٢٢

(٢٤) سورة ص / ٢٣

(٢٥) سورة الكهف / ٧٣ .

(٢٦) « والمعاريض » التورية بالشيء عن الشيء . وفى المثل ، وهو حديث مُخَرَّجٌ عن عمران بن حصين ، مرفوعاً : إنّ فى المعاريض لمندوحة عن الكذب : أى سعة .

ومنه قول إبراهيم صلى الله عليه : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[٢٧] أى سأسقم ؛ لأن مَنْ كُتِب عليه الموتُ ، فلابد من أن يَسْقم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[٢٨] أى : ستموت ويموتون .

فأوْهَمهم إبراهيم بمعاريض الكلام أنه سقيم عليل ، ولم يكن عليلا سقيما ، ولا كاذباً .

وكذلك ما رُوِى فى الحديث من قوله حين خاف على نفسه وامرأته : « إنها أختى »[٢٩] لأن بنى آدم يرجعون إلى أبوين ؛ فهم إخوة ، ولأن المؤمنين إخوة ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣٠] .

وكذلك قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾[٣١] .

أراد : بل فعله الكبير ، إن كانوا ينطقون فسلوهم ؛ فجعل النطق شرطا للفعل ، أى إن كانوا ينطقون فقد فعله ، وهو لا يعقل ولا ينطق .

وقد رُوِىَ عن النبى ، ﷺ :

« إنَّ إبراهيم كَذَبَ ثلاث كَذَبَات ما منها واحدة إلا وهو يُمَاحِل بها عن الإسلام »[٣٢] .

---

(٢٧) سورة الصافات / ٨٩

(٢٨) سورة الزمر / ٣٠

(٢٩) روى البخارى فى صحيحه ـــ باب قول الله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » عن أبى هريرة ، رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم علي السلام إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن فى ذات الله عز وجل ، قوله : « إنى سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال أختى .. » .

(٣٠) سورة الحجرات / ١٠

(٣١) سورة الأنبياء / ٦٣

(٣٢) روى الترمذى فى سننه « باب ومن سورة بنى إسرائيل » عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ :« أنا سيد ولد آدم ... (ثم يتحدث عن فزع الناس يوم القيامة وتشفعهم بالأنبياء فيأتون إبراهيم فيقول : إنى كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله (ﷺ) : ما منها كذبة إلا مَاحَل بها عن دين الله » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

فسمَّاها كَذَبات ؛ لأنها شَاكَهتْ[٣٣] الكذب وضَارَعَتْه .

ولذلك قال « بعض أهل السلف » لابنه : « يا بنى لا تكذبن ولا تشبهّن بالكذب » . فنهاه عن المعاريض ؛ لئلا يجرى على اعتيادها ، فيتجاوزَها إلى الكذب ، وأحَبَّ أن يكون حاجزاً من الحلال بينه وبين الحرام .

* * *

ومن هذا الباب قول الله عز وجل : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾[٣٤] . والمعنى : إنَّا لضالّون أو مهتدون ، وإنكم أيضاً لضالون أو مهتدون ، وهو جل وعز يعلم أن رسولَهُ المُهْتَدِى وأن مُخَالِفَهُ الضالّ ، وهذا كما نقول للرّجل يُكذبك ويخالفك : إنَّ أحدنا لكاذب . وأنت تَعنيه ، فكذَّبْته من وجهٍ هو أحسن من التصريح ، كذلك قال الفرّاء .

---

(٣٣) فى اللسان « شكه » : « شاكه الشيءُ الشيءَ مشاكهة وشكاهاً : شابهه وشاكله ووافقه وقاربه » .
(٣٤) سورة سبأ / ٢٤ .

باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه

وهو هنا يتحدث عن الأساليب التى ينحو فيها القرآن منحى غير معروف أو مألوف وهى أساليب يحكمها السياق ، والموقف ، وقصد المتكلم . ومن الأساليب التى أشار إليها :

١ ــ الدعاء الذى يراد به الذم ، كقول الله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ وقوله : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ فهذا دعاء عليهم يقصد به ذمهم وتوبيخهم ولا يقصد به الوقوع حقيقة ، وذلك على عكس ما يرى ابن فارس فى « الصاحبى » إذ يرى أنه « دعاء عليهم أراد الله وقوعه بهم فكان كما أراد ؛ لأنهم قتلوا وأهلكوا وقوتلوا ولعنوا ، وما كان الله ليدعو على أحد فتحيد الدعوة عنه . قال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ فدعا عليه ثم قال : ﴿ وَتَبَّ ﴾ ، أى وقد تب وحاق بِهِ التباب » .

٢ ــ الجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون ، اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ أى يجازيهم جزاء الاستهزاء . وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾. وابن قتيبة يكتفى بالتمثيل للأسلوب دون أن يكشف عن الحكمة منه والغاية التى يهدف إليها فتعبير الله تعالى عن الجزاء والعقوبة بالذنب إنما يقصد به ــ والله أعلم ــ إقرار معنى العدل فى القصاص ؛ فالمكر بالمكر والسوء بالسوء ، والسيئة بالسيئة ، ولاشك أن الذهن يقر نتيجة هذه الموازنة والتعادل فتستريح النفس إلى القصاص[١] .

---

(١) محمد زغلول سلام ، أثر القرآن فى تطور النقد العربى ، ص ١٤٦ .

ثم يتحدث ابن قتيبة عن المعانى التى يحتملها أسلوب الاستفهام ، ويذكر فى هذا المجال : التقرير كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ ، والتعجب كما فى قوله تعالى : ﴿ **لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ** ﴾ والتوبيخ كما فى قوله تعالى : ﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ .

كما يتحدث عن المعانى التى يحتملها أسلوب الأمر ويذكر التهديد ، والتأديب والإباحة والوجوب ، ويمثل لكلٍّ بآية أو آيتين دون تعليق أو شرح أو تحليل .

ومن الأساليب التى وقف عندها ابن قتيبة : العام الذى يراد به الخاص كما فى قوله تعالى حكاية عن النبى ﷺ : ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (**الأنعام / ١٦٣**) وحكاية عن نبى الله موسى عليه السلام : ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ولم يُرِدْ كل المسلمين والمؤمنين ؛ لأن الأنبياء قبلهما كانوا مؤمنين ومسلمين وإنما أراد مؤمنى زمانه ومسلميه .

ومن ذلك الجمع الذى يراد به واحد واثنان : والواحد الذى يراد به الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿ **يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** ﴾ .

ومن الأساليب التى أشار إليها : أن يجتمع شيئان ولأحدهما فعل ، فيجعل الفعل لهما . كما فى قوله تعالى : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَم يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** ﴾ والرسل من الإنس دون الجن .

ثم يتحدث عن ظاهرة الالتفات حيث يتحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة أو العكس ، أو يتحول من التعبير بالماضى إلى التعبير بالمستقبل أو العكس ... الخ . فمن الأمثلة التى يتحول فيها الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا** ﴾ . ولم يشأ ابن قتيبة ــ كعادته ــ أن يوضح الحكمة من هذا الالتفات ــ ولكنّ عالماً كابن الأثير يتحدث عن هذا فيقول : « وإنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة وهى أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعى منهم الإنكار عليهم ــ ولو قال : حتى إذا

كنتم فى الفلك جرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها . وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبتْ تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة »[٢] .

ومن الآيات التى عبر فيها عن المستقبل بصيغة الماضى قوله تعالى : ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه** ﴾ أى سيأتى قريباً فلا تستعجلوه . ومن المعروف أن الإخبار عن الفعل المستقبل الذى لم يوجد بعدُ بالماضى أبلغ وأوكد فى تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان وَوُجِد وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التى يستعظم وجودها .

ثم يتحدث ابن قتيبة عن مسائل متفرقة مثل :

أن يجىء المفعول به على لفظ الفاعل كما فى قوله تعالى : ﴿ **فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ** ﴾[٣] . أى مرضىّ بها . وأن يأتى فعيل بمعنى مُفْعِل كقوله تعالى : ﴿ **عذاب أليم** ﴾ أى مؤلم . وأن يأتى الفاعل على لفظ المفعول به كقوله تعالى : ﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾ أى آتيا .

ويجب أن نلفت النظر إلى أن هذه التخريجات التى أوردها ابن قتيبة عن هذه الآيات لا تمثل إلا رأيا واحدا أخذ به ابن قتيبة وتحمس له . ومن يراجع كتب التفسير يجد تخريجات أخرى وآراء مختلفة .

يقول « ابن قتيبة » :

● **ومنه أن يأتى الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير :**

كقوله سبحانه : ﴿ **أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾[٤] ، ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾[٥] ، و ﴿ **مَاذَا أَجَبْتُمُ**

---

(٢) ابن الأثير ، المثل السائر حـ ٢ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) سورة الحاقة / ٢١ ، والقارعة / ٧ .

(٤) سورة المائدة / ١١٦ .

(٥) سورة طه / ١٧ . والمقصود حينئذ أن الله قد علم أن للعصا أمراً قد خفى على موسى عليه السلام فأعلمه من حالها ما يعلمه .

المُرْسَلِينَ ﴾[٦] ، ﴿ **قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمَنِ** ﴾[٧] .

● ومنه أن يأتى على مذهب الاستفهام وهو تعجب :

كقوله : ﴿ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، عَنِ النَّبَأ العَظِيمِ** ﴾[٨] ، كأنه قال : عمَّ يتساءلون يا محمد ؟ ثم قال : عن النبأ العظيم يتساءلون .

وقوله : ﴿ **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ** ﴾ على التعجب ، ثم قال : ﴿ **لِيَوْمِ الفَصْلِ** ﴾[٩] أُجِّلت .

* * *

● **وأن يأتى على مذهب الاستفهام وهو توبيخ :**

كقوله : ﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ** ﴾[١٠] .

* * *

● **ومنه أن يأتى الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد :**

كقوله : ﴿ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** ﴾[١١] .

* * *

● **وأن يأتى على لفظ الأمر وهو تأديب :**

كقوله : ﴿ **وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ** ﴾[١٢] ، ﴿ **وَاهْجُرُوهُنَّ فِى المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ** ﴾[١٣] .

* * *

● **وعلى لفظ الأمر وهو إباحة :**

كقوله : ﴿ **فَكَاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** ﴾[١٤] ، ﴿ **فَإذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ** ﴾[١٥] .

---

(٦) سورة القصص / ٦٥ .

(٧) سورة الأنبياء / ٤٢

(٨) سورة النبأ / ١ ، ٢ .

(٩) سورة المرسلات / ١٢ ، ١٣

(١٠) سورة الشعراء / ١٦٥ .

(١١) سورة فصلت / ٤٠ .

(١٢) سورة الطلاق / ٢ .

(١٣) سورة النساء / ٣٤ .

(١٤) سورة النور / ٣٣ .

(١٥) سورة الجمعة / ١٠ .

● **وعلى لفظ الأمر وهو فرض :**

كقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾[16] ، و ﴿ أَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ ، و ﴿ آتُوا الزَّكاةَ ﴾[17] .

* * *

● **ومنه عامٌ يُرادُ به خاص :**

كقوله سبحانه حكاية عن النبى ، ﷺ : ﴿ **وأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ** ﴾[18] وحكاية عن موسى : ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ** ﴾[19] ، ولم يرد كل المسلمين والمؤمنين ، لأن الأنبياء قبلهما كانوا مؤمنين ومسلمين ، وإنما أراد مؤمنى زمانه ومسلميه .

وكقوله سبحانه : ﴿ **إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ** ﴾[20] . ولم يصطفِهم على محمد ﷺ ، ولا أُمَمَهُمْ على أُمَّته ، ألا تراه يقول : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾[21] ، وإنما أراد عالمى أَزْمِنَتِهم .

وكقوله سبحانه : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ : آمَنَّا ، قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا** ﴾[22] ، وإنما قاله فريق من الأعراب .

وقوله : ﴿ **والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُونَ** ﴾[23] ، ولم يرد كل الشعراء .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ** ﴾[24] وإنما قاله « نُعَيْمُ بنُ مسعودٍ » لأصحاب محمد ﷺ ﴿ **إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا لَكُم** ﴾ ، يعنى : أبا سفيان ، وعُيَيْنَة بن حِصْن ، ومالك بن عوف .

وقوله : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[25] ، يريد المؤمنين

---

(١٦) سورة البقرة / ٢٨٢ .

(١٧) سورة البقرة / ٤٣ . وغيرها

(١٨) سورة الأنعام / ١٦٣ .

(١٩) سورة الأعراف / ١٤٣ .

(٢٠) سورة آل عمران / ٣٣ .

(٢١) سورة آل عمران / ١١٠ .

(٢٢) سورة الحجرات / ١٤ .

(٢٣) سورة الشعراء / ٢٢٤ .

(٢٤) سورة آل عمران / ١٧٣ .

(٢٥) سورة الذاريات / ٥٦ .

منهم . يدلك على ذلك قوله فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنّم كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإنْسِ ﴾[٢٦] ، أى خلقنا .

وقوله : ﴿ يا أَيُّهاَ الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾[٢٧] ، يريد النبى ، ﷺ ، وحده .

* * *

● **ومنه جمع يُرَادُ به واحدٌ واثنان :**

كقوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُماَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمؤْمِنِينَ ﴾[٢٨] : واحد واثنان فما فوق .

وقال « قتادة » فى قوله تعالى : ﴿ إنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾[٢٩] ـــ كان رجل من القوم لا يمالئهم[٣٠] على أقاويلهم فى النبى ، ﷺ ، ويسيرمُجانِباً لهم ، فسماه الله طائفة وهو واحد .

وكان « قتادة » يقول فى قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾[٣١] : هو رجل واحد ناداه : يا محمد ، إنّ مَدْحِى زَيْنٌ ، وإنّ شتمى شَيْنٌ . فخرج إليه النبى ، ﷺ ، فقال : « ويلك ، ذاك الله جل وعز » ونزلت الآية :

وقوله سبحانه : ﴿ فَإنْ كَانَ لَهُ إخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾[٣٢] ، أى أخوان فصاعداً .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾[٣٣] ، جاء فى التفسير : أنهما لوحان .

وقوله : ﴿ إنْ تَتُوبَا إلى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾[٣٤] ، وهما قلبان .

---

(٢٦) سورة الأعراف / ١٧٩ .

(٢٧) سورة المؤمنون / ٥١

(٢٨) سورة النور / ٢ .

(٢٩) سورة التوبة/ ٦٦

(٣٠) فى اللسان « ملأ » : تمالئوا عليه : اجتمعوا عليه .

(٣١) سورة الحجرات / ٤ .

(٣٢) سورة النساء / ١١ .

(٣٣) سورة الأعراف / ١٥٠ .

(٣٤) سورة التحريم / ٤ .

وقوله : ﴿ **أُولَئِكَ مُبَرَّءُون مِمَّا يَقُولُون** ﴾[٣٥] ، يعنى عائشة وصَفْوَان ابن المُعَطَّل .

وقال : ﴿ **بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُون** ﴾ ، وهو واحد ، يدلك على ذلك قوله : ﴿ **ارْجِعْ إلَيْهِمْ** ﴾[٣٦] .

* * *

● **ومنه واحد يراد به جميع :**

كقوله : ﴿ **هَؤُلَاءِ ضَيْفِى فَلاَ تَفْضَحُونِ** ﴾[٣٧] ، وقوله : ﴿ **إِنَّا رَسولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[٣٨] . وقوله : ﴿ **نُخْرِجُكُم طِفْلاً** ﴾[٣٩] .

وقوله : ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه** ﴾[٤٠] والتفريق لا يكون إلا بين اثنين فصاعداً .

وقوله : ﴿ **فماَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِين** ﴾[٤١] .

والعرب تقول : فلان كثير الدرهم والدينار ، يريدون الدراهم والدنانير .

وقال « الشاعر » :

هُمُ المَوْلَى وإن جَنَفُوا عَلينـا
وَإنّـا مِـنْ لِقَائِهِـمُ لَـزُورُ[٤٢]

وقال الله عز وجل : ﴿ **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ** ﴾[٤٣] ، أى الأعداء ، وقوله : ﴿ **وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً** ﴾[٤٤] ، أى رفقاء .

---

(٣٥) سورة النور / ٢٦ .
(٣٦) سورة النمل / ٣٥ ، ٣٧ .
(٣٧) سورة الحجر / ٦٨ .
(٣٨) سورة الشعراء / ١٦ .
(٣٩) سورة الحج / ٥ .
(٤٠) سورة البقرة / ٢٨٥ .
(٤١) سورة الحاقة / ٤٧ .
(٤٢) المولى ههنا فى موضع الموالى ، أى بنى العم
جنفوا : مالوا وجاروا . (اللسان : جنف) .
(٤٣) سورة المنافقون / ٤
(٤٤) سورة النساء / ٦٩

وقال « الشاعر » :

فقلنا : أَسْلِمُوا إنَّا أخُوكُمْ
وقد بَرِئَت من الإِحَنِ الصُّدُورُ[٤٥]

* * *

● **ومنه أن تصف الجميع صفة الواحد :**

نحو قوله : ﴿ **وإنْ كُنتُمْ جُنُبًا فاطَّهَّرُوا** ﴾[٤٦] . وقوله : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾[٤٧] .

وتقول : قومٌ عَدْل . قال « زهير » :

متى يَشْتَجِرْ قَومٌ يَقُلْ سَرَوَاتُهم : هُمُ بَيْنَنا فَهُم رضاً وهُمُ عَدْلُ[٤٨] .

وقال « الشاعر » :

* إنَّ العواذِلَ لَيسَ لى بأمير *

---

(٤٥) الإحَن : جمع إحْنة : وهى الحقد فى الصدر (اللسان : أحن) .

(٤٦) سورة المائدة / ٦ .

(٤٧) سورة التحريم / ٤ .

(٤٨) اشتجر القوم : تخالفوا . سرواتهم : خيارهم وأشرافهم

ومعنى البيت : أنه إذا اختلف قوم فى أمر رضوا بحكم هؤلاء ، لما عرفوا من عدلهم وصحة حكمهم « أورده المحقق » .

باب تأويل الحروف التى أدعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم

هذا باب الأبواب ، والباب الرئيسى فى الكتاب . أما ما جاء قبله فليس إلا دراسات تمهيدية عنيت ببيان طرق التعبير العربى ، وفنونه ، ونكته ، ومراميه . وقد قصد المؤلف — كما سبق أن أوضحنا — بهذه الدراسة إلى التأكيد على أن القرآن لم يشذ عن هذه الطرق ، أو تلك الأساليب ، بل كان أكثر دقة فى استخدامها والتعامل معها .

وقد بدأ المؤلف هذا الباب بالحديث عن الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور القرآنية ، واختلاف المفسرين فى دلالاتها ومعانيها . وقد عرض فى هذا المقام ثلاثة آراء :

١ — رأى يقول : إنها أسماء للسور « فإذا قال قائل : قرأت (المص) أو قرأت (ص) أو (ن) دلّ بذلك على ما قرأ ، كما تقول : لقيت محمدا وكلمت عبد الله ، فهى تدل بالاسمين على العينين ، وإن كان قد يقع بعضها مثل (حم) و (الم) لعدة سور فإن الفصل قد يقع بأن تقول : حم السجدة ، والم البقرة ، كما يقع الوفاق فى الأسماء فتدل بالإضافات وأسماء الآباء والكنى .

٢ — رأى يقول : إنها أقسام أقسم بها المولى تبارك وتعالى ، « وإنما أقسم الله بحروف المعجم ، لشرفها وفضلها ، ولأنها مبانى كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة ومبانى أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وأصول كلام الأمم ، بها يتعارفون — ويذكرون الله ويوحِّدون » .

٣ ــ رأى يقول : إنها حروف مأخوذة من صفات الله تعالى « يجتمع بها فى المفتح الواحد صفات كثيرة ، كقول « ابن عباس » : فى (كهيعص) : إن (الكاف) من كاف ، و(الهاء) من هادٍ ، و (الياء) من حكيم ، (فالعين) من عليم ، (والصاد) من صادق .

وتشعر أن المؤلف قد أطمأن إلى الرأى الأخير ، فأخذ يثبت أن انتحاء القرآن هذا النحو ليس شيئا غريبا أو شاذاً فى لغة العرب ، فقلما تفعل العرب شيئا فى الكلام المتصل الكثير إلا فعلت مثله فى الحرف الواحد المنقطع .

ثم يتجه المؤلف بعد ذلك إلى النص القرآنى بطريق مباشر حيث يتوقف عند المتشابه أو المشكل من آيات القرآن ، فيستبطن أسرارها ويجلى ما دق من معانيها ، وغمض من أحكامها .

ويلاحظ أنه لم يرتب السور على حسب ترتيبها المعروف فى المصحف بل ذكرها حسبما عنَّ له من مشاكلها . كما أنه لم يعرض لكل سور القرآن وهو لا يستوفى الكلام على مشاكل السورة التى يذكرها ، ولذا يعيد الحديث عنها مرة أو مرات مثلما فعل فى سورة البقرة والأنعام ، وسورة النحل ، والنساء .

ولم ينهج ابن قتيبة عند تعرضه للنصوص القرآنية نهج المفسرين الذين يتابعون بين آيات القرآن الكريم ، فيربطون الآية بما قبلها وبما بعدها ويتحدثون عن أسباب النزول ، وما تضمنته من عظة وإرشاد . بل غلبه الحس اللغوى فكان يكتفى بتقديم شرح عام لمضمون الآية أو الآيات التى يعرض لها . ثم يدلف إلى القضية العقدية أو الفقهية التى تشير إليها ليبين الآراء فيها ، وموقفه منها ، وربما يلمح إلى القراءة الأخرى فى الآية ، وهو إن فعل ذلك فإنما يفعله على استحياء .

... والآن لنتأمل ما يقوله « ابن قتيبة » فى هذا الباب ...

﴿ فى سورة سبأ ﴾

﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** ﴾[1] .

تأويله : أن إبليس لما سأل الله تبارك وتعالى النَّظِرَةَ فأنْظَره قال : لَأُغْوِيَنَّهُمْ وَلأُضِلَنَّهُمْ ولَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ[2] آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَلَأَتَّخِذَنَّ مِنْهُمْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا[3] وليس هو فى وقت هذه المقالة مستيقنًا أنّ ما قدّره الله فيهم يتمّ ، وإنما قاله ظنّا ، فلما اتبعوه وأطاعوه ، صدق ماظنّه عليهم أى فيهم ، ثم قال الله : وما كان تسليطنا إيّاه إلا لنعلم من يؤمن ، أى المؤمنين من الشاكين .

● **وعِلْم الله تعالى نوعان :**

أحدهما علم ما يكون من إيمان المؤمنين ، وكفر الكافرين ، وذنوب العاصين ، وطاعات المطيعين قبل أن تكون .

وهذا علم لاتجب به حجة ولا تقع عليه مَثُوبةٌ ولا عقوبة .

والآخر : علم هذه الأمور ظاهرة موجودة فَيَحِق القَوْلُ ويقع بوقوعها الجزاء .

فأراد جل وعز : ما سلطناه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمنين ظاهراً موجوداً ، وكفر الكافرين ظاهراً موجودًا .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾[4] ، أى يعلم جهاده وصَبْرَه موجوداً يجب له به الثواب .

---

(١) الآية / ٢٠ ، ٢١ من السورة .

(٢) فى اللسان « بتك » : « البتك : قطع الأذن من أصلها . وبتك الأذن أى قطعها شدد للكثرة .

(٣) قال تعالى فى سورة النساء / ١١٧ ــ ١١٩ : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطانا مريداً لعنه الله وقال لأ تخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأ ضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا » .

(٤) سورة آل عمران / ١٤٢ .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[٥] .

تأويله أنّ المشركين قالوا : إن محمداً مجنون وساحر ، وأشباه هذا من خَرْصِهِم[٦] ، فقال الله جل وعز لنبيه ﷺ : قل لهم : اعتبروا أمرى بواحدة ، وهى أن تنصحوا لأنفسكم ، ولا يميل بكم هوًى عن حق ، فتقوموا لله وفى ذاته ، مقامًا يخلو فيه الرجل منكم بصاحبه فيقول له : هُلمَّ فلْنَتَصادَق ، هل رأينا بهذا الرجل جنّة قط أو جربنا عليه كذبا ؟ فهذا موضع قيامهم مثنى .

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيُفكِّر وينظر ويعتبر . فهذا موضع قيامهم فُرَادى . فإنَّ فى ذلك مادلهم على أنه نذير .

وكل من تحير فى أمر قد اشتبه عليه واسْتَبْهم[٧] ، أخرجه من الحيرة فيه : أن يسأل ويناظر ، ثم يُفَكِّر ويعتبر .

﴿ فى سورة يس ﴾

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٨] .

قوله : ﴿ تَجْرِى لمستقرٍّ لَهَا ﴾ أى : إلى مستقرها ، كما تقول : هو يجرى لغايته وإلى غايته .

ومُسْتَقَرُّها : أقصى منازلها فى الغروب ، وذلك لأنها لا تزال تتقدم فى كل ليلة حتى تنتهى إلى أبعد مَغَاربها ثم ترجع ، فذلك مستقرها ؛ لأنها لا تُجَاوزه .

---

(٥) سورة سبأ / ٤٦ ، وفى اللسان مادة . جن : الجنة : الجنون

(٦) خرص يخرص بالضم خرصا وتخرص أى كذب . ورجل خرّاص : كذاب . وفى التنزيل : قتل الخراصون « قال الزجاج : الكذابون » اللسان مادة « خرص » .

(٧) استبهم عليهم الأمر : لم يدروا كيف يأتون له . واستبهم عليه الأمر أى استغلق (اللسان : بهم) .

(٨) سورة يس / ٣٨ — ٤٠ .

وقرأ « بعض السلف » : ﴿ والشَّمْسُ تَجْرِى لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا ﴾[9] والمعنى : أنها لا تقف ، ولا تستقر ، ولكنها جارية أبداً .

وقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاه مَنَازِلَ ﴾ يريد : أنه ينزل كل ليلة منزلا ، ومنازله ثمانية وعشرون منزلا عندهم ، من أول الشهر إلى ثمان وعشرين ليلة منه ثم يَسْتَسِرُّ .

وهذه المنازل هى النجوم التى كانت العرب تنسب إليها الأنواء .

وأسماؤها عندهم الشَّرَطَان والبَطِين ، والثُّرَيَّا ، والدَّبَرَان ، والَهقْعةُ ، والهَنْعَةُ ، والذِّراع ، والنَّثْرَة ، والطَّرْف ، والْجَبْهَة ، والزُّبْرَةُ ، والصَّرْفة ، والعَوَّاء ، والسِّماكُ ، والغَفْر ، والزُّبَانَى ، والإكْلِيل ، والَقلْبُ ، والشَّوْلة ، والنَّعَائِم ، والبَلْدَة ، وسَعْدُ الذَّابِح ، وسَعْدُ بُلَعٍ ، وسَعْدُ السُّعُود ، وسَعْدُ الأَخبِيَة ، وفرغ الدّلو المقَدَّم ، وفَرْغُ الدَّلْو الْمؤَخَّر ، والرِّشا وهو الحوت .

وإذا صار القمر فى آخر منازله دَقَّ حتى يعود كالعُرْجُون القديم وهو العِذْقُ اليابس . والعرجون إذا يبس دَقَّ واسْتَقْوَس حتى صار كالقوس انحناء ، فُشبّه القمر به ليلة ثمانٍ وعشرين .

ثم قال سبحانه : ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ يريد : أنهما يسيران الدّهرَ دَائِبَين ولا يجتمعان ، فَسُلْطان القمر بالليل ، وسلطان الشمس بالنهار ، ولو أدركت الشمسُ القمرَ لذهب ضوؤه ، وبطل سلطانه ، ودخل النهار على الليل .

يقول الله جل وعز حين ذكر يوم القيامة : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾[10] وذلك عند إبطال هذا التدبير ، ونقْض هذا التأليف .

﴿ وَ لَا الَّليْلُ سَابِقُ النَّهارِ ﴾ يقول : هما يتعاقبان ، ولا يَسْبِق أحدُهما الآخر : فيفُوته ويذهب قبل مجىء صاحبه .

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى : يَجرُون ، يعنى الشمس والقمر والنجوم .

---

(٩) هى قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبى رباح وزين العابدين والباقر وابنه الصادق وابن أبى عبلة ـــ راجع البحر المحيط : ٧ / ٣٣٦ .

(١٠) سورة القيامة / ٩ .

﴿ في سورة المرسلات ﴾

﴿ **انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلاَثِ شُعَبٍ . لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ** ﴾[١١] .

هذا يقال فى يوم القيامة للمكذبين ، وذلك أن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق ، وليس عليهم يومئذ لباس ، ولا لهم كِنَانٌ ، فتلْفَحُهم الشمس وَتَسْفَعُهُمْ وتأخذ بأنفاسهم ، ومَدّ ذلك اليوم عليهم وكرّبه ، ثم ينجّى الله برحمته من يشاء إلى ظِل من ظِلّه ، فهناك يقولون : ﴿ **فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** ﴾[١٢] ويقال للمكذبين ﴿ **انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون** ﴾[١٣] من عذاب الله سبحانه وعقابه ، انطلقوا من ذلك إلى ظل من دخان نار جهنم قدْ سطع ثم افترق ثلاث فِرَق ، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب . فيكونون فيه إلى أن يفرغ من الحساب ، كما يكون أولياء الله فى ظل عرشه أو حيث شاء من الظل إلى أن يفرغ من الحساب ، ثم يؤمَر بكل فريق إلى مُسْتَقَرِّهِ من الجنة أو النار .

ثم وصف الظل فقال : ﴿ **لاَ ظَلِيلٍ** ﴾ أى : لاَ يظِلُّكُم من حَرّ هذا اليوم بل يدنيكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس ، ولا يغنى عنكم من اللهب .

وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ **وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ** ﴾[١٤] واليَحْمُوم : الدّخان ، وهو سُرَادِقُ أهل النار فيما ذكر المفسرون .

ثم وصف النار فقال : ﴿ **إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** ﴾ فمن قرأه بتسكين الصاد ، أراد القَصْر من قُصُور مياه الأعراب .

---

(١١) سورة المرسلات / ٢٩ ــ ٣٣ .

(١٢) سورة الطور / ٢٧

(١٣) سورة المرسلات / ٢٩ .

(١٤) سورة الواقعة / ٤٣ ، ٤٤ .

ومن قرأه القَصَر[١٥] شَبَّهه بأعناق النخل ، ويقال : بأصوله إذا قُطع .

ووقع تشبيه الشَّرر بالقصر فى مقاديره ، ثم شَبَّهَهُ فى لونه بالجمالات الصُّفْر وهى السود ، والعرب تسمى السُّود من الإبل صُفْراً ؛ قال الشاعر :

تِلكَ خَيْلِى مِنها وتِـلْكَ رِكابِى
هُـنَّ صُفْـرٌ أولادُهـا كالزَّبِــيبُ

أى : هنّ سود .

وإنما سُميت السُّود من الإبل : صُفْراً ؛ لأنه يَشُوبُ سوادَها شىء من صفرة ، كما قيل لبيض الظباء : أُدْم ؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرَة .

والشّرَرُ إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار ، أَشْبَه شىء بالإبل السّود ؛ لما يشوبُها من الصفرة .

﴿ فى سورة النساء ﴾

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى والْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ ، فَارْزُقُوهم مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا . وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا ، خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[١٦] .

فيه قولان :

أحدهما أن تكون القسمة : الوصية . يقول : إذا حضرها أقرباؤكم الذين لا يرثونكم ، والمساكين ، واليتامى ـــ فاجعلوا لهم فيها حظاً ، وألينوا لهم القول . وليخش من حضر الوصية وهو لو كان له ولد صغار خاف عليهم بعده الضَّيْعَة ـــ أن يأمر الموصى بالإسراف فيما يعطيه اليتامى والمساكين وأقاربه الذين لا يرثون فيكون قد أمَرَه بما لم يكن يفعله لو كان هو الميت . وهو معنى قول « سعيد بن جُبَيْر » و « قَتَادَة » .

---

(١٥)هى قراءة لابن عباس وابن جبير ومجاهد والحسن وابن مقسم . راجع البحر المحيط (٨ / ٤٠٧) .
(١٦) سورة النساء / ٨ ، ٩ .

قال « قتادة » : إذا حضرتَ وصية ميت فَمُرْه بما كنت آمراً به نفسك ، وخِفْ على ورثته ما كنت خائفاً على ضَعَفَةِ أولادك لو تركتهم بعدك .

والقول الآخر : أن تكون القسمة : قسمة الورثة الميراث بعد وفاة الرجل . يقول : فإذا حضرها الأقارب واليتامى والمساكين ، فارْضَخُوا[١٧] لهم وعِدُوهم . ثم استأنف معنى آخر فقال : وليخش من لو ترك ولداً صغاراً خاف عليهم الضَّيْعَة ، فليُحْسن إلى من كَفَله من اليتامى ، وليفعل بهم ما يحب أن يفعل بولده من بعده . وهو معنى قول « ابن عباس » في رواية أبي صالح عنه .

﴿ في سورة النور ﴾

قول الله عز وجل :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن

(١٧) « رضخ له من ماله يرضخ رضخا : أعطاه (اللسان : رضخ)

يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾(١٨)

هذا مثل ضربه الله لقلب المؤمن ، وما أودعه بالإيمان والقرآن من نوره فيه . فبدأ فقال :

﴿ **اللهُ نُورُ السَّموات وَالْأَرْضِ** ﴾ ، أى بنوره يهتدى مَنْ فى السموات والأرض .

ثم قال : ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ** ﴾ ، يعنى فى قلب المؤمن . كذلك قال المُفسِّرون . وكان « أُبَىٌّ » يقرأ : ﴿ الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض مَثَلُ نُورِ المُؤْمِنِ ﴾ ، رَوَى ذلك عُبَيْدُ الله بن موسى ، عن أبى جعفر الرّازى ، عن الربيع بن أَنَس ، عن أبى العَالِية .

﴿ **كَمِشْكَاةٍ** ﴾ ، وهى : الكُوَّة غير النافذة .

﴿ **فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ ، أى سراج . ﴿ **المِصْبَاحُ** ﴾ فى قنديل ، القنديل كأنه من شدة بياضه وَتَلَأْلُئِهِ ، كوكب دُرِّى ، يَتَوَقَّدُ ذلك المصباح بزيت من شجرة

---

(١٨) سورة النور / ٣٥ ــ ٤٠ .

﴿ **لا شَرْقِيَّةٍ** ﴾ ، أى لا بارزة للشمس كلّ النهار ﴿ **وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ لا مُسْتَتِرَة فى الظلّ كلّ النهار . ولكنها شرقية غربية تُصيبُها الشمس فى بعض النهار ، والظل فى بعض النهار . وإذا كان كذلك فهو أنْضَرُ لها ، وأجود لحملها ، وأكثر لِنُزلِهَا ، وأصفى لدُهنها .

﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ** ﴾ يُسْرَج به من شدة صفائه وتم الكلام ثم ابتدأ فقال :

﴿ **نُورٌ عَلَى نُورٍ** ﴾ ، يعنى نُورَ المصباح على نور الزّجاجة والدُّهْن ، ﴿ **يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاء** ﴾ ثم قال :

هذا المصباح ﴿ **فى بُيُوتٍ** ﴾[١٩] ، يعنى المساجد . وذكر أهلها فقال : ﴿ **يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾[٢٠] ، يريد أن القلوب يوم القيامة تعرف أَمْرَهُ يقينًا فَتَتَقَلَّبُ عما كانت عليه من الشك والكفر ، وأن الأبصار يومئذ ترى ما كانت مُغطَّاة عنه فتتقلب عمّا كانت عليه . ونحوه قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾[٢١] .

ثم ضرب مثلا للكافرين ، فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً** ﴾ ، أى كالسراب يحسبه العطشان من البعد ماءً يرويه ﴿ **حَتَّى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** ﴾

كذلك الكافر يحسب ما قدّم من عمله نَافِعَهُ ، حتى إذا جاءَهُ ، أى مات ، لم يجد عمله شيئًا ؛ لأنّ الله ، عزّ وجلّ ، قد أبطله بالكفر ومَحَقَه ، ﴿ **وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ** ﴾ ، أى عند عمله ﴿ **فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ** ﴾[٢٢] .

ثم ضرب مثلا آخر ، فقال : ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** ﴾ يريد : أنه فى حيرة من كُفْرِه كهذه الظلمات .

﴿ **وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا** ﴾ فى قلبه ، ﴿ **فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** ﴾[٢٣] .

---

(١٩) سورة النور / ٣٦ .
(٢٠) سورة النور / ٣٧ .
(٢١) سورة ق / ٢٢ .
(٢٢) سورة النور / ٣٩ .
(٢٣) سورة النور / ٤٠ .

﴿ في سورة سبأ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيد . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيبِ مِنْ مَكانٍ بَعيد . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كانُوا فِى شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾[٢٤] .

كان الحسن — رضى الله عنه — يجعل الفزع يوم القيامة إذا بعثوا من القبور . يقول : ولو ترى يا محمد فزعهم حين لا فَوْتَ ، أى لا مهربَ ولا ملجأ يفُوتُون به ويلجأون إليه . وهذا نحو قوله : ﴿ **فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ** ﴾[٢٥] ؛ أى نادَوْا حين لا مهرب .

﴿ **وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ** ﴾ ، يعنى القبور .

﴿ **وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ** ﴾ ، أى بمحمد ، ﷺ .

﴿ **وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ** ﴾ والتناوش : التناول ، أى كيف لهم بنيل ما يطلبون من الإيمان فى هذا الوقت الذى لا يُقَالُ فيه كافرٌ ولا تقبل توبته ؟ .

وقوله ﴿ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ ، يريدُ بُعْدَ ما بين مكانهم يوم القيامة ، وبين المكان الذى تُتقبّل فيه الأعمال .

﴿ **وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ** ﴾ ، أى بمحمد ، ﷺ . يقول : كيف ينفعهم الإيمان به فى الآخرة وقد كفروا به فى الدنيا ؟

و ﴿ **وَيَقْذِفُونَ بِالغَيْبِ** ﴾ ؛ أى بالظن أن التوبة تنفعهم .

﴿ **مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ** ﴾ ؛ أى بعيد من موضع تَقَبُّل التوبة .

﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ من الإيمان . ﴿ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ** ﴾ ، أى بأشباههم من الأمم الخالية .

* * *

---

(٢٤) سورة سبأ / ٥١ — ٥٤ .

(٢٥) سورة ص / ٣ .

وكان « غير الحسن » يجعل الفزع عند نُزُول بَأْسِ الله من الموت أو غيره ؛ ويعتبره بقوله فى موضع آخر : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ وكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ؛ سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُون** ﴾[٢٦] .

﴿ فى سورة الأنعام ﴾

﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيه اللَّيْلُ رَأَى كَوكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَا أَفَلَ قَالَ لاأُحبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى ، هَذَا أَكْبَرُ ؛ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَومِ إنِّى بَرىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[٢٧] .

كان العصر الذى بَعَثَ الله ، عز وجل ، فيه إبراهيم ، ﷺ ، عصر نُجُوم وكَهَانة ، وإنما أَمَر « نُمْرُوذُ » بقتل الولدان فى السنة التى ولد فيها إبراهيم ، ﷺ ؛ لأن المنجمين والكهَّان قالوا : إنه يولد فى تلك السنة من يدعو إلى غير دينه ، ويَرْغَبُ عن سُنّته .

وكان القوم يعظِّمون النجومَ ، ويقضُون بها على غائب الأمور ، ولذلك نظر « إبراهيم » نظرةً فى النجوم فقال : ﴿ **إنِّى سَقِيمٌ** ﴾ .

وكان القوم يريدون الخروج إلى مَجْمع لهم ، فأرادوه على أن يغدُو معهم ، وأراد كَيْدَ أصنامهم خِلاَفَ مخْرَجهم ؛ فنظر نظرة فى النجوم ، يريد علم النجوم ، أى فى مقياس من مقاييسها ، أو سبب من أسبابها ، ولم ينظر إلى النجوم أنفسها . يدلك على ذلك قوله : ﴿ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ** ﴾ ولم يقل : إلى النجوم . وهذا كما يقال : فلان ينظر فى النجوم ، إذا كان يعرف حسابها ، وفلان ينظر فى الفقه والحساب والنحو .

---

(٢٦) سورة غافر / ٨٤ ــ ٨٥ .

(٢٧) سورة الأنعام / ٧٦ ــ ٧٩ .

وإنما أراد بالنظر فيها : أن يوهمهم أنه يعلم منها ما يعلمون ، ويتعرف فى الأمور من حيث يتعرفون ؛ وذلك أبلغ فى المِحَال ، وألطف فى المكيدة ﴿ **فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ** ﴾[٢٨] أى سَأَسْقَمُ فلا أقدر على الغُدُوِّ معكم . هذا الذى أوهمهم بمعاريض الكلام ، ونيته أنه سَقيم غداً لا محالة ؛ لأن من كانت غايته الموت ومصيره إلى الفناء فسَيَسْقَم . ومثله قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُون** ﴾[٢٩] ولم يكن النبى ، ﷺ ، مَيِّتا فى ذلك الوقت ، وإنما أراد : أنك ستموت وسيموتون .

﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى** ﴾ الزَّهَرَة ﴿ **فَقَالَ هَذَا رَبِّى** ﴾ يريد : أن يستدرجَهم بهذا القول ، ويُعَرِّفَهم خطأهم ، وجهلَهم فى تعظيمهم شأن النجوم ، وقضائهم على الأمور بدلالتها . فأراهم أنه مُعَظِّمٌ ما عظَّموا ، ومُلتمس الهدى من حيث التمسوا . وكلُّ من تابَعَك على هواك وشايعك على أمرك ، كُنت به أوثَق ، وإليه أسكَنَ وَأرْكَنَ . فأَنسوا واطمأنّوا .

﴿ **فَلَمَّا أَفَلَ** ﴾ أراهم النقص الداخِل على النجم بالأُفُول ؛ لأنه ليس ينبغى لإله أن يزول ولا أن يغيب ، فـ ﴿ **قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ** ﴾ واعتبر مثل ذلك فى الشمس والقمر ، حتى تَبين للقوم مأأراد ، من غير جهة العناد والمبادأة بالتَّنقص والعيب .

ثم قال : ﴿ **إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَات** ﴾ وما فيها من نجم وقمر وشمس ﴿ **والْأَرْضَ** ﴾ وما فيها من بحر وجبل وحجر وصنم ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ . ومثل هذا : الحَوارىّ حين ورد على قوم يعبدون « بُدًّا »[٣٠] لهم فأظهر تعظيمه وتَرفِيلَه[٣١] ، وأراهم الاجتهاد فى دينهم ؛ فأكرموه وفضّلوه وائتمنوه ، وصدَرُوا فى كثير من الأمور عن رأيه . إلى أن دَهَمَهم عدوٌّ لهم خافه الملكُ على مملكته ، فشاور الَحوارِىَّ فى أمره ؛ فقال : الرأى أن ندعو إلهنا ـــ يعنى البُدَّ ـــ حتى يكشف ما قد أظلَّنا ؛ فإنا لمثل هذا اليوم كُنّا نُرشّحه .

---

(٢٨) سورة الصافات / ٨٩ .　　(٢٩) سورة الزمر / ٣٠ .

(٣٠) فى اللسان « بدد » : البد : الصنم نفسه الذى يُعْبَد ، لا أصل له فى اللغة . فارسى معرب . والجمع البددة « بكسر الباء وفتح الدال » .

(٣١) فى اللسان « رفل » : « والترفيل : التسويد والتعظيم . ورفلت الرجل إذا عظمته وملكته .

فاستَكَفُوا[٣٢] حوله يتضرَّعون إليه ويَجأرون ، وأمْرُ عدوّهم يستفحل ، وشوكتهُ تشتد يوما بعد يوم . فلما تبين لهم من هذه الجهة أن « بُدَّهم » لا ينفع ولا يدفع ، ولايبصر ولا يسمع ، قال : ههنا إله آخر ، أدعوه فيَستجيب ، وأستَجيرُه فيجير ، فهلموا فلْنَدْعُهُ . فَدَعَوُا الله جميعاً فصرف عنهم ما كانوا يُحاذرون ، وأسلموا .

ومن الناس من يذهب إلى أن « إبراهيم » ﷺ ، كان فى تلك الحال على ضلال وحَيرة .

وكيف يتَوَهَّمُ ذلك على من عصمه الله وطَهَّرَه فى مُسْتقرِّه ومُسْتَوْدَعِه ؟

والله سبحانه يقول : ﴿ **إذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾[٣٣] . أى : لم يشرك به قّط ، كذلك قال المفسرون ، أو من قال منهم .

ويقول فى صدر الآية : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِى إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾[٣٤] ثم قال على أثر ذلك : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ** ﴾ .

فَرُوِىَ : أنه رأى فى الملكوت عبداً على فاحشة فدعا الله عليه ؛ ثم رأى آخر على فاحشة فدعا الله عليه ؛ فقال له الله : « يا إبراهيم اكْفُفْ دعوتك عن عبادى ؛ فإن عبدى بين خلال ثلاث : إما أن أُخرج منه ذرِّية طيّبة ، أو يتوب فأغفر له ، أو النار من ورائه » .

أَفَتُرَى الله أراه الملكوت ليوقن ، فلما أيقن رأى كوكباً فقال : هذا ربى على الحقيقة والاعتقاد ؟

﴿ فى سورة التين ﴾

﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فى أحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أسْفَلَ سافِلِينَ ، إلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهمْ أجْرٌ غَيْرُ مَمنُون فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّين ، ألَيْسَ اللهُ بأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾[٣٥] .

(٣٢) فى اللسان « كف » : « وقال الفراء : استكف القوم حول الشىء أى أحاطوا به ينظرون إليه .

(٣٣) سورة الصافات / ٨٤ .

(٣٤) سورة الأنعام / ٧٥ .

(٣٥) سورة التين / ٤ — ٨ .

يريد : عدّلنا خلقه ، وقوّمناه أحسن تعديل وتقويم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ، والسّافلون : هم الضعفاء والزَّمْنَى والأطفال ، ومن لا يستطيع حيلة ، ولايجد سبيلا . وتقول : سفَل يسفُل فهو سافِل ، وهم سافِلون . كما تقول : عَلا يْعلو فهو عال وهم عالُون . وهو مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُر ﴾ .

وأراد : أنّ الهرم[٣٦] يَخْرَفُ ويُهْتِرُ[٣٧] وينقص خلقُهُ ، ويضعف بصره وسمعه ، وتقلّ حيلته ، ويعجز عن عمل الصالحات ؛ فيكونُ أسفلَ من هؤلاء جميعاً .

﴿ إلّا الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ﴾ فى وقت القُوَّة والقدرة ، فإنَّهم فى حال الكِبَر غيرُ منقوصين ؛ لأنّا نعلم أنا لو لم نسلبهم القدرة والقوَّة لم يكونوا ينقطعون عن عمل الصّالحات ، فنحن نُجْرى لهم أجْرَ ذلك ولا نَمُنهُ ، أى لا نقطعه ولا ننقصه . وهو معنى قول المفسرين . ومثله قوله سبحانه : ﴿ إنَّ الإنْسَانَ لَفِى خُسْر ﴾ ، والخسر : النقصان ﴿ إلّا الَّذينَ آمنوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات ﴾[٣٨] فإنهم غير منقوصين . ونحوه قول رسول الله ، ﷺ :

« يقول الله للكرام الكاتبين : إذا مرض عبدى فاكتبوا له ما كان يعمل فى صحته ، حتى أُعَافِيَهُ أو أَقْبِضَهُ » .

ثم قال : ﴿ فمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أيها الإنسان ﴿ بالدِّين ﴾ أى : بِمُجَازاتى إيَّاك بعملك وأنا أحْكَمُ الحاكمين ؟

﴿ فى سورة والشمس وضحاها ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[٣٩] .

أقسم بالنفس وخلقه لها ثم قال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ، أى : فَهمها

---

(٣٦) الهَرَم : أقصى الكبر .. هَرِم يَهْرَم .. فهو هَرِمٌ .

(٣٧) الهُتْر ــ بضم الهاء ــ ذهاب العقل من كبر أو مرض أو حُزن .

(٣٨) سورة العصر / ٢ ــ ٣ .

(٣٩) سورة الشمس / ٧ ــ ١٠ .

أعمال البر وأعمال الفجور ، حتى عرَف ذلك الجاهلُ والعاقل ، ثم قال : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾ يريد أفلح من زكى نفسه ، أى : أنماها وأعلاها بالطاعة والبرّ والصّدقة واصطناع المعروف .

وأصل التزكية : الزِّيادة ، ومنه يقال : زكا الزرع يزْكو : إذا كثر رَيْعُهُ ، وزكتِ النَّفقة : إذا بُورِك فيها ، ومنه زكاة الرّجل عن ماله ؛ لأنها تُثَمِّرُ مالهَ وتُنَمِّيه . وتَزْكِيَة القاضى للشّاهد منه ؛ لأنه يرفعه بالتَّعْدِيل والذّكر الجميل .

﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾ ، أى : نقصها وأخْفَاها بترك عمل البرّ ، وبركوب المعاصى . والفاجرُ أبداً خَفِيُّ المكان ، زَمِرُ[٤٠] المُرُوءَة ، غامض الشّخص ، ناكِسُ الرأس .

ودَسَّاها : من دَسَّسَت ، فَقُلِبَتْ إحدى السِّينات ياء ، كما يقال : لَبَّيتُ ، والأصل لبَّبتُ ؛ و : قَصَّيْتُ أظفارى ، وأصله قَصَصْت . ومثله كثير .

فكأنّ النَّطِف[٤١] بارتكاب الفواحش دَسّ نفسه وقَمَعَها ، ومُصْطَنِع المعروف شهَر نفسه ورفعها .

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وأَيْفَاعَ[٤٢] الأرض ؛ لتشْهَر أماكنها للمُعْتفِين ، وتُوقِد النِّيران فى الليل للّطارقين :

وكانت اللئام تنزل الأوْلاجَ[٤٣] والأطراف والأهْضام[٤٤] : لتُخفى أماكنها على الّطالبين .

فأولئك أعَلوْا أنفسهم وزكّوْها ، وهؤلاء أخفْوا أنفسهم ودسوها ؛ قال « الشاعر » :

---

(٤٠) يقال : فلان زَمِرُ المروءة أى قليلها .

(٤١) النَّطِف : الرجل المريب . وإنه لَنَطِفٌ بهذا الأمر : أى متهم (اللسان : نطف) .

(٤٢) أيفاع : جمع يافع وهو كل ما ارتفع (اللسان : يفع) .

(٤٣) أولاج : جمع ولجة : موضع أو كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره . (اللسان : ولج) .

(٤٤) الأهضام جمع « هضم » وهو المطمئن من الأرض (اللسان : هضم) .

وبَــوَّأْتَ بَيْــتَكَ فى مَعْلَـــمٍ
رَحِـيبِ المَبَــاءَةِ والْــمَسْرَحِ[٤٥]
كَفَـيْتَ العُفَـاةَ طِـلابَ القِــرَى
ونَبْــحَ الكِــلابِ لِمُسْتَنبِــحِ[٤٦]
تَرَى دَعْسَ آثـَارِ تِـلْكَ المطـىِّ
أَخادِيــدَ كاللَّقَـــمِ الأفْيَـــحِ[٤٧]
ولـو كـنتَ فى نَفَـقٍ زَائــغٍ
لكُـنْت عَلَـى الشَّرَكِ الأَوْضَحِ[٤٨]

ومثل هذا كثير .

﴿ فى لا أقسم بيوم القيامة ﴾

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ ، بَلْ يريد الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾[٤٩] .

هذا ردّ من الله عليهم ، وذلك أنهم ظنوا أن الله لا ينشرُ الموتى ، ولا يَقْدِرُ على جَمْعِ العِظام البالية ، فقال : بلى ، فاعلموا أنّا نقدر على رد السُّلاميَات[٥٠] على صغرها ، ونؤلِّف بينها حتى يَسْتوىَ البَنان . ومَنْ قدَر على هذا فهو على جمع كبار العظام أَقْدَرُ .

---

(٤٥) المباءة : منزل القوم فى كل موضع . المسرح : الموضع الذى تسرح اليه الماشية بالغداة للرعى . اللسان : باء ، سرح .

(٤٦) العفاة : جمع عاف وهم الأضياف وطلاب المعروف . القرى : ما يقدم إلى الضيف .

(٤٧) الدعس : شدة الوطء يقال : دعست الإبل الطريق : وطئته وطأً شديدا . اللسان : دعس .
الاخاديد : شرك الطريق . واللَّقْم : وسط الطريق . الأفيح : كل موضع واسع (راجع اللسان ــ خدد ، لقم فيح) .

(٤٨) زائغ : مائل ــ والشرك : جمع شركه (بفتح الراء) وهى معظم الطريق ووسطه (راجع اللسان : مال ، شرك) .

(٤٩) سورة القيامة / ٣ ــ ٥ .

(٥٠) « السلامى : عظام صغار على طول الإصبع أو قريب منها فى كل يد ورجل أربع سلاميات أو ثلاث » (راجع اللسان : سلم) .

ومثلُ هذا رجل قلت له : أتُرَاك تقدِر على أن تؤلّف هذا الحَنْظَل فى خيط ؟ فيقول لك : نعم وَبيْنَ الْخَرْدَل .

* وأما قوله سبحانه : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ فقد كثرت فيه التفاسير : فقال « سعيد بن جُبَيْر » : يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب .

وقال « الكلبى » يُكْثِرُ الذنوب ، ويؤَخِّرُ التوبة .

وقال « آخرون » : يتمنّى الخطيئةَ .

وفيه « قول آخر » : على طريق الإمكان ــ إن كان الله تعالى أراده ــ وهو : أن يكون الفجور بمعنى : التكذيب بيوم القيامة ، ومن كذَّب بحق فقد فجر .

وأصل الفجور : الميل ، فقيل للكاذب والمكذِّب والفاسق : فاجرٌ ؛ لأنه مال عن الحق .

وقال بعض الأعراب لعمر بن الخطاب ــ رحمه الله ــ وكان أتاه فشكى إليه نقَبَ إبله ودَبَرَها ، وَاستْحَمَله فلم يَحمله ــ :

أَقْسَمَ بالله أبو حَفْصٍ عُمَرْ
مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلاَ دَبَرْ[51]
فاغفر له اللهُّم إن كان فَجَرْ

أى : كذب .

وهذا وجهٌ حسن ؛ لأن الفجور اعتراض بين كلامين من أسباب يوم القيامة ؛ أولهما : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَه ﴾ والآخر : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ فكأنه قال : أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه فى الآخرة ؟ بلى نقدر أن نجمع ما صغر منها ونؤلف بينه

---

(٥١) المراد بالنقب ههنا : رقة الأخفاف (جمع خف وهو للبعير كالحافر للفرس) . والدَّبَر ــ بالتحريك ــ: الجُرْح الذى يكون فى ظَهْر الدابة وقيل : هو أن يقرَح خف البعير (راجع اللسان . مادتى « نقب » و « دبر ») .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ أى : ليكذِّب بيوم القيامة وهو أمامه ، فهو يسأل ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ أى متى يكون ؟

﴿ فى والصافات ﴾

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾[٥٢] .

يقول هذا المشركون يوم القيامة لُقرنائهم من الشياطين : إنكم كنتم تأتوننا عن أيماننا ؛ لأن إبليس قال : ﴿ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِم ﴾[٥٣] فشياطينهم تأتيهم من كل جهة من هذه الجهات بمعنى من الكيد والإضلال .

وقال « المفسرون » : فمن أتاه الشيطان من جهة اليمين : أتاه من قِبَل الدِّين فَلَبَّسَ عليه الحق .

ومن أتاه من جهة الشمال : أتاه من قِبَل الشَّهوات .

ومن أتاه من بين يديه : أتاه من قِبَل التَّكذيب بيوم القيامة والثواب والعقاب .

و من أتاه من خَلْفِه : خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يُخَلِّف بعده ، فلم يصل رحماً ، ولم يُؤَدِّ زكاة . فقال المشركون لقرنائهم : إنكم كنتم تأتوننا فى الدنيا من جهة الدِّين ، فتشبّهون علينا فيه حتى أضْللتمونا . فقال لهم قرناؤهم : ﴿ بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لم تكونوا على حق فنُشَبِّهَه عليكم ونُزيلَكم عنه إلى باطل . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ، أى قدرة فنَقْهركم ونجبَركم ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ، فَحَقَّ عَلَيْنَا قول رَبِّنا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ نحن وأنتم العذاب ﴿ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾[٥٤] يعنى بالدعاء والوَسْوسة .

---

(٥٢) سورة الصافات / ٢٧ ــ ٢٨ .
(٥٣) سورة الأعراف / ١٧ .
(٥٤) سورة الصافات / ٣٠ ــ ٣٢ .

ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي** ﴾[٥٥] .

﴿ في سورة الحج ﴾

﴿ **مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾[٥٦] .

كان قوم من المسلمين لشدَّة غيظهم وحَنَقهم على المشركين يَستبطئون ما وعد الله رسولَه من النصر . وآخرون من المشركين يريدون اتباعَه ويخشون ألا يتم له أمره ، فقال تعالى : ﴿ **مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَه اللهُ** ﴾ ، يعنى محمداً ، عليه السلام ، على مذاهب العرب فى الإضمار لغير مذكور ، وهو يَسمعُنِي أُعِدُه النصر والإظهار والتمكين ، وإن كان يستعجل به قبل الوقت الذى قضيتُ أن يكون ذلك فيه ، ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بَسبَبٍ** ﴾ أى بحبل ﴿ **إِلَى السَّماءِ** ﴾ ، يعنى سقف البيت ، وكلُّ شيء علاك وأظلّك فهو سماء ، والسحاب : سماء ، يقول الله تعالى : ﴿ **وَنَزَّلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مبارَكًا** ﴾[٥٧] ؛ وقال « سَلاَمَةُ بن جَنْدَل » يذكر قتلَ كِسرى النعمان :

هُوَ المُدْخِلُ النعمانَ بَيْتاً سَمَاؤُهُ
نُحُورُ الُفيول بَعْدَ بَيتٍ مُسَرْدَقِ[٥٨]

يعنى : سقفَه ، وذلك أنّه أدخله بيتاً فيه فيلة فَتَوطَّأَتْهُ حتى قتلته .

وقوله : ﴿ **ثُمَّ لْيَقْطَعْ** ﴾ . قال المفسرون أى : ليختنق ﴿ **فلينَظُر هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يغِيُظ** ﴾ هل يذهب ذلك ما فى قلبه ؟ وهذا كرجل وعدته شيئاً مرة بعد مرة ، ووكّدت على نفسك الوَعْدَ ، وهو يُراجعك فى ذلك ، ولا تسكن نفسه إلى قولك ، فتقول له : إن كنت لا تثق بما أقوله ، فاذهب فاختنق . تريد : اجهد جهدك .

هذا معنى قول المفسرين .

---

(٥٥) سورة إبراهيم / ٢٢ . (٥٦) سورة الحج / ١٥ . (٥٧) سورة ق / ٩ .

(٥٨) وبيت مسردق : وهو أن يكون أعلاه وأسفله مشدوداً « كله » اللسان : سردق .

وفيه وجه آخر على طريق الإمكان ؛ وهو أن تكون السماء ههنا : السماء بعينها لا السقف ، كأنه قال : فليمدد بسبب إليها أى بحبل ، وليرتق فيه ، ثم ليقطع حتى يَخِرَّ فَيَهْلِك ، أى ليفعل هذا إن بلغَهُ جَهْدُه ، فلينظر هل ينفعه . ومثله قوله لرسول الله ، ﷺ ـــ حين سأله المشركون أن يأْتيهم بآية و لم يشأ الله أن يَأْتِيَهُمْ بها ، فشقَّ ذلك عليه :

﴿ وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِى نَفَقًا فى الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعهمْ عَلَى الهُدَى ، فَلاَ تكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[٥٩] يريد : اجهد إن بلغ هذا جهدك .

ورَوى ابن عُيَيْنَة عن ابن أبى نجَيْحٍ ، عن كَرْدَم : أنّ رجلا سأل أبا هريرة ، وابنَ عمر ، وابن عبّاس ، عن رجل قتل مؤمناً متعمداً ، هل له توبة ؟ فكلهم قال : هل يستطيع أن يُحيِيَهُ ؟ هل يستطيع أن يَبتغِى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء ؟

يريدون : أنه لا توبة له ، كما أن هذا لا يكون .

وقال أبو عبيدة .

﴿ مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ ﴾ أى : يرزقه الله . وذهب إلى قول العرب : أرضٌ مَنْصُورَةٌ ؛ أى مَمْطُورةَ ، وقد نُصِرَت الأرض : أى مُطِرَت[٦٠] .

كأنه يريد : من كان قانطاً من رزق الله ورحمته فليفعل ذلك ، فلينظر هل يُذْهِب كَيْدُه ، أى حيلته ، غَيْظَه لتأخر الرزق عنه ؟

﴿ فى سورة المزمل ﴾

﴿ الْمُزَّمِّلُ ﴾ : المُتَزَمِّل ، فأدغمت التاء فى الزّاى ، وكذلك ﴿ الْمُدَّثِّرُ ﴾ هو : المُتدثِّر بثيابِه ، فأُدغمت التاء فى الدال . وكل من التف بثوبه فقد تَزَمَّل به .

﴿ قُم اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أى : صلّ الليل إلا شيئًا يسيراً منه تنام فيه وهو

(٥٩) سورة الأنعام / ٣٥ .

(٦٠) فى اللسان « نصر » وقال أبو عبيد : نصرت البلاد إذا مطرت فهى منصورة أى ممطورة ونصر القوم إذا غيثوا . وفى الحديث :« إن هذه السحابة تنصر أرض بنى كعب » أى تمطرهم .

الثلث ، ثم قال : ﴿ نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴾[٦١] أى : قم نصفه ، فاكتفى بالفعل الأول من الثانى لأنه دليل عليه . أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زِدْ على النصف إلى الثلثين . جعل له سعةً فى مدة قيامه بالليل . فلما نزلت هذه الآية قام رسول الله ، ﷺ ، وطائفة من المؤمنين معه ، ادْنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وأخذ المسلمون أنفسهم بالقيام على المقادير حتى شَقَّ ذلك عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ يَعلَمُ أنَّكَ تَقُومُ أدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللّيْلِ وَنِصْفَهُ وثُلُثَهُ ﴾ أى : وتقوم نصفه وثلثه ﴿ وطَآئِفَةٌ مِنَ الّذِينَ مَعَكَ ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ فيعلم مقدار ثلثيه ونصفه وثلثه ، وسائر أجزائه ومواقيته ، ويعلم أنكم ﴿ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ أى : لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام فيه ﴿ فَتابَ عَلَيْكُم فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرآن ﴾[٦٢] رخّص لهم أن يقوموا ما أمكن وخفّ ، لغير مدة معلومة ولا مقدار..

وكان هذا فى صدر الإسلام ، ثم نسخ بالصلوات الخمس . كذلك قال المفسرون .

وقوله : ﴿ إنّ نَاشِئَةَ الّلَيْل ﴾[٦٣] وهى : آناؤه وساعاته ، مأخوذة من نَشَأَتْ تَنْشَأُ نَشْئاً ، ونشأت أى : ابتدأت وأقبلت شيئا بعد شيء وأنشأها الله فنشأت وأنشأت . ومنه قوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ ﴾[٦٤] وقوله : ﴿ إنّا أنْشَأْنَاهُنّ إنْشَاءَ ﴾[٦٥] أى : ابتدأناهن ونَبّتناهن ، ومنه قيل لصغار الجوارى : نَشَأٌ .

فكأنه قال : إن ساعات الّليلِ الناشئة ، فاكتفى بالوصف من الاسم .

وقوله : ﴿ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ أى : أثقل على المصلى من ساعات النهار . وهو من قولك : اشتدت على القوم وَطْأَةُ سُلْطانِهم : إذا ثقل عليهم ما يُلْزِمهم ويأخذهم به . فأعلم الله نبيه أن الثواب فى قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها .

---

(٦١) سورة المزمل / ١ — ٣ .
(٦٢) سورة المزمل / ٢٠ .
(٦٣) سورة المزمل / ٦ .
(٦٤) سورة الزخرف / ١٨ .
(٦٥) سورة الواقعة / ٣٥ .

ومن قرأها : ﴿ وِطاءً ﴾[٦٦] على تقدير « فِعال » فهو مصدر لِوَاطأت فلانًا على كذا مُواطأة ووِطَاءً . وأراد : أنّ القراءة فى الليل يَتَوَاطأ فيها قلب المصلى ولسانه وسمعه على التَّفَهُّم والأداء والاستماع ، بأكثر مما يَتَواطأ عليه بالنهار .

﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أى : أخلص للقول وأسمع له ؛ لأن الليل تهدأ عنه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، فيخلص القول ، ولا يكون دون تَسَمُّعِه وتَفَهُّمِه حائل .

وقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾[٦٧] يعنى : تصرفاً وإقبالا وإدباراً فى حوائجك وأشغالك .

﴿ فى سورة الفتح ﴾

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِه مَن يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيمًا ﴾[٦٨] .

كان بمكة قوم مؤمنون مختلطون بالمشركين غير متميزين ولا معروفى الأماكن ، فلما صدّ المشركون رسول الله ، ﷺ ، عن المسجد الحرام وعَكَفُوا الْهَدَى أن يَبْلُغ مَحِلّه ، قال الله سبحانه : لولا أن بمكة رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ لا تعرفونهم فتطئُونهم لو دخلتمو، ، أى تقتلونهم ليُدْخِلَهُمْ اللهُ فى رَحْمَته لو فعلتم فتُصِيبَكُمْ من قتلهم بغير علم مَعَرَّةٌ ، أى يَعيبَكم المشركون بذلك ويقولون : قد قتلوا أهل دينهم وعذبوهم كما فعلوا بنا ، وتلزمكم الدِّيات .

ثم قال ، ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ ، أى تميزوا من المشركين[٦٩] ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ المشركين

---

(٦٦) قال ابن الجزرى : واختلفوا فى « أشد وطأ » فقرأ أبو عمرو وابن عامر بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها . وقرأ الباقون بفتح الواو واسكان الطاء من غير مد . (راجع النشر م ٢ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣) .

(٦٧) سورة المزمل / ٧ .

(٦٨) سورة الفتح / ٢٥ .

(٦٩) عن عبد الله بن عمرو أنه قال : سمعت حبيب بن سبيع يقول : قاتلت رسول الله ﷺ فى أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلما وفينا نزلت « لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات » قال كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين (راجع تفسير ابن كثير ج ٤ / ١٩٣) .

بالسيف ﴿ **عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ . فصار قوله سبحانه : ﴿ **لَعَذَّبْنَا الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ جوابًا لكلامين : أحدهما : ﴿ **لَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنونَ** ﴾ والآخر : ﴿ **لَوْ تَزَيَّلُوا** ﴾ .

﴿ في سورة البقرة ﴾

﴿ **وَإِذْ أَخذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُون أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلّا خِزْىٌ فى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ** ﴾[٧٠] .

نزلت فى بنى قُرَيظة والنَّضِير . يقول : أخذ الله عليكم فى الكتاب : ألا تسفكوا دماءكم ، أى لا تَقْتَتلوا ، فيقتل بعضكم بعضًا ، ولا تتركوا أسيراً فى أيدى الآسرين فيقتلوه ، ولا تُخرجوا أنفسكم من دياركم ، أى لا تغلبوا أحدًا على داره وتخرجوه . فقبلتم ذلك وأقررتم به ، وهو أخذ الميثاق ﴿ **وَأَنْتُمْ تَشْهدُون** ﴾ بذلك ﴿ **ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلون أنفُسَكُمْ** ﴾ أى تقتتِلون فيقتل بعضكم بعضًا ، ﴿ **وتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ والعُدْوانِ** ﴾ أى تتعاونون ﴿ **وإِنْ يَأْتُوكُمْ** ﴾ بهم ﴿ **أُسَارَى تُفَادُوهُم ، وهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُم إِخْرَاجُهم** ﴾ من ديارهم ﴿ **أفَتؤْمِنون بِبَعضِ الكِتَابِ** ﴾ فى فك الأسير ﴿ **وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ فى إخراجكم مَنْ أخرجتم من ديارهم ﴿ **فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إلاَّ خِزْىٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيا** ﴾ . فجُوزِىَ « بنو النَّضِير » بأن أخرَجهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، عن ديارهم لأَوَّل الحَشْر .

---

(٧٠) سورة البقرة / ٨٤ ، ٨٥ .

وجُوزِىَ « بنو قُرَيظة » بقتل المُقاتِلة وسَبْى الذُّرِّيَّة[٧١] .

﴿ في الزخرف ﴾

﴿ **قُلْ إنْ كانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ** ﴾[٧٢] .

لما قال المشركون : لله ولد ، ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله الله على رسوله ، عليه السلام ، من التبرُّؤ من ذلك ـــ قال الله سبحانه لرسوله عليه السلام : ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **إنْ كانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ** ﴾ أى : عندكم فى ادعائكم ﴿ **فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ** ﴾ أى : أول الموحدين ، ومَنْ وَحَّدَ الله فقد عبده ، ومن جعل له ولدًا أو نِدًّا ، فليس من العابدين ، وإن اجتهد .

ومنه قوله : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[٧٣] : أى إلا ليُوَحِّدون .

قال « مُجَاهد » : يريد إن كان لله ولد فى قولكم ، فأنا أول من عبد الله ووحّده ، وكذَّبكم بما تقولون .

● و « بعض المفسرين » يجعل « إن » بمعنى « مَا »[٧٤] ؛ **وليس يعجبنى ذلك** .

---

(٧١) بنو النضير وبنو قريظة حيان من اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة فلما قدم الرسول ﷺ المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا .. ولكنهم نقضوا عهد الله فأنزل فيهم حكمه . أما بنو النضير فقد أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة فمنهم من ذهب إلى الشام ومنهم من ذهب إلى خيبر .
وأما بنو قريظة فقد أمر النبى ﷺ بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم واستفاءة أموالهم . راجع : السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ، ص ١٠٨ ، ١٠٤ .

(٧٢) سورة الزخرف / ٨١ .

(٧٣) سورة الذاريات / ٥٦ .

(٧٤) روى هذا القول عن ابن عباس والحسن والسدى وقتادة وابن زيد وزهير بن محمد وقال مكى : لا يجوز أن تكون « إن » بمعنى (ما) ، لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت وهذا محال . البحر المحيط ج ٨ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

ويقال : العابدون ههنا : الغِضابُ الآنفون . يقال : عَبِدْتُ من كذا أَعْبَدُ عَبَدًا . وأكثرُ ما تأْتى الأسماءُ من فَعِلَ يَفْعَلُ على « فَعِلٍ » كقوله : وَجِلَ يَوْجَلُ فهو وَجِلٌ ، وفَزِعَ يَفْزَعُ فهو فَزِعٌ(٧٥) .

وربما جاء على « فاعل » نحو عَلِمَ يعلم فهو عالمٌ .

وربما جاء منه على « فَعِلَ » و « فاعِل » نحو صَدى يصدى فهو صدٍ وصادٍ(٧٦) ، كذلك تقول : عَبِد يعبَدُ فهو عَبِدٌ وعَابِدٌ ، « قال الشاعر » :

* وأَعْبَدُ أن تُهْجَى تَميمٌ بِدَارِمِ(٧٧) *

﴿ فى سورة الأنبياء ﴾

﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾(٧٨) .

يستوحش كثير من الناس من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوبًا ، وَيحْمِلُهم التنزيه لهم ، صلوات الله عليهم ، على مخالفة كتاب الله جلّ ذِكْره ، واستكراه التأويل ، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة التى لا تُخِيل عليهم ، أو على من عَلِمَ منهم ــ أنّها ليست لتلك الألفاظ بِشَكْل ، ولا لتلك المعانى بِلفْق(٧٩) .

* كتأوُّلهم فى قوله تعالى : ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴾(٨٠) أى : بَشِمَ من أكل الشجرة . وذهبوا إلى قول العرب : غَوِىَ الفَصِيلُ : إذا أكثر من اللبن حتى

---

(٧٥) وحينئذ ستكون هذه الصبغة دالة على استمرار الصفة للموصوف أو لزومها لأن هذه صيغة الصفة المشبهة . راجع شرح التصريح على التوضيح ج ٢ ، ص ٨٢ . والوجل · الفزع والخوف .

(٧٦) الصَدَى / شِدَّة العطش .

(٧٧) دارم : حى من بنى تميم (قبيلة) فيهم بيتها وشرفها (اللسان : دارم) .

(٧٨) سورة الأنبياء / ٨٧ .

(٧٩) اللفق : شقة من شقتى الملاءة .

(٨٠) سورة طه / ١٢١ .

يَبْشَم[٨١] . وذلك غوَى ــ بفتح الواو ــ يَغْوِى غَيًّا . وهو من البَشَم غَوِى ــ بكسر الواو ــ يغوَى غَوًى . قال الشاعر يذكر قوسًا :

مُعَطَّفَةُ الْأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُها بِرَازِئِهَا دَرًّا ولا مَيِّتٍ غَوَى[٨٢]

وأراد بالفَصِيل : السَّهم . يقول : ليس يَرْزَؤُها دَرًّا ، ولا يموتُ بَشَمًا .

ولو وُجِد أيضا فى « عصَى » مثل هذا السَّنَن لرَكبوه ، وليس فى « غوَى » شىءٌ إلا مافى « عصَى » من مَعْنَى » الذّنب ؛ لأن العاصِىَ لله التّارِك لأمره غاوٍ فى حاله تلك ، والغَاوى عاصٍ . والغَىُّ ضدُّ الرّشد ، كما أن المعصية ضد الطاعة .

وقد أكل آدمُ ، صلى الله عليه وسلم ، من الشجرة التى نُهِىَ عنها باستزْلالِ إبليس وخدائعه إيَّاه بالله والقسم به إنه لمنَ الناصحين ، حتى دَلَّاهُ بغُرُور . ولم يكن ذنبه عن إرْصادٍ[٨٣] وعداوة وإرْهاصٍ[٨٤] كذُنوب أعداء الله . فنحن نقول : « عَصى وغَوَى » ، كما قال الله تعالى ، ولا نقول : آدم « عاصٍ ولا غاوٍ » ؛ لأن ذلك لم يكن عن اعتقاد متقدِّم ولا نيّة صحيحة ، كما تقول لرجل قطع ثوبا وخاطه : قد قطعه « وخاطه » ، ولا تقل « خائط ولا خيَّاط » حتى يكون مُعاوِدًا لذلك الفعل ، معروفًا به .

* وكتأولهم فى قوله سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا** ﴾ أنها همَّتْ بالمعصية ، وهمّ هو بالفرار منها ! وقال بعضهم : وهمَّ بضربها ! والله تعالى يقول : ﴿ **لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾[٨٥] . أفتُرَاه أراد الفرار منها ، أو الضرب لها ، فلما رأى البرهان أقام عندها وأمسك عن ضربها ؟! هذا ما ليس به خفاء ولا يغلط مُتَأَوِّلُه . ولكنها همَّتْ منه بالمعصية هَمَّ نِيَّةٍ واعتقادٍ ، وهَمَّ نبى الله ﷺ ، هَمًّا عارِضًا بعد طُول المُرَاوَدَة ، وعند حدوث الشهوة التى أُتِىَ أكثرُ الأنبياءِ فى هفواتهم منها .

---

(٨١) البشم : التخمة .

(٨٢) يقصد بقوله : « معطفة الأثناء » : وصف القوس بالانحناء والميل . وبرازئها : بمصيب منها .

(٨٣) أرصد له الأمر : أعده .

(٨٤) الإرهاص على الذنب : الإصرار عليه .

(٨٥) سورة يوسف / ٢٤ .

وقد رُوى فى الحديث[٨٦] : أنه ليس من نبى إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة غير يحيى بن زكريا ، عليهما السلام ؛ لأنّه كان حَصُورًا لا يأتى النساء ولا يُرِيدُهُنَّ . فهذا يَدُلُّكِ على أنّ أكثر زلاّت الأنبياء من هذه الجهة ، وإن كانوا لم يَأْتُوا فى شىء منها فاحشةً ، بِنَعم الله عليهم ومَنِّه ؛ فإن الصغير منهم كبيرٌ ، لِمَا آتاهم الله من المعرفة ، واصطفاهم له من الرسالة ، وأقام عليهم من الحُجَّة . ولذلك قال يوسف ، صلى الله عليه : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾[٨٧] ، يريد ما أضمره وحدَّث به نفسَه عند حدوث الشهوة . وقد وضع الله تعالى الحَرَجَ عمَّن هَمَّ بخطيئةٍ ولم يعملها .

* * *

* وقالوا فى قوله : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا** ﴾ : إنه غاضَبَ قومه استيحاشا من أن يكون مع تأييد الله وعصمته وتوفيقه وتطهيره ، يخرج مُغَاضِبًا لربِّه . ولم يذهب مغاضبا لربِّه ولا لقومه ؛ لأنّه بُعث إليهم فدعاهم بُرْهَةً من الدّهر فلم يستجيبوا ووعدهم عن الله فلم يرغبوا ، وحذَّرهم بأسه فلم يرهبوا ، وأعلمهم أنّ العذابَ نازلٌ عليهم لوقتٍ ذَكَرَهُ لهم ، ثم إنه اعتزلهم يَنْتَظِرُ هَلَكَتَهم . فلما حضر الوقت أو قَرُب فكَّرَ القومُ واعتبروا ، فتابوا إلى الله وأنابوا ، وخرجوا بالمراضيع وأطفالها يَجْأَرُون ويتضرَّعون ، فكشف الله تعالى عنهم العذابَ ، ومتّعهم إلى حين .

فإن كان نبى الله ، صلى الله عليه ، ذهب مُغَاضِبًا على قومه قبل أن يؤمنوا ، فإنما راغَمَ من استحق فى الله أن يُرَاغَمَ ، وهجَرَ من وجب أن يهجر ، واعتزل من علم أنْ قد حقَّت عليه كلمةُ العذاب . فبأَىِّ ذنبٍ عُوقِب بالتهام الحوت ، والحَبْسِ فى الظُّلُمات ، والغمّ الطويل ؟

---

(٨٦) روى الإمام أحمد فى مسنده (٤/٨٠) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلاَّ وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى » .

وقد ضعَّف ابن كثير هذا الحديث . (راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ١١٤) .

(٨٧) سورة يوسف / ٥٣ .

وما الأمر الذى أَلَامَ فيه فَنَعاه الله عليه إذْ يقول : ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾[٨٨] . والمُليمُ : الذى أَجْرَمَ جُرْمًا استوجب به اللَّوْم .

ولِمَ أخرجهُ من أُولى العَزْم من الرّسُل ، حين يقول لنبيه ، صلى الله عليه : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ** ﴾[٨٩] .

وإن كان الغضب عليهم بعد أن آمنوا ، فهذا أَغْلظ مما أنكروا ، وأَفْحش مما استقبحوا ؛ كيف يجوز أن يغضب على قومه حين آمنوا ، ولذلك انْتُجِبَ[٩٠] ؛ وبه بُعِثَ ؛ وإليه دعا ؟!

وما الفرق بين عدو الله ووليّه إن كان وليّه يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون ؟

* والقول فى هذا أنّ المُغَاضَبَة : المُفاعَلَة من الغضب ، والمُفَاعَلَة تكون من اثنين ، تقول : غَاضَبْتُ فلانًا مُغَاضَبَةً ، وَتَغَاضَبْنَا : إذا غضب كلُّ واحد منكما على صاحبه ، كما تقول : ضارَبْتُهُ مُضارَبةً ، وقاتلتُه مُقاتلةً ، وتَضَارَبْنَا وتقاتلنا .

وقد تكون المفاعلة من واحد ، فتقول : غاضَبْتُ من كذا : أى غَضِبْتُ ، كما تقول : سافرت وناوَلْتُ ، وَعَاطيت الرّجُلَ ، وشَارَفْتُ الموضع ، وجاوزْتُ ، وضاعَفْتُ ، وظاهرت ، وعاقبت .

ومعنى المُغَاضَبة ههنا : الأنفة ؛ لأنّ الأَنِفَ من الشىءِ يَغْضَبُ ، فتُسَمَّى الْأَنَفَةُ غضبًا ، والغضبُ أنفةً ؛ إذا كان كل واحد بسببٍ من الآخر ، تقول : غضبت لك من كذا ، وأنت تُرِيد أنفت ، قال الشاعر :

غَضِبْتُ لَكُمْ أَنْ تُسَامُوا اللَّفاء　　　بِشَجْنَاءَ مِنْ رَحِمٍ تُوصَلُ[٩١]

يروى مرة : « أنفت لكم » ، ومرة : « غضبت لكم » ؛ لأنّ المَعْنَيين متقاربان .

---

(٨٨) سورة الصافات / ١٤٢ .

(٨٩) سورة القلم / ٤٨ .

(٩٠) المنتجب : المختار من كل شيء ، كما فى اللسان (نجب) .

(٩١) اللَّفاء : النقصان . والشجناء : القرابة المُشْتَبِكة من الشجن وهو الغصن المشتبك (راجع اللسان : شجن) .

وكذلك « العَبَدُ » أصله : الغَضَبُ . ثم قد تُسمَّى الأَنفةُ عَبَدًا .

وقال الشاعر :

* وَأَعْبَدُ أنْ تُهْجَى تَميمٌ بِدَارِمِ[٩٢] *

يريد : آنَفُ .

وحكى أبو عُبَيدٍ ، عن أبى عَمْرو ، أنّه قال فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِين** ﴾ : هو من الغضب والأَنفة . ففسَّرَ الحرف بالمعنيين لتقاربهما .

فكأنّ نبّى الله ، صلى الله عليه وسلم ، لمّا أخبرهم عن الله أنّه مُنزل العذاب عليهم لأجَلٍ ، ثم بَلَغهُ بعد مُضِىّ الأجَلِ أنّه لم يأتهم ما وعدهم خَشِىَ أنْ يُنْسَبَ إلى الكذب ويُعَيَّر به ، ويُحقَّق عليه ، لا سيّما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعَهَا إيمانُها غيرُ قومه ، فدخلته الأَنَفَةُ والحَمِيّةُ ، وكان مغيظًا بطول ما عاناه من تكذيبهم وهُزْئهم وأذاهم واستخفافهم بأمر الله ، مُشْتَهِيًا لأن ينزل بأسُ الله بهم . هذا إلى ضِيق صَدْره ، وقلّة صبره على ما صبر على مثله أولوا العَزْم من الرُّسل .

وقد روى فى الحديث[٩٣] أنه كان ضيِّق الصدر ، فلما حُمِّلَ أعْبَاءَ النبوة تَفَسَّخَ تحتها تفسُّخَ الرُّبَعِ[٩٤] تحت الحِمْل الثَّقيل ، فمضى على وجهه مُضِىّ الآبِق النّادّ . يقول الله سبحانه : ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ﴾[٩٥] .

* * *

﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه ﴾ ، أى لن نُضَيِّق عليه ، وأنَّا نُخلّيه ونُهْمله . والعرب تقول : فُلانٌ مُقدَّر عليه فى الرزق ، ومُقتَّر عليه ، بمعنى واحد ، أى مضيّق عليه . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَر عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾[٩٦] . وقَدَرَ

(٩٢) دارم : حى من بنى تميم فيهم بيتها وشرفها (اللسان : درم) .
(٩٣) أورده الطبرى فى تفسيره (٦١/١٧) .
(٩٤) وتفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل أى لم يُطق .
(٩٥) سورة الصافات / ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٩٦) سورة الفجر / ١٦ .

ـــ بالتخفيف والتثقِيل ـــ قال « أبو عَمْرو بن العَلاء » : قَتَر وقَتَّر ، وقَدَر وقَدَّر ، بمعنى واحد ، أى ضيَّق . فعاقبه الله عن حمِّيته وأَنَفَتِه وإباقته ، وكراهيته العفوَ عن قومه ، وقَبُولِ إنَابَتِهِمْ ـــ بالحبس له والتَّضييق عليه فى بطن الحوت .

وفى رواية أبى صالح : أن ملكا من ملوك بنى إسرائيل كان أمَرَه بالمسير إلى « نِينَوَى » ليدعوَ أهلها بأمر « شَعْيَاء » النبى عليه السلام ، فأَنِف من أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحدٍ غير الله تعالى ، فخرج مُغَاضِبًا للملك ، فعاقبه اللهُ بالتِقام الْحُوتِ .

قال : فلما قذفهُ الحوت بعثه اللهُ إلى قومه فدعاهم وأقام بينهم حتى آمنوا .

﴿ فى سورة يوسف ﴾

ـــ ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَنْ نشَاءُ** ﴾(٩٧) .

قد تكلم « المفسرون » فى هذه الآية بما فيه مَقْنَعٌ وغناء عن أن يُوضَّح بغير لفظهم .

● فروَى عبد الرّزاق ، عن مَعْمَرٍ ، عن « قَتَادَة » ، أنه قال : ﴿ **اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ** ﴾ من قومهم ﴿ **وَظَنُّوا** ﴾ أى : علموا ﴿ **أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ وكان يقرؤها بالتشديد(٩٨) .

● وروَى عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن الزُّهْرِى ، عن عروة ، عن « عائشة » أنها قالت : اسْتَيْئَسَ الرُّسُل ممن كذّبهم من قومهم أن يُصَدِّقوهم ، وظنَّت الرّسُلُ أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذَّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك . وكانت تقرأ : ﴿ **فَكُذِّبُوا** ﴾ بضم الكاف وتشديد الذال .

* وروى حجّاج ، عن ابن جُرَيْج : عن ابن أبى مُلَيكة ، عن عُرْوَة ، عن

---

(٩٧) سورة يوسف / ١١٠ .

(٩٨) وهى قراءة عائشة رضى الله عنها . وقراءة نافع ، وابن كثير وأبى عمرو ، وابن عامر (راجع اللسان : كذب ، والنشر فى القراءات العشر م/٢ ، ص ٢٩٦) .

« عائشة » ، أنها قالت : لم يزل البلاءُ بالرّسل حتى خافوا أن يكون من معهم من المؤمنين قد كذّبوهم .

* وروَى حَجَّاجٌ ، عن ابن جُرَيجٍ ، عن « مُجَاهد » أنه قرأها : ﴿ **قد كَذَبُوا** ﴾ بفتح الكاف والذال وتخفيف الذال ، يريد : حتى إذا استيئس الرسل من إيمان قومهم فظنَّ قومُهم أنّ الرُّسلَ قد كذَبوا فيما بلَّغوا عن الله عز وجل .

* وروَى حَجَّاج ، عن ابن جُرَيْجٍ ، عن ابن أبى مُليكة ، عن « ابن عباس »[99] أنه قرأ : ﴿ **كُذِبُوا** ﴾ بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها . وقال : كانوا بشرًا ، يعنى الرسل ، يذهب إلى أن الرسل ضَعُفُوا فظنُّوا أنهم قد أُخْلِفُوا[100] .

* وهذه مذاهب مختلفة ، والألفاظ تحتملها كلّها ، ولا نعلم ما أراد الله عز وجل ، غير أنّ أحْسنَها فى الظاهر ، وأولاها بأنبياء الله ، صلوات الله عليهم ، ما قالت أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها .

« فى سورة الروم »

﴿ **الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ، لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُون بِنَصْرِ اللهِ** ﴾[101] .

كانت « فارس » غلبت « الروم » على أرض الجزيرة ، وهى أَدْنَى أرض الروم من سلطان فارس ، فسرَّ بذلك مشركو قريش .

وكان المسلمون يحبّون أن تَظْهَرَ الروم على أهل فارس ؛ لأن الروم أهل كتاب ، وأهل فارس مجوس ، فساءهم أن غلبوهم على شيء من بلادهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ** ﴾ أى : والروم من بعد أن غُلِبُوا ﴿ **سَيَغْلِبُون** ﴾ أهل

---

(٩٩) وهى قراءة عاصم وحمزة والكسائى (راجع اللسان : كذب ، النشر م/٢ ، ص ٢٩٦) .

(١٠٠) روى عنه أيضا قوله : « حتى إذا استيأس الرسل من قومهم الإجابة وظن قومهم أن الرسل قد كَذبَتْهم الوعيدُ . قال أبو منصور .. وهذه الرواية أسلم » راجع اللسان : كذب .

(١٠١) سورة الروم / ١ ــ ٥ .

فارس . وغَلَبِهم يكون للغالبين والمغلوبين جميعًا ، كما تقول : والشهداءُ من بعد قَتْلهم سيرزقون ، أى : من بعدِ أن قتلوا . ﴿ فى بِضْعِ سِنِين ﴾ والبِضْعُ : ما فوق الثلاث ودون العشر . فغَلَبت الروم أهلَ فارس وأخرجوهم من بلادهم « يوم الحُدَيْبية » .

﴿ لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى : له الغلبة لمن شاء مِن قبلُ ومنْ بعد ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم يغلب الروم أهل فارس ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ ﴾ أهلَ الكتاب على المجوس .

قال « الشَّعْبى » فى سورة الفتح : أنزلت بعد الحُدَيبية ، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبايعوه مبايعة الرِّضْوان ، وأُطْعِمُوا نخلَ خَيْبر ، وظَهَرَتْ الرّوم على فارس ، وفرح المؤمنون بتصديق كتاب الله ، وظهرت الروم على المجوس .

﴿ فى سورة القصص ﴾

﴿ إنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ . قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ، وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾(١٠٢) .

مَعَادُ الرَّجُلِ : بلدُه ؛ لأنه يَتَصَرَّفُ فى البلاد ، ويَضْرِبُ فى الأرض ثم يعود إلى بلده . يقال : رُدَّ فلانٌ إلى مَعَادِه ، أى رُدَّ إلى بلده . ومثله قولُهم لمنزل الرجل : مَثَابُ ومَثَابَةٌ ؛ لأنَّه يتصرَّفُ فى حوائجه ثم يَثُوبُ إليه .

وكان رسول الله ، ﷺ ، حين خرج من مكة إلى المدينة اغتم بمُفَارقَةِ مكة ؛ لأنَّهَا مولده وموطنه ومنشؤُه ، وبها أهله وعشيرته ، واستوحش . فأخبره الله سبحانه فى طريقه أنَّه سَيَرُدُّه إلى مكة ، وبشّره بالظهور والغَلَبة .

وفى الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : إنَّ الذى فَرَضَ عليك القرآن ، أى جعلك

---

(١٠٢) سورة القصص / ٨٥ — ٨٦ .

نبيًّا يُنزِلُ عليك القرآن ــ وما كُنْتَ ترجو قَبْلَ ذلك أن تكون نبيا يُوحَى إليك الكتابُ ــ لَرَادُّكَ إلى مكة ظاهرًا قاهرًا . وهو معنى تفسير أبى صالح ومجاهد .

وقال الحسن : مَعَادُه : يوم القيامة . ووافقه على ذلك الزُّهْرِى . وروى عبد الرَّزَّاق ، عن مَعْمر ، عن قَتَادَة ، قال : هذا مما كان ابن عباس يَكْتُمه .

﴿ فى سورة البقرة ﴾

﴿ **الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ** ﴾[103] . هذا فى يوم القيامة . يريد أنه إذا بُعث النّاسُ مِنْ قبورهم خرجوا مُسْرِعين ، يقول الله سبحانه : ﴿ **يَوْمَ يَخْرُجُون مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُون** ﴾[104] أى يسرعون ؛ إلّا أَكَلَةَ الرِّبا ، فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ويسقط ؛ لأنهم أكلوا الرّبا فى الدنيا ، فأَرْبَاه[105] اللهُ فى بطونهم يوم القيامة حتى أَثْقَلَهُم ، فهم ينهضون ويسقطون ، ويريدون الإسراع فلا يقدرون .

﴿ فى سورة الفرقان ﴾

﴿ **قُل مَايَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** ﴾[106] .

فى هذه الآية مضمر وله أشْكَلَتْ . أى ما يَعْبَأُ بعذابكم ربِّى لولا ما تدعونه من دونه من الشريك والولد[107] . ويُوضّح ذلك قوله : ﴿ **فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** ﴾

---

(١٠٣) سورة البقرة / ٢٧٥ .

(١٠٤) سورة المعارج / ٤٣ .

(١٠٥) رَبَا الشيء يَرْبُو رَبْوًا ورِباءً : زاد ونما (اللسان : ربا) .

(١٠٦) سورة الفرقان / ٧٧ .

(١٠٧) يرى الزمخشرى أن المقصود من الدعاء هنا هو العبادة و(ما) متضمنة لمعنى الاستفهام (الكشاف : ج ٣ ، ص ١٠٦) .

أى يكون العذاب لمن كذّب ودعا من دُونِه إلهًا ـــ لازما . ومثله من المضمر قول الشاعر :

مَنْ شاءَ دَلَّى النَّفْسَ فى هُوَّةٍ ضَنْكٍ ؛ وَلكِنْ مَنْ لَهُ بالمضيقِ ؟

أراد : ولكن من له بالخروج من المضيق ؟

وقال الله تعالى : ﴿ **مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾[108] ، أى من كان يريد عِلم العِزَّة : لمن هى ؟ فإنها لله تعالى .

---

(١٠٨) سورة فاطر / ١٠ .

باب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة

تحدث ابن قتيبة فى هذا الباب عن ظاهرة المشترك اللفظى فى القرآن الكريم ولقد كان من المؤمنين بوقوعها فيه ، ولذا رأيناه يتوقف — فى هذا الباب — عند نيف وأربعين لفظًا من الألفاظ التى استعملها القرآن الكريم ، ليوضح المعانى المتعددة لهذه الألفاظ على النحو الذى ورد فى القرآن ، وهو حريص على أن يربط هذه المعانى الفرعية بمعنى عام يجمعها[1] ، وقد وفق ابن قتيبة كثيرًا فى توضيح العلاقة بين المعنى الأصلى والمعنى المتفرع عنه ؛ فهو يذكر المعانى المتعددة للفرح فيذكر منها : المَسَرَّة ، ويعتبرها الدلالة الأصيلة ثم يذكر معنى آخر وهو الرضا ويربط بين هذا المعنى وسابقه بقوله : « والفرح الرضا ، لأنه عن المسَّرة يكون » ، ويقول فى المعنى الثالث : « والفرح : البطر والأشر ؛ لأن ذلك عن إفراط السرور » . وهو يقرن كل معنى بالآية التى ورد فيها ، وربما زاد الأمر وضوحًا بذكر بيت شعرى استخدم فيه اللفظ بالمعنى الذى يتحدث عنه المؤلف . ومهما يكن من أمر فقد دلل ابن قتيبة بهذا الباب على أن للقرآن دورًا واضحا فى تطوير دلالات بعض الألفاظ العربية التى استعملها .

---

(١) من أهم الكتب التى سبقت جهد « ابن قتيبة » فى معالجة هذه الظاهرة : كتاب « الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم » وقد ألفه مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى ١٥٠ هـ . وقد قام بتحقيقه الأستاذ الدكتور عبد الله شحاته . وقد أفاد منه « ابن قتيبة » كثيرًا .
كما خصص السيوطى للمشترك فى القرآن الكريم القسم الأعظم من كتابه « معترك الأقران فى إعجاز القرآن » الذى حققه الأستاذ على محمد البجاوى .

ومن الألفاظ التى عرض لها :

القضـــــاء :

أصل قَضَى : حَتَمَ ، كقول الله عز وجل : ﴿ **فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ** ﴾[2] أى حَتَمه عليها .

ثم يصير الحَتْمُ بمعان ، كقوله : ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** ﴾[3] أى أمر ؛ لأنه لما أمر حتَم بالأمر .

وكقوله : ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ** ﴾[4] ، أى أعلمناهم ؛ لأنّه لمّا خَبَّرهم أنهم سيفسدون فى الأرض ، حتم بوقوع الخبر .

وقوله : ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾[5] ، أى صنعهن .

وقوله : ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ** ﴾[6] ، أى فاصنع ما أنت صانع .

ومثله قوله : ﴿ **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ** ﴾[7] ، أى اعملوا ما أنتم عاملون ولا تُنْظِرون . قال « أبو ذُؤَيْب » :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَان قَضَاهُما　　　دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغ تُبَّعُ[8]

أى صنعهما « داود » و « تُبّع » .

وقال « الآخر » فى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه :

قَضَيْتَ أُمورًا ثمّ غادرْتَ بَعْدَها　　　بَوَائجَ فى أَكْمَامِهَا لِمْ تُفَتَّقِ[9]

---

(٢) سورة الزمر / ٤٢ .

(٣) سورة الإسراء / ٢٣ .

(٤) سورة الإسراء / ٤ .

(٥) سورة فصلت / ١٢ .

(٦) سورة طه / ٧٢ .

(٧) سورة يونس / ٧١ .

(٨) مسرودتان : درعان . قضاهما : صنعهما . السوابغ : جمع سابغة وهى الدرع الواسعة . وتبع : واحد التبابعة وهم ملوك اليمن .

(٩) البوائج : جمع بائجة وهى الداهية (اللسان : بوج) . وتفتق من الفتق وهو الشق (اللسان : فتق) .

أى عملت أعمالا ؛ لأنَّ كلّ من عمل عملا وفرغ منه فقد حتمه وقطعه . ومنه قيل للحاكم : قاض ؛ لأنّه يقطع على الناس الأمور وَيَحْتِم . وقيل : قُضِىَ قَضَاؤُكَ . أى فُرِغ من أمرك . وقالوا : للميت : قد قَضَى . أى فرغ .

* وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد .

الأمـــــة :

أصل الأمة : الصِّنْفُ من الناس والجماعة ، كقوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾[10] ، أى صنفًا واحدًا فى الضلالة ﴿ **فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّين** ﴾ .

وكقوله عز وجل : ﴿ **إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** ﴾[11] . أى : أصناف ، وكل صنف من الدواب والطير مثل بنى آدم فى المعرفة بالله ، وطلب الغذاء . وتَوقِّى المهالك ، والتماس الذَّرْءِ[12] ، مع أشباه لهذا كثيرة .

ثم تصير الأُمَّة : الْحِينَ ، كقوله عز وجل : ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾[13] .

وكقوله : ﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ** ﴾[14] . أى : سنين معدودة . كأنّ الأمّة من الناس القَرْنُ يَنْقَرِضُونَ فى حين ، فَتُقَامُ « الأمةُ » مُقام « الحِين » .

ثم تصير الأُمَّةُ : الإمام والرَّبانى ، كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا** ﴾[15] . أى : إمامًا يَقتدِى به الناس ؛ لأنه ومن اتبعه أمّة ، فسُمِّى أُمَّةً لأنه سبب الاجتماع .

وقد يجوز أن يكون سُمِّى أُمَّةً ؛ لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله فى أمةٍ . ومن هذا يقال : فلان أمةٌ وَحْدَه ، أى : هو يقوم مقام أمة .

---

(١٠) سورة البقرة / ٢١٣ .

(١١) سورة الأنعام / ٣٨ .

(١٢) الذرء : الذريَّة (اللسان : ذرأ) .

(١٣) سورة يوسف / ٤٥ .

(١٤) سورة هود / ٨ .

(١٥) سورة النحل / ١٢٠ .

وقد تكون الأمة : جماعة العلماء ، كقوله : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ** ﴾[16] . أى : يعلّمون .

والأُمَّة : الدِّين ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ** ﴾[17] أى : على دين . قال « النابغة » :

حَلَفتُ فلم أَتْرُكْ لِنَفسِكَ ريبةً   وهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وهو طَائِعُ ؟

أى : ذو دِينٍ .

والأصل أنه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد : أمة ، فتقام الأمةُ مُقام الدين ، ولهذا قيل للمسلمين : أمّة محمد ، صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم على أمر واحد ، قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾[18] . مجتمعة على دين وشريعة .

وقال الله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾[19] ، أى : مجتمعة على الإسلام .

الإمـــام :

الإمام : أصله ما ائْتَمَمْتَ به . قال الله تعالى لإبراهيم : ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾[20] . أى : يُؤْتَمُّ بك ، ويُقتدَى بسنّتك .

ثم يجعل الكتاب إمامًا يؤتم بما أحصاه . قال الله عز وجل : ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾[21] أى : بكتابهم الذى جُمِعَتْ فيه أعمالهم فى الدنيا .

وقال : ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** ﴾[22] يعنى كتابًا أو يعنى : اللوح المَحْفُوظ .

---

(١٦) سورة آل عمران / ١٠٤ .
(١٧) سورة الزخرف / ٢٢ ، ٢٣ .
(١٨) سورة المؤمنون / ٥٢ .
(١٩) سورة النحل / ٩٣ .
(٢٠) سورة البقرة / ١٢٤ .
(٢١) سورة الإسراء / ٧١ .
(٢٢) سورة يٓس / ١٢ .

وقد يجعل الطريق إمامًا ؛ لأنّ المسافر يأتم به ويستدل . قال الله تعالى : ﴿ وإنّهما لَبإمَام ٍ مُبين ﴾[٢٣] أى : بطريق واضح .

الصـــــلاة :

الصلاةَ : الدعاء . قال الله تعالى : ﴿ **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** ﴾[٢٤] . أى : ادع لهم ؛ إنّ ذلك مما يُسَكِّنهم وتَطمئن إليه قلوبهم .

وقال : ﴿ **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذَ مَايُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ** ﴾[٢٥] يعنى : دعاءه .

وقال « الأعشى » يذكر الخمر والخمَّار :

وقابَلها الرِّيحُ فى دَنِّهَا　　　وَصَلَّى على دَنِّهَا وَارْتَسَمْ

أى : دعا لها بالسلامة من الفساد والتغيّر .

والصلاةُ من الله الرحمة والمغفرة . قال الله تعالى : ﴿ **إنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ** ﴾[٢٦] . وقال : ﴿ **هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ** ﴾[٢٧] . وقال : ﴿ **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ** ﴾[٢٨] أى : مغفرة .

الكتـــــاب :

أصل الكتاب : ما كَتَبَهُ اللهُ فى اللَّوح مما هو كائن .

ثم تتفرع منه معانٍ ترجع إلى هذا الأصل . كقوله : ﴿ **كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلى** ﴾[٢٩] أى : قضى الله ذلك وفرغ منه .

---

(٢٣) سورة الحجر / ٧٩ .

(٢٤) سورة التوبة / ١٠٣ .

(٢٥) سورة التوبة / ٩٩ . وقد كتبت هكذا فى الأصل وهو خطأ وصحتها « ومِنَ الأعْراب من يُؤْمِن بالله واليوم الآخر ويتخذُ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول » .

(٢٦) سورة الأحزاب / ٥٦ .

(٢٧) سورة الأحزاب / ٤٣ .

(٢٨) سورة البقرة / ١٥٧ .

(٢٩) سورة المجادلة / ٢١ .

وقوله : ﴿ **لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا** ﴾[30] أى : ما قضى الله لنا .

وقوله : ﴿ **لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** ﴾[31] أى : قُضِىَ ؛ لأنَّ هذا قد فُرِغَ منه حين كُتبَ .

ويكونُ كُتِبَ بمعنى فُرِضَ ، كقوله : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ** ﴾[32] أى : فرض . و ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ** ﴾[33] ، ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ** ﴾[34] . أى : فَرَضْتَ . ويكون كَتَبَ بمعنى جَعَل ، كقوله : ﴿ **كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ** ﴾[35] . وقوله : ﴿ **فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾[36] . وقال : ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾[37] .

وتكون كَتَبَ بمعنى أَمَر ، كقوله : ﴿ **ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ** ﴾[38] ، أى : أمركم أن تدخلوها .

ويقال : كتب ههنا أيضًا : جَعَل . يريد ادخلوا الأرض التى كتبها الله لولد إبراهيم ، عليه السلام ، أى : جعلها لهم .

السّبب والحبل :

السّبب أصله : الحبل .

ثم قيل لكل شيء وصَلْتَ به إلى موضع ، أو حاجة تريدها : سبَبٌ . تقول : فلان سَبَبِى إليك ، أى وصلنى إليك . و : ما بينى وبينك سبب ، أى آصِرَة رَحِم ،

---

(٣٠) سورة التوبة / ٥١ .
(٣١) سورة آل عمران / ١٥٤ .
(٣٢) سورة البقرة / ١٧٨ .
(٣٣) سورة البقرة / ١٨٠ .
(٣٤) سورة النساء / ٧٧ .
(٣٥) سورة المجادلة / ٢٢ .
(٣٦) سورة آل عمران / ٥٣ . وسورة المائدة : ٨٣ .
(٣٧) سورة الأعراف / ١٥٦ .
(٣٨) سورة المائدة / ٢١ .

أو عاطفة مَوَدَّةٍ . ومنه قيل للطريق : سَبَبٌ ؛ لأنّك بسلوكه تصل إلى الموضع الذى تريده ، قال عز وجل : ﴿ **فَأَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾[٣٩] أى : طريقًا .

وأسباب السماء : أبوابها ؛ لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها . قال الله عز وجل ـ حكاية عن فرعون : ﴿ **لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ** ﴾[٤٠] . وقال « زهير » :

ومَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ ... ولَوْ نَالَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

* * *

وكذلك الحَبْلُ ، قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ** ﴾[٤١] أى : بعهد الله أو بكتابه ، يريد : تمسكوا به ؛ لأنه وُصْلَةٌ لكم إليه وإلى جَنّته .

ويقال للأمان أيضا : حبل ؛ لأنّ الخائف مستتر مَقْمُوعٌ ، والآمن مُنْبَسِطٌ بالأمان مُتَصَرِّف ، فهو له حبل إلى كل موضوع يريده .

قال الله تعالى : ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ** ﴾[٤٢] أى : بأمان .

وقال « الأعشى » :

وَإِذَا تُجَوِّزُها حِبَالُ قَبِيلَةٍ
أَخَذَتْ مِنَ الأُخْرَى إِلَيْكَ حِبَالَها[٤٣]

وأما قول « امرىء القيس » :

إِنِّى بِحَبْلِكِ وَاصِلٌ حَبْلِى
وَبِرِيشِ نَبْلِكِ رَائِشٌ نَبْلِى[٤٤]

---

(٣٩) سورة الكهف / ٨٥ .

(٤٠) سورة غافر / ٣٦ ، ٣٧ .

(٤١) سورة آل عمران / ١٠٣ .

(٤٢) سورة آل عمران / ١١٢ .

(٤٣) الشاعر هنا يتحدث عن ناقته مخاطبا ممدوحه ، فيقول إذا جاوزت أرض قبيلة بما أخذت من عهدها . أخذت عهود قبيلة أخرى حتى أجوز أرضها فى أمان إليك .

(٤٤) فى اللسان : « ريش » : « راش السهم ريشا : ركب عليه الريش » .

فإنه يريد : إنِّى وَاصِلٌ بينى وبينك .

وأصل هذا يكون فى البعيرين : يكونان مُفْتَرِقَين وعلى كل واحد منهما حَبْلٌ ، فَيُقْرَنانِ بأَنْ يوصَل حبل هذا بحبل هذا .

وقال « أبو زُبَيْد » يذكر رجلا سرى ليلةً كلها :

نَـاطَ أمْـرَ الضِّعَـافِ فاجْتَعَـل
اللَّيْلَ كَحَبْلِ العَادِيَّـةِ المَمْـدُودِ[٤٥]

يريد : أن مسيره اتصل الليل كلّه ، فكان كحبل ممدود .

البــــلاء :

أصل البلاء : الاختبار ، قال الله جل وعلا : ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا** ﴾[٤٦] ، أى : اختبروهم .

وقال : ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ** ﴾[٤٧] ، يعنى : ما أُمِرَ به إبراهيمُ من ذبح ابنه ، صلوات الله عليهما .

وقال : ﴿ **وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** ﴾[٤٨] ، أى اختبرناهم .

ثم يقال للخير : بلاء ، وللشر : بلاء ؛ لأنّ الاختبار الذى هو بلاء وابتلاء يكون بهما . قال الله تعالى : ﴿ **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾[٤٩] ، أى نختبركم بالشر ؛ لنعلم كيف صبركم ؟ وبالخير ؛ لنعلم كيف شكركم ؟

« فتنة » أى اختبارًا . ومنه يقال : اللهم لا تَبْلُنَا إلا بالتى هى أحسن . أى لا تختبرنا إلا بالخير ، ولا تختبرنا بالشر .

---

(٤٥) ناط الشىءَ : عَلّقه . والعادية : الخيل المغيرة ، ولعله يقصد « الإبل العادية » أى الإبل المقيمة فى العضاة لا تفارقها وليست ترعى الحمض . (اللسان : ناط ، عدا) .

(٤٦) سورة النساء / ٦ .

(٤٧) سورة الصافات / ١٠٦ .

(٤٨) سورة الأعراف / ١٦٨ .

(٤٩) سورة الأنبياء / ٣٥ .

يقال من الاختبار : بَلَوْتُه أَبْلُوهُ بَلْوًا ، والاسم بَلاءٌ . ومن الخير : أَبْلَيْتُه أبليه إبْلاءً . ومنه يقال : يُبْلِى وَيُولِى . قال « زهير » :

* فَأَبْلاهُمَا خَيْرَ البلاءِ الذى يَبْلُو *

أى : خير البلاء الذى يختبر به عباده .

ومن الشر : بَلاه الله يَبْلُوه بَلاءً . قال الله عز وجل : ﴿ **وفِى ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾[٥٠] ، أى : نعمة عظيمة . ﴿ **وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَافِيهِ بَلاَءٌ مُبِينٌ** ﴾[٥١] ، أى : نِعَم بَيِّنة عظام .

الفتنـــــة :

الفتنة : الاختبار ، يقال : فَتَنْتُ الذهبَ فى النّار : إذا أدخلتُهُ إليها لتعلم جودتَه من رداءَتِه . وقال تعالى : ﴿ **وَلقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾[٥٢] . أى : اختبرناهم . وقال لموسى عليه السلام : ﴿ **وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** ﴾[٥٣] . ومنه قوله : ﴿ **ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** ﴾[٥٤] أى : جوابُهم ؛ لأنهم حين سئلوا اختُبر ما عندهم بالسؤال ، فلم يكن الجواب عن ذلك الاختبار إلا هذا القول .

والفتنة : التعذيب . قال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِين وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾[٥٥] أى عذّبوهم بالنار .

وقال عز وجل : ﴿ **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ** ﴾[٥٦] أى يُعَذَّبون . ﴿ **ذُوقُوا**

---

(٥٠) سورة البقرة / ٤٩ . والآية هى : « وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آل فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » . وقوله تعالى : « ذلكم » إشارة إلى الذبح ونحوه . والبلاء على هذا مستعمل فى الشر . وقيل . إن الاشارة بذلكم للتنجية . فيكون البلاء ــ على هذا ــ مستعملا فى الخير .

(٥١) سورة الدخان / ٣٣ .

(٥٢) سورة العنكبوت / ٣ .

(٥٣) سورة طه / ٤٠ .

(٥٤) سورة الأنعام / ٢٣ .

(٥٥) سورة البروج / ١٠ .

(٥٦) سورة الذاريات / ١٣ .

فِتْنَتَكُمْ ﴾[٥٧] أى يقال لهم : ذوقوا فِتْنَتَكم ، يراد هذا العذاب بذاك .

وقال عز وجل : ﴿ **فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ** ﴾[٥٨] أى : جعل عذاب الناس وأذاهم كعذاب الله .

والفتنة : الصدّ والاستزْلال . قال الله عز وجل : ﴿ **وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ** ﴾[٥٩] ، أى : يَصُدُّوكَ وَيَسْتَزِلُوكَ . وقال الله تعالى : ﴿ **وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** ﴾[٦٠] ، وقال :﴿ **مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ** ﴾[٦١] . أى صادين .

والفتنة : الإشراك والكفر والإثم ، كقوله : ﴿ **وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾[٦٢] ، أى : شرك .

وقال : ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾[٦٣] يعنى الشرك .

وقال : ﴿ **أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** ﴾[٦٤] أى: فى الإثم .

وقال : ﴿ **فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ** ﴾[٦٥] ، أى : كفر وإثم .

وقال : ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ** ﴾[٦٦] أى : كفرتم وآثَمْتموها .

والفتنة : العِبْرَةُ ، كقوله : ﴿ **رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[٦٧] وفى موضع آخر : ﴿ **لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾[٦٨] أى : يَعْتَبِرُونَ أمرهم بأمرنا ؛

---

(٥٧) سورة الذاريات / ١٤ .

(٥٨) سورة العنكبوت / ١٠ .

(٥٩) سورة المائدة / ٤٩ .

(٦٠) سورة الإسراء / ٧٣ .

(٦١) سورة الصافات / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٦٢) سورة البقرة / ١٩٣ ، الأنفال : ٤٩ .

(٦٣) سورة البقرة / ١٩١ .

(٦٤) سورة التوبة / ٤٩ .

(٦٥) سورة النور / ٦٣ .

(٦٦) سورة الحديد / ١٤ .

(٦٧) سورة يونس / ٨٥ .

(٦٨) سورة الممتحنة / ٥ .

فإذا رأونا فى ضُرّ وبلاء ورأوا أنفسهم فى غبطة ورخاءٍ ــ ظَنُّوا أنهم على حق ، ونحن على باطل .

وكذلك قوله : ﴿ **فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** ﴾(٦٩) .

الإســــــلام :

الإسلام : هو الدخول فى السِّلْم ، أى : فى الانقياد والمتابعة . قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا** ﴾(٧٠) أى : انقاد لكم وتابعكم .

والاستسلام مثله . يقال : سلَّمَ فلانٌ لأمْرِكَ واستسلم وأَسْلَم . أى دخل فى السِّلم . كما تقول : أَشْتَى الرجلُ : إذا دخل فى الشتاء ، وأربع : دخل فى الربيع ، وأقْحَطَ : دخل فى القحط .

فمن الإسلام متابعةٌ وانقيادٌ باللِّسان دون القلب . ومنه قوله تعالى : ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾(٧١) أى : انقدنا من خوف السيف .

وكذلك قوله : ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾(٧٢) ، أى : انقاد له وأقرَّ به المؤمن والكافر .

ومن الإسلام : مُتَابَعَةٌ وانقيادٌ باللسان والقلب ، ومنه قوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ **قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾(٧٣) . وقوله : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾(٧٤) ، أى : انقدت لله بلسانى وعَقْدِى .

---

(٦٩) سورة الأنعام / ٥٣ .
(٧٠) سورة النساء / ٩٤ .
(٧١) سورة الحجرات / ١٤ .
(٧٢) سورة آل عمران / ٨٣ .
(٧٣) سورة البقرة / ١٣١ .
(٧٤) سورة آل عمران / ٢٠ .

والوجه زيادة . كما قال : ﴿ **كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾[٧٥] ، يُريد : إلا هو . وقوله : ﴿ **إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ** ﴾[٧٦] ، أى لله . قال « زَيْد بن عَمْرو بن نُفَيْل »[٧٧] فى الجاهلية :

أَسْلَمْتُ وَجهى لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالاَ[٧٨]

أى : انقادت له المُزْن .

الإيمــــان :

الإيمان : هو التصديق ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا** ﴾ أى : بمصدّق لنا ﴿ **وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** ﴾[٧٩] . وقال : ﴿ **ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا** ﴾[٨٠] ، أى : تصدِّقوا . والعبد مؤمن بالله ، أى مصدِّق . واللهُ مؤمن : مصدِّقٌ ما وعَدَه ، أو قابلٌ إيمانه . ويقال فى الكلام : ما أُومِنُ بشىءٍ مما تقُول . أى ما أصدِّق به .

فمن الإيمان : تصْديق باللسان دون القلب ، كإيمان المنافقين . يقول الله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا** ﴾[٨١] ، أى آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم . كما كان من الإسلام انقياد باللسان دون القلب .

ومن الإيمان : تصديق باللسان والقلب . يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴾[٨٢] ، كما كان من الإسلام انقياد باللسان والقلب .

---

(٧٥) سورة القصص / ٨٨ .

(٧٦) سورة الإنسان / ٩ .

(٧٧) أبو سعيد بن زيد كان ممن رغب عن عبادة الأوثان ــ فى الجاهلية . كما اعتزل الميتة والذبائح التى تذبح على الأوثان . وقد أباح النبى ﷺ الاستغفار له وقال : « إنه يُبعثُ أمةً وَحده » راجع المعارف : ص ٥٩ ، والسيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٧٨) المزن : السحاب عامة ، وقيل : السحاب ذو الماء واحدته مزنة (اللسان : مزن) .

(٧٩) سورة يوسف / ١٧ .

(٨٠) سورة غافر / ١٢ .

(٨١) سورة المنافقون / ٣ .

(٨٢) سورة البينة / ٧ .

ومن الإيمان : تصديق ببعض وتكذيب ببعض . قال الله تعالى : ﴿ **وما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُون** ﴾[٨٣] ، يعنى مشركى العرب ، إن سألتهم مَنْ خَلَقَهم ؟ قالوا : الله ، وهم مع ذلك يجعلون له شركاء . وأهل الكتاب يؤمنون ببعض الرُّسل والكتب ، ويكفرون ببعض . قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** ﴾[٨٤] ، يعنى : ببعض الرسل والكتب ، إذ لم يؤمنوا بهم كلِّهم .

* * *

● وأما قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ** ﴾ ثم قال : ﴿ **مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾[٨٥] ، فإن هؤلاء القوم آمنوا بألسنتهم . فقال تعالى : ﴿ **مَنْ آمَنَ** ﴾ منهم بقلبه ﴿ **بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ ، كأنه قال : إن المنافقين والذين هَادُوا .

الضـــرّ :

الضَرّ : بفتح الضاد ــ ضد النفع ، قال الله عز وجل : ﴿ **هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** ﴾[٨٦] وقال : ﴿ **قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نفعًا وَلاَ ضرّاً** ﴾[٨٧] أى : لا أملك جَرَّ نفعٍ ولا دفع ضرّ .

والضُّرّ : الشدة والبلاء ، كقوله : ﴿ **إِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ** ﴾[٨٨] ، ﴿ **والصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ** ﴾[٨٩] .

---

(٨٣) سورة يوسف / ١٠٦ .
(٨٤) سورة غافر / ٨٥ .
(٨٥) سورة البقرة / ٦٢ .
(٨٦) سورة الشعراء / ٧٢ ، ٧٣ .
(٨٧) سورة الأعراف / ١٨٨ .
(٨٨) سورة الأنعام / ١٧ .
(٨٩) سورة البقرة / ١٧٧ .

فمن الشدّة : قَحْطُ المطر ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذا أَذَقْنا النَّاسَ رَحْمَةً من بَعْدِ ضَرَّاءَ** ﴾[٩٠] أى : مطرًا من بعد قحط وجَدْبٍ .

ومنه : الهول ، كقوله : ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضرُّ فى الْبَحْرِ** ﴾[٩١] .

ومنه المرض ، كقول « أيوب » عليه السلام : ﴿ **أَنِّى مَسَّنِىَ الضرُّ** ﴾[٩٢] ، ﴿ **فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانا** ﴾[٩٣] .

ومنه النقص ، كقوله تعالى : ﴿ **لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ** ﴾[٩٤] .

الـــــروح :

الرُّوح والرِّيح والرَّوْح : من أصل واحد اكْتَنَفَتْهُ معانٍ تقاربت ، فَبُنِىَ لكلّ معنى اسمٌ من ذلك الأصل ، وخُولِفَ بينها فى حركة البِنْية .

والنَّار والنُّور من أصل واحد ، كما قالوا : المَيْل والمَيَل ، وهما جميعًا من مَالَ . فجعلوا المَيَل ـــ بفتح الياء ـــ فيما كان خِلْقَةً فقالوا : فى عنقه مَيَل ، وفى الشجرة مَيَل . وجعلوا المَيْل ـــ بسكون الياء ـــ فيما كان فِعْلاً فقالوا : مَالَ عن الحق مَيْلاً ، وفيه مَيْل علىَّ ، أى تحامل .

وقالوا : اللَّسَن واللِّسْن واللَّسْن ، وهذا كله من اللسان ، فاللَّسَن : جودة اللَّسان . واللَّسْنُ : العَذْل واللوم . ويقال : لَسَنْتُ فلانًا لَسْنًا : أى عذلته ، وأخذته بلسانى . واللِّسْنُ : اللّغةُ . يقال : لكلِّ قومٍ لِسن .

وقالوا : حَمْلُ الشجرة ـــ بفتح الحاء ـــ وحَمْل المرأة ـــ بفتح الحاء ـــ وقالوا : لِما كان على الظهر : حِمْل ، والأصل واحد .

---

(٩٠) سورة يونس / ٢١ .

(٩١) سورة الإسراء / ٦٧ .

(٩٢) سورة الأنبياء / ٨٣ .

(٩٣) سورة الزمر / ٤٩ .

(٩٤) سورة محمد / ٣٢ .

فى أشباهٍ لهذا كثيرة . وقد ذكرنا منها طرفًا فى صدر الكتاب .

* * *

وأما الرُّوح : فرُوحُ الأجسام الذى يقبضه الله عند الممات .

والرُّوحُ : جبريل عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ** ﴾[٩٥] ، يعنى جبريل . وقال : ﴿ **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾[٩٦] ، أى بجبريل .

والرُّوح ـــ فيما ذكر المفسرون ـــ : مَلَكٌ عظيم من ملائكة الله يقوم وحده فيكون صَفًّا وتقوم الملائكة صفًا ، قال : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا** ﴾[٩٧] ، وقال عز وجل : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾[٩٨] .

ويقال للملائكة : الرُّوحَانِيُّون ؛ لأنهم أرواح ، نُسِبُوا إلى الرُّوحِ ـــ بالألف والنون ـــ ؛ لأنها نِسْبَةُ الخِلْقة[٩٩] ، كما يقال : رَقَبَانِىٌّ وَشَعَرَانِىٌّ .

والرُّوحُ : النَّفْخُ ، سُمِّى رُوحًا ؛ لأنه ريح تخرج عن الرُّوح . قال « ذو الرمة » وذكر نارًا قَدَحَها :

فَلَمَّا بَدَتْ كَفَّنْتُهَا وهى طِفْلَــة ... بطَلْسَاءَ لم تكْمُلْ ذِراعًا ولا شِبْرًا[١٠٠]

وَقُلْتُ له : ارْفَعْهَا إليكَ وَأَحْيِهَا ... بِرُوحِكَ وَاقْتَتْهُ لَهَا قِيْتَــةً قَــدْرًا[١٠١]

---

(٩٥) سورة الشعراء / ١٩٣ .

(٩٦) سورة البقرة / ٢٥٣ .

(٩٧) سورة النبأ / ٣٨ .

(٩٨) سورة الإسراء / ٨٥ .

(٩٩) فى اللسان : « روح » : « والألف والنون من زيادات النسب » . والنحاة يَعُدُّون مثل هذا النسب شاذا لا يقاس عليه » . راجع : شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ج ٢/٣٣٧ .

(١٠٠) الشاعر هنا ـــ يخاطب صاحبه متحدثا عن نارٍ اقتدحها . ويقصد بقوله « وهى طفلة » أى وهى ـــ بَعْدُ ـــ صغيرة . وطلساء : خرقة وسخة ضمنها النار .

(١٠١) وفى اللسان : روح : « وقوله ... فقلت له ارفعها ... البيت ، أى أحيها بنفخك واجعله لها ، والهاء للروح لأنه مذكر فى قوله : واقتته والهاء التى فى (لها) للنار لأنها مؤنثة . ويقال : اقْتَتْ لنارك قِيتَةً أى أطْعِمْها الحطب » والشاعر هنا يأمر صاحبه بالرفق فى النفخ القليل .

وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ الشَّخْتِ وَاسْتَعِنْ   عليها الصَّبَا وَاجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرًا[١٠٢]

قوله : وأحيها بروحك ، أى أحيها بنفخك .

والمسيح : **رُوحُ اللهِ** ؛ لأنه نَفْخَةُ جبريل فى دِرْعِ مريم . ونُسِبَ الرُّوحُ إلى الله ؛ لأنه بأمره كانَ . يقول اللهُ : ﴿ **فَنَفَخنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا** ﴾[١٠٣] ، يعنى نَفْخَةَ جبريل .

وقد يجوز أن يكون سُمِّى رُوحَ الله ؛ لأنه بكلمته كان ، قال الله تعالى : كن ، فكان .

وكلامُ الله : رُوحٌ ؛ لأنه حياة من الجهل ومَوْتِ الكُفْرِ ، قال : ﴿ **يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ** ﴾[١٠٤] ، وقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا** ﴾[١٠٥] .

ورحمةُ الله : **رُوحٌ** . قال الله تعالى : ﴿ **وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ** ﴾[١٠٦] ، أى برحمةٍ ، كذلك قال المفسرون .

ومن قرأ : ﴿ **فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ** ﴾[١٠٧] بضم الراء ، أراد فرحمةٌ ورزقٌ .

والريحان : الرزق ، قال « النّمِرُ بن تَوْلَب » :

سَلَامُ الإِله وَرَيْحَانُه   وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءٌ دِرَرْ[١٠٨]

فجمع بين الرزق والرحمة ، كما قال الله تعالى : ﴿ **فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ** ﴾ ، وهذا شاهد لتفسير المفسرين .

قال « أبو عبيدة » ﴿ **فَرُوحٌ** ﴾ ، أراد : حياةً وبقاءً لا موت فيه .

---

(١٠٢) الشخت : الحطب الدقيق . والصبا : ريح .

(١٠٣) سورة الأنبياء / ٩١ .

(١٠٤) سورة غافر / ١٥ .

(١٠٥) سورة الشورى / ٥٢ .

(١٠٦) سورة المجادلة / ٢٢ .

(١٠٧) سورة الواقعة / ٨٩ .

(١٠٨) دِرر : جمع دَرَّة ، والدرَّة فى الأمطار : أن يتبع بعضها بعضاً .

ومن قرأ : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ بالفتح ، أراد : الرّاحة وطيب النّسيم .

وقد تكون الرُّوحُ : الرحمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ﴾(١٠٩) ، أى من رحمته . سَمَّاها رَوْحًا ؛ لأنّ الرَّوْحَ والرَّاحةَ يكونان بها .

الـــزوج :

الزوج : اثنان ، وواحد ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾(١١٠) فجعل كل واحد منهما زوجًا .

وهو بمعنى : **الصِّنف** ، قال : ﴿ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾(١١١) يعنى : الأصناف . وقال : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾(١١٢) أى ثمانية أصناف .

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(١١٣) أى من كل صِنف حسن .

والزَّوج : **القَرِين** ، قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾(١١٤) ، وقال : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾(١١٥) أى قرناءهم .

وقال : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾(١١٦) أى قُرنت نفوس الكفار بعضها ببعض .

ومنه قوله : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾(١١٧) أى قَرَنَّاهم .

---

(١٠٩) سورة يوسف / ٨٧ .

(١١٠) سورة النجم / ٤٤ .

(١١١) سورة يس / ٣٦ .

(١١٢) سورة الأنعام / ١٤٣ .

(١١٣) سورة الشعراء / ٧ .

(١١٤) سورة النساء / ١ .

(١١٥) سورة الصافات / ٢٢ .

(١١٦) سورة التكوير / ٧ .

(١١٧) سورة الدخان / ٥٤ .

والعرب تقول : زَوَّجت إبلي ، إذا قرنت بعضها ببعض .

الـــــرؤية :

الرُّؤية : المعاينة ، كقول الله عز وجل : ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ** ﴾(١١٨) .

وقال : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا** ﴾(١١٩) أى : عاينت .

والرؤية : عِلْم ، كقوله : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا** ﴾(١٢٠) أى : ألم يعلموا .

وقال : ﴿ **وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا** ﴾(١٢١) ، أى أَعْلِمْنَا .

وقال تعالى : ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾(١٢٢) أى : يعلم .

وقال : ﴿ **لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ** ﴾(١٢٣) أى : علمك الله .

وقال « المفسرون » فى قوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ** ﴾(١٢٤) : ألم تُخْبَروا . وكذلك أكثر مافى القرآن .

الحســـــاب .

الحساب : الكثير ، قال الله تعالى : ﴿ **جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا** ﴾(١٢٥) ، أى كثيرًا .

---

(١١٨) سورة الزمر / ٦٠ .
(١١٩) سورة الإنسان / ٢٠ .
(١٢٠) سورة الأنبياء / ٣٠ .
(١٢١) سورة البقرة / ١٢٨ .
(١٢٢) سورة سبأ / ٦ .
(١٢٣) سورة النساء / ١٠٥ .
(١٢٤) سورة آل عمران / ٢٣ .
(١٢٥) سورة النبأ / ٣٦ .

ويقال : أَحْسَبْتُ فلانًا . أى أعطيته مايحْسِبُه ، أى يكفيه . ومنه قول « الهذَلى » :

* حِسَابٌ وَرَجْل كالجراد يَسومُ[١٢٦] *

والحساب : **الجزاءُ** ، قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴾[١٢٧] ، أى جزاءهم .

وقال تعالى : ﴿ **إنْ حِسَابُهُمْ إلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُون** ﴾[١٢٨] ؛ لأن الجزاء يكون بالحساب .

والحساب : **المحاسبة** ، قال الله تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾[١٢٩] .

---

(١٢٦) الرجْل : من لم يكن له ظهر فى سفر يركبه . والسَوْم : الرَّعى ، أو سرعة المر .
(١٢٧) سورة الغاشية / ٢٦ .
(١٢٨) سورة الشعراء / ١١٣ .
(١٢٩) سورة الانشاق / ٨ .

باب تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال التى لا تتصرف

تحدث ابن قتيبة فى هذا الباب عن بعض الحروف والأدوات التى استعملها القرآن الكريم فى دلالات متعددة تتفق وما عليه لغة العرب .

وابن قتيبة لا يعنى — فى هذا المجال — إلا بالدلالات المعجمية للأدوات فلم يبد اهتماما واضحا بشرح المعانى الوظيفية التى تقوم بها هذه الأدوات داخل التركيب اللغوى . فهو — مثلاً — يتحدث عن « كاد » فيقول : « كاد بمعنى هَمَّ ولم يفعل . ولا يقال يكاد أن يفعل وإنما يقال كاد يفعل ... » ثم يقول : « ولم يأت منها إلا فعل يفعل وتثنيتها وجمعها »[1] .

ومن الواضح أنه توقف فى — تناوله « لكاد » — عند الحديث عن دلالتها المعجمية (فكاد من أفعال المقاربة) ولكنه لم يُشر إلى أن « لكاد » ما لكان فى العمل داخل التركيب أو الجملة . كما يقدم ابن قتيبة — فى هذا الباب — بعضاً من ملامح المذهب البغدادى الذى يقوم على المزاوجة بين المذهبين الكوفى والبصرى ، حيث كان ابن قتيبة أحد علمائه ورجاله ، فهو حينما يتحدث عن معنى « **وَيْكأن** » يشير إلى رأى الكسائى وهو كوفى ، كما يشير إلى رأى الخليل وهو بصرى ، وهو يذكر لهذا وذاك دليله الذى يعضده ويستند إليه — لكن ابن قتيبة لا يتعصب لمذهبه كما نرى عند بعض علماء التراث ، وإنما يتخير من الآراء ما يراه

---

(١) تأويل مُشْكل القرآن ، ص ٥٣٤ .

أقرب إلى الصحة والقبول ؛ ولذا فإنه يرفض الأخذ برأى بعض البغداديين فى مثل قوله تعالى : ﴿ **وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ** ﴾ حول أصل « لات » حيث ذهبوا إلى أنها مكونة من (لا) النافية والتاء الزائدة فى أول كلمة الحين ، لكن ابن قتيبة يرد هذا الرأى بقوله : « وجر العرب بها يفسد هذا المذهب لأنهم إذا جروا ما بعدها جعلوها كالمضاف للزيادة وإنما هى « لا » زيدت عليها « الهاء » كما قالوا « ثمَّ » و « ثمَّة » »[٢] .

ومِمّا عَرَضَ لَه :

سِـــوى وسُـــوى

سوى وسوى : بمعنى غير ، وهما جميعًا فى معنى بدل . وهى مقصورة .

وقد جاءت ممدودة مفتوحة الأول ، وهى فى معنى غير .

قال « ذُو الرُّمَّة » :

وَمَا تَجَافَى الغَيْثُ عنهُ فما بِــهِ
سَوَاء الحَمَامِ الحُضَّن الخُضْرِ حَاضِرُ[٣]

يريد غيرَ الحَمَام .

وسَوَاء ــ مفتوحة الأول ممدودة ــ بمعنى : وسط . قال : ﴿ **فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ** ﴾[٤] ، أى فى وسطه .

وقد جاءت أيضًا بمعنى : وسط ، مكسورة الأوّل مقصورةً ، قال الله تعالى : ﴿ **مَكَانًا سِوًى** ﴾[٥] ، أى وَسَطا .

---

(٢) السابق ، ص ٥٢٩ .

(٣) الحَمام : جمع حَمامة ، والحُضّن : جمع حاضنة . والخُضْر : جمع أخضر . وهو هنا يصف ماءً ومفازة بعيدة عن الريف . وقيل : أراد ماء بئر لا ماء مطر (شرحٌ نقلناه عن الأصل) .

(٤) سورة الصافات / ٥٥ .

(٥) سورة طه / ٥٨ .

أنّى :

أنّى : يكون بمعنيين . يكون بمعنى : كيف ، نحو قول الله تعالى : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ ﴾[٦] أى كيف يحييها ؟ وقوله : **﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُم ﴾**[٧] أى كيف شئتم .

ويكون بمعنى : **من أين** ، نحو قوله : **﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾**[٨] وقوله : **﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾**[٩] .

والمَعْنَيَان متقاربان ، يجوز أن يتأوَل فى كل واحد منهما الآخر .

وقال « الكُمَيْت » :

أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ ؟ مِنْ حَيْثُ لاَ صَبْوَةٌ وَلاَ رِيَبُ[١٠]

فجاء بالمعنيين جميعا .

ويكأن :

وَيْكَأَنَّ : قد اختُلف فيها : فقال الكسائى : معناها : ألم تر ، قال الله تعالى : **﴿ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء ﴾**[١١] وقال : **﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾** ، يريد : ألم تر .

وروى عبد الرّزاق ؛ عن معمر ، عن « قتادة » أنه قال : وَيْكَأَنَّ : أولا يَعلمُ أن الله يبسط الرزق لمن يشاءُ . وهذا شاهد لقول الكسائى .

وذكر الخليل أنها مفصولة : وى ، ثم تبتدىء فتقول : كأنّ الله .

---

(٦) سورة البقرة / ٢٥٩ .

(٧) سورة البقرة / ٢٢٣ .

(٨) سورة التوبة / ٣٠ .

(٩) سورة الأنعام / ١٠١ .

(١٠) آبَ إلى الشىء : رجع . الطَّرَب : خفة تعترى عند شدةِ الفرح والحزن والهم . والصبوة : الشوق .

(١١) سورة القصص / ٨٢ .

وقال « ابن عباس » فى رواية أبى صالح : هي : كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، كأنه لا يفلح الكافرون . وقال : وَىْ صلةٌ فى الكلام[١٢] .

وهذا شاهد لقول الخليل .

* * *

ومما يدل على أنها كأنَّ : أنها قد تخفف أيضًا كما تخفَّف كأن قال « الشاعر » :

وَيْكَأَنَّ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحـ ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِر يَعِش عَيْشَ ضُرِّ[١٣]

وقال « بعضهم » : ويكأن : أى رحمةً لك ، بلغة حِمْيَر[١٤] .

« ما » و « مَن »

ما ومن ، أصلهما واحدٌ ، فَجعلت « من » للناس ، و« ما » لغير الناس . تقول :

مَنْ مرَّ من القوم ؟ وما مرَّ بك من الإبل ؟

وقال « أبو عبيدة » فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى** ﴾[١٥] : أى ومَنْ خلقَ الذَّكَر والأُنثى . وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّماءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** ﴾[١٦] : هى عنده فى هذه المواضع بمعنى « مَنْ » .

وقال « أبو عمْرو » : هى بمعنى « الذى » . قال : وأهل مكة يقولون إذا سَمِعُوا صَوْتَ الرعد : سبحان ما سبَّحْتَ له .

---

(١٢) فى الكشاف ، ج ٣ ، ص ١٨٠ : وَىْ مفصولة عن « كأن » وهى كلمة تنبه على الخطأ وتَنَدُّم ومَعناه أن القوم قد تنبهوا على خطئهم فى تَمنِّيهم وقولهم : « **يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون** » وتندموا ثم قالوا : « **وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** » .

(١٣) النَّشَب : المال الأصيل من الناطق والصامت . والشاعر يريد أن يقول : إن ذا المال يكون قريبا إلى قلوب الناس محبوبا لديهم . أما الفقير المُعْدِم فالناسُ ينصرفون عنه ويسوء حاله .

(١٤) حِمْير : قبيلة باليمن ، لهم ألفاظ ولغات تخالف لغات سائر العرب .

(١٥) سورة الليل / ٣ .

(١٦) سورة الشمس / ٥ ــ ٧ .

وقال « الفَرَّاء » : هو : وخَلْقِه الذَّكَرَ والأنثى ، وذكر أنها فى قراءة « عبد الله » ﴿ والذَّكَرَ وَالْأُنثى ﴾[17] .

بـــل

بل : تأتى لتَدَارُكِ كلامٍ غلطتَ فيه ، تقول : رأيتُ زيدًا بل عمْرًا .

● ويكون لترك شيء من الكلام وأخذٍ فى غيره . وهى فى القرآن بهذا المعنى . قال الله تعالى : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴾ ثم قال : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾[18] فترك الكلام الأول وأخَذَ بِبَلْ فى كلام ثان . ثم قال حكاية عن المشركين : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى ﴾ فترك الكلام وأخَذَ ببل فى كلام آخر فقال : ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾[19] فى أشباهٍ لهذا كثيرة فى القرآن .

قال « الشاعر » :

بَلْ هَلْ أُرِيكَ حُمُولَ الحَىِّ غادِيَةً   كالنَّخلِ زَيَّنَهَا يَنْعٌ وَإِفْضَاحُ[20]

وقال « آخر » :

* بل مَنْ يَرى البَرْقَ يَشْرى بِتُّ أَرْقُبُهُ[21] *

وإذا ولِيَتْ اسمًا ــ وهى بهذا المعنى ــ : خُفِضَ بها ، وشُبِّهت بِرُبَّ وبالواو .

---

(١٧) فى الكشاف ج ٤ ص ٢١٧ : « وعن الكسائى ــ وما خلق الذكرِ والأنثى ؛ بالجر على أنه بدل من محل « ما خلق » بمعنى وما خلقه الله أى ومخلوق الله الذكر والأنثى وجاز إضمار اسم الله ، لأنه معلوم لانفراده بالخلق إذ لا خالق سواه » .

ويعلق أبو حيان فى البحر المحيط (ج ٨ ، ص ٤٨٣) على قراءة « الذكر والأنثى » فيقول : والثابت فى مصاحف الأمصار والمتواتر « وما خلق الذكر والأنثى » وما ثبت فى الحديث من قراءة « والذكر والأنثى » : نقل آحاد مخالف للسواد فلا يُعَدُّ قُرآنًا » .

(١٨) سورة ص / ١ ، ٢ .

(١٩) سورة ص / ٨ .

(٢٠) الينع : النضج . الإفضاح : مصدر أفضح النخل : أحمر وأصفر ، والشاعر هنا يشبه الإبل وما عليها من الزينة بالصفرة والحمرة بالنخيل الحامل .

(٢١) شرى البرق ، بالكسر : استطار وتفرق فى وجه الغيم .

● وتأتى مبتدأةً ، قال « أبو النَّجْم » :

* بل مَنْهَلٍ نَاءٍ مِنَ الغِياضِ[٢٢] *

● وكذلك « الواو » إذا أتت مُبْتَدَأَة غير نَاسِقَةٍ للكلام على كلام ــ كانت بمعنى رُبَّ .

وهى كذلك فى الشعر ، كقوله :

* وَمَهْمَةٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُه *

وقال « آخر » :

* وَدَوِّيَّةٍ قَفْرٍ تمشّى نَعَامُهَا[٢٣] *

وقال « آخر » :

* وهاجِرَةٍ نَصَبْتُ لها جَبِينى[٢٤] *

يَدلُّون بهذه الواو الخافضةِ : على ترك الكلام الأول ، وائْتِنَافِ كلام آخر .

لوْلا ولوْ ما

لولا : تكون فى بعض الأحوال **بمعنى** : **هَلاَّ** وذلك إذا رأَيْتَها بغير جواب ، تقول : لولا فعلت كذا ، تريد هلاّ فعلت كذا . قال الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾[٢٥] ، ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ** ﴾[٢٦] ، ﴿ **فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا** ﴾[٢٧] ، ﴿ **فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ** ﴾[٢٨] ،

---

(٢٢) المنهل : الموضع الذى فيه الشرب . والغياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف . ويكون تقدير الكلام : بل رُبَّ منهلٍ ، بجر المنهل بِرُبَّ المقدرة وتكون بل حرف ابتداء لا عاطفة . وقيل إنها هى التى تجر بنفسها (مغنى اللبيب ج ١ ، ص ١٢٢) .

(٢٣) الدوية : الفلاة المستوية الواسعة . والشاعر هنا قد شبه النعام فى سواد قوائمها وبياض أبدانها برجال بيض قد لبسوا خِفافا سودا . راجع اللسان : دوى .

(٢٤) هاجرة : شدة الحر .

(٢٥) سورة هود / ١١٦ .

(٢٦) سورة التوبة / ١٢٢ .

(٢٧) سورة الأنعام / ٤٣ .

(٢٨) سورة الواقعة / ٨٦ .

أى فهلا . وقال : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَت ﴾[٢٩] .

وقال « الشاعر » :

تَعُدُّونَ عقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ   بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلاَ الكَمِيَّ المُقَنَّعا[٣٠]

أى : فَهلاّ تَعدُون الكَمِيَّ .

* * *

● **وكذلك « لَوْمَا »** ، قال : ﴿ **لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ** ﴾[٣١] ، أى هَلاّ تأتِينا .

فإذا رأيتَ لِلَوْلا جوابًا فليست بهذا المعنى ، كقوله : ﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون** ﴾[٣٢] ، فهذه « لَوْلاَ » التى تكون لأمرٍ لا يقع لوقوع غيره .

● وبعض المفسرين يجعل لَوْلاَ فى قوله : ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَت** ﴾ بمعنى « لَمْ » أى : فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانُها عند نزول العذاب إلاّ قومَ يُونُس[٣٣] .

وكذلك قوله : ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ قَبْلِكُمْ** ﴾ أى فلم يكن .

أو

أو : تأتى للشك ، تقول : رأيت عبد الله أو محمدًا .

● وتكون للتخيير بين شيئين ، كقوله : ﴿ **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ**

---

(٢٩) سورة يونس / ٩٨ .

(٣٠) النِّيب جمع الناب ، أو النيوب ، وهى الناقة المُسِنّة . وبنو ضَوْطَرى : يقال للقوم إذا كانوا لا يَغْنُون غِناء . والكَمِّى : الشجاع المُقَدّم الجرىء والشاعر هنا هو « جرير » يخاطب الفرزدق حين افتخر بعقر أبيه غالب فى معاقرة سحيم بن وثيل الرياحى — مائة ناقة . (راجع اللسان : ضطر) .

(٣١) سورة الحجر / ٧ .

(٣٢) سورة الصافات / ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٣٣) الظّاهِر أن معنى « لولا » هنا للتوبيخ والتنديم ؛ أى فهلا كانت قرية واحِدة من القُرَى المُهْلَكة تابت عن الكفر قبل مجىء العذاب فنفعها ذلك ، وهو تفسير الأخفش والكسائى والفراء ، وغيرهم . ويؤيده قراءة أُبَىّ وعبد الله (فَهلاّ كانت) ويلزم من هذا المعنى النفى ؛ لأن التوبيخ يقتضى عدم الوقوع . (انظر : المغنى لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٧٥) .

مِنْ أَوْسَطِ مَاتُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[٣٤] وقوله : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾[٣٥] أَنتَ فى جميع هذا مُخيَّرٌ أَيَّهُ فعلت أجزأ عنك .

● **وربما كانت بمعنى واو النَّسَق .**

كقوله : ﴿ **فالمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا** ﴾[٣٦] يريد : عُذرًا ونذرا . وقوله : ﴿ **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾[٣٧] وقوله : ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴾[٣٨] ؛ أى لعلهم يتقون ويحدث لهم القرآن ذِكرا .

هذا كلُّه عند المفسرين بمعنى واو النَّسَق .

* * *

● وأما قوله : ﴿ **وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ** ﴾[٣٩] ، فإن بعضهم يذهب إلى أنها بمعنى بل يزيدون ، على مذهب التَّدارك لكلام غلِطتَ فيه وكذلك قوله : ﴿ **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** ﴾[٤٠] وقوله : ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** »[٤١] .

وليس هذا كما تأوَّلوا ، وإنما هى بمعنى « الواو » فى جميع هذه المواضع : وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر وهو أقرب ، و : فكان قاب قوسين وأدنى[٤٢] .

* * *

---

(٣٤) سورة المائدة / ٨٩ .
(٣٥) سورة البقرة / ١٩٦ .
(٣٦) سورة المرسلات / ٥ ، ٦ .
(٣٧) سورة طه / ٤٤ .
(٣٨) سورة طه / ١١٣ .
(٣٩) سورة الصافات / ١٤٧ .
(٤٠) سورة النحل / ٧٧ .
(٤١) سورة النجم / ٩ .
(٤٢) فى اللسان : أو : وقال أبو زيد فى قوله : « أو يزيدون » إنما هى « ويزيدون » وفى الكشاف (٣١٢/٣) : وقرىء « ويزيدون » بالواو .

وقال « ابن أحْمَرَ » :

قَرَى عَنْكُمَا شَهْرَين أو نصفَ ثالثٍ   إلى ذاكُما قدْ غَيَّبَتني غِيَابِيَا[٤٣]

وهذا البيت يوضح لك معنى الواو . وأراد : قَرى شهرين ونصفًا ، ولا يجوز أن يكون أراد قرى شهرين بل نصف شهر ثالث .

وقال « آخر » :

أَثَعْلَبَةَ الفَوارِس أو رِياحا   عَدَلْتَ بِهم طُهَيَّةَ وَالخِشَابَا[٤٤]

(أراد وعدلت هذين بهذين) .

« إن » الخفيفة

إن الخفيفة : تكون بمعنى « ما » ، كقوله تعالى : ﴿ **إِنِ الكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ** ﴾[٤٥] ، و ﴿ **إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً** ﴾[٤٦] ، و ﴿ **إِنْ كُلُّ نفسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴾[٤٧] .

وقال « المفسرون » : وتكون بمعنى لَقَدْ ، كقوله : ﴿ **إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** ﴾[٤٨] و ﴿ **تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾[٤٩] ﴿ وتَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾[٥٠] و ﴿ **فَكَفَى باللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ** ﴾[٥١] .

* * *

(٤٣) قرى الضيف قِرى وقراه : أضافه .

(٤٤) البيت لجرير يخاطب الفرزدق ـــ هاجيا وفاخرا عليه بقومه (ثعلبة ، ورياح) ويسخر منه أن سَوّى بين هؤلاء وبين (طهية والخشاب) وهم رهط الفرزدق .

(٤٥) سورة الملك / ٢٠ .

(٤٦) سورة يس / ٢٩ .

(٤٧) سورة الطارق / ٤ .

(٤٨) سورة الإسراء / ١٠٨ .

(٤٩) سورة الشعراء / ٩٧ .

(٥٠) سورة الصافات / ٥٦ .

(٥١) سورة يونس / ٢٩ .

وقالوا أيضًا : وتكون بمعنى إذ ، كقوله : ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾[٥٢] ، أى إذ كنتم . وقوله : ﴿ **فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾[٥٣] .

وقوله : ﴿ **وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾[٥٤] .

وهى عند أهل اللغة « إن » بعيْنِها ، لا يجعلونها فى هذه المواضع بمعنى « إذْ »[٥٥] . ويذهبون إلى أنه أراد : من كان مؤمنًا لم يَهِنْ ولم يدْعُ إلى السَّلم[٥٦] ، ومن كان مؤمنًا لم يَخْشَ إلا الله ، ومَنْ كان مؤمنًا ترك الرِّبا .

تعـــال

تعال : تفاعل من علَوْت ، قال الله تعالى : ﴿ **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ** ﴾[٥٧] .

ويقال للاثنين من الرجال والنساء : تَعَالَيَا ، وللنساء : تَعَالَيْنَ .

قال « الفراء » : أصلها عَالِ إلَيْنَا ، وهو من العُلُوِّ .

ثم إنْ العرب لكثرة استعمالهم إيَّاها صارت عندهم بمنزلة هَلُمَّ ، حتى استجازُوا أن يقولوا للرجل وهو فوق شَرَفٍ[٥٨] : تَعَالَ ، أى اهبط ، وإنما أصلها : الصعود .

---

(٥٢) سورة آل عمران / ١٣٩ .

(٥٣) سورة التوبة / ١٣ .

(٥٤) سورة البقرة / ٢٧٨ .

(٥٥) إذ : ظرف للزمان الماضى . وأما (إنْ) فهى حرف شرط وتعليق تقتضى فعلين أولهما فعل الشرط والآخر جوابه . وهى توقع الثانى من أجل وقوع الأول) راجع مغنى اللبيب لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٢ ، ٨٠ .

(٥٦) يقول الزمخشرى فى تفسيره لقوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » إلى أن « إن كنتم مؤمنين » إما أن تكون متعلقة بقوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا » بمعنى ولا تهنوا إن صح إيمانكم ؛ لأن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه . وإما أن تكون متعلقة بقوله تعالى : « وأنتم الأعلون » أى إن كنتم صادقين بما يَعِدكم الله ويبشركم به من الغلبة . (الكشاف : ج ١ ، ص ٢١٨) .

(٥٧) سورة آل عمران / ٦١ .

(٥٨) الشرف : المكان العالى .

ولا يجوز أن يُنْهَى بها ، ولكن إذا قَالَ : تعال ، قلت : قد تَعَالَيْتُ وإلى شيءٍ أَتَعَالَى[٥٩] ؟

لدُن

لَدُن : بمعنى عِند ، قال تعالى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْرًا ﴾[٦٠] أى بلغت من عندى .

وقال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾[٦١] أى من عندنا .

وقد تحذف منها النون ، كما تحذف من « لم يكن » قال الشاعر :

* مِنْ لَدُ لَحْيَيْهِ إلى مُنْحُورِهِ[٦٢] *

أى من عند لَحْيَيه .

وفيها لغة أخرى أيضا : لدى ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾[٦٣] أى عند الباب .

---

(٥٩) فى اللسان « علا » : « وقالوا فى النداء : تعالَ أى اعْلُ ، ولا يستعمل فى غير الأمر . والتعالى : الارتفاع . قال الأزهرى : تقول العرب فى النداء للرجل تعالَ ، بفتح اللام ، وللإثنين تعاليا ، وللرجال تعالَوا ، وللمرأة تعالَى ، وللنساء تعالَين ، ولا يبالون أن يكون المدعو فى مكانٍ أعلى من مكان الداعى أو مكانٍ دونه ، ولا يجوز أن يقال منه تعاليْتُ ولا يُنهى عنه » .

(٦٠) سورة الكهف / ٧٦ .

(٦١) سورة الأنبياء / ١٧ .

(٦٢) لحييه : العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم (اللسان : لحا) . ومنحوره : صدره . (وفى اللسان : نحر) : وصف الشاعر فرسا بطول العنق فجعله يستوعب من حبله مقدار باعين من لحييه إلى نحره .

(٦٣) سورة يوسف / ٢٥ .

باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض[1]

عرض ابن قتيبة فى هذا الباب لمجموعة من حروف الجر ، استعملها القرآن الكريم فى غير معانيها المعروفة وإن لم يخرج على طريقة العربية فى التعبير . فالعربية قد تستعمل « فى » مكان « على » و « عن » وتعنى « الباء » و « إلى » وتقصد « مع » وهذا وغيره هو ما ورد فى القرآن واستعمله .

والذى نود أن نسجله هنا على ما أورده ابن قتيبة أنه لم يُعْن بتوضيح مقاصد القرآن فى استعماله لهذه الحروف على هذا النحو ، بل اكتفى بذكر الآية وتفسير معنى الحرف ، مستشهدًا أحيانا بما ورد عن فصحاء العرب . ولو أبان ابن قتيبة عن المقاصد والأهداف القرآنية من وراء هذه الاستعمالات لكان قد قدم دراسة أسلوبية رائعة للغة القرآن الكريم فهو حين يستخدم « على » مكان « من » فى قوله تعالى : ﴿ **وإِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُون** ﴾ والمراد : يستوفون من الناس . لا يقصد مجرد استعمال حرف مكان آخر ، وإنما يقصد معنى لن يتأتى إلاَّ بهذا التعبير وقد أشار إلى ذلك الزمخشرى فى كشافه حين قال : (لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل « على » مكان « من »)[2] .

---

(١) المقصود بحروف الصفات حروف الجر . وهذه تسمية الكوفيين ؛ لأنهم يرون أنها تنوب عن صفاتها فى مثل : زيد فى الدار . إذْ أصل التعبير — فى تقديرهم — زيد كائن أو مستقرٌ فى الدار . فحذفت الصفة وهى كائن ، أو مستقر وناب عنها الجار والمجرور فقيل : زيد فى الدار .

(٢) الكشاف جـ ٤ ، ص ١٩٤ .

واستعمال القرآن الكريم « فى » مكان « على » فى قوله تعالى : ﴿ **ولأصْلِبَنَّكُمْ فى جذوع النَّخْل** ﴾ إنما المقصود به أن المصلوب سيتمكن من جذوع النخل تمكن المظروف فى ظرفه .. وهذا لن يتأتى لو عبر « بعلى »[٣] .

ومن الحروف التى تناولها :

« الباء » مكان « مِنْ »

تقول العرب : شربت بماء كذا وكذا ، أى من ماء كذا .

قال الله تعالى :﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ** ﴾[٤] و ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ** ﴾[٥] . ويكون بمعنى يشربها عباد الله ويشرب منها .

قال الهُذَلى وذَكَر السَّحائِبَ :

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم ترفَّعتْ
متى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ[٦]

أى شربن من ماء البحر .

وقال عَنْتَرة :

شَرِبَتْ بمَاءِ الدُّحْرُضَيْنِ فَأَصْبَحَتْ
زَوْرَاءَ تَنْفِرُ عَنْ حِياضِ الدَّيْلَمِ[٧]

---

(٣) السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(٤) سورة المطففين / ٢٨ .

(٥) سورة الإنسان / ٦ . وقال أبو حيان فى البحر المحيط ٣٩٥/٨ : « يشرب بها أى يمزج شرابهم بها (بالكأس) أتى بالباء الدالة على الإلصاق ... أو ضَمَّن « يشرب » معنى « يروى » ... وقيل الباء زائدة ... وقرأ ابن أبى عبلة « يشربها » » .

(٦) متى هنا بمعنى « من » ولجج : جمع « لُجة » وهى « معظم الماء » . النئيج : السرعة (راجع اللسان : متى ، لجج ، نأج) .

(٧) الدحرضان : موضعان ، أو هما اسم موضع . زوراء : مائلة نافرة وحياض الديلم : مياه . وهو يريد أن يقول : « شربت هذه الناقة من مياه هذا الموضع فأصبحت مائلة نافرة عن مياه الأعداء (الديلم) » .

« من » مكان « فى »

قال الله تعالى : ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾[8] ، أى فى الأرض .

« من » مكان « على »

قال الله تعالى : ﴿ ونَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾[9] ، أى على القوم .

« عن » مكان « مِن »

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾[10] ، أى من عباده .
وتقول : أخذت هذا عنك ، أى منك .

« مِن » مكان « عن »

تقول : لَهِيتُ من فلان ، أى عنه . و : حدثنى فلان من فلان . أى عنه .

« على » بمعنى « عند »

قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ ﴾[11] ، أى عندى .

« الباء » مكان « اللام »

قال الله تعالى : ﴿ مَاخَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[12] أى للحق .

---

(٨) سورة فاطر / ٤٠ .
(٩) سورة الأنبياء / ٧٧ .
(١٠) سورة الشورى / ٢٥ .
(١١) سورة الشعراء / ١٤ .
(١٢) سورة الدخان / ٣٩.ويروى أبو حيان عن « مقاتل » فى هذه الآية قوله : « ما خلقناهما إلا بالحق » أى بالعدل يجازى المحسن والمسىء بما أراد تعالى من ثواب وعقاب ، ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه تعالى خلق ذلك فهم لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا . (راجع : البحر المحيط ، ج ٨ / ص ٣٩ .

أهم مراجع التقريب :

١ ــ **القرآن الكريم .**

٢ــ **كتب التفسير ، ومن أهمها :**

(أ) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ــ ط. دار الفكر .

(ب) تفسير ابن كثير ــ ط. عيسى الحلبى .

(جـ) تفسير الجامع لأحكام القرآن للامام القرطبى ــ ط. دار الكتب المصرية .

(د) تفسير الطبرى ــ ط. اليمنية بمصر .

(هـ) تفسير الكشاف للزمخشرى ــ الطبعة الأولى .

٣ ــ **كتب التراجم ، وقد أشرنا إليها عند بداية الحديث عن حياة ابن قتيبة .**

٤ ــ **كتب متنوعة :**

(أ) اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر للشيخ أحمد الدمياطى ــ ط. مصطفى الحلبى .

(ب) أثر القرآن فى تطور النقد العربى إلى آخر القرن الرابع الهجرى ــ محمد زغلول سلام ــ الطبعة الثانية .

(جـ) الاتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى ــ ط. الحلبى .

(د) البلاغة العربية . على عشرى زايد ــ ط. الشباب سنة ١٩٨٢ .

(هـ) تاريخ الإسلام ــ د. حسن إبراهيم .

(و) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ــ ط. دار الطباعة المحمدية .

(ز) ضحى الإسلام ــ أحمد أمين .

(ح) المثل السائر لابن أثير ــ تحقيق الحوفى وآخر ــ منشورات دار الرفاعى بالرياض .

(ط) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ــ د. أحمد شلبى ، جـ ٣ .

(ى) مختصر القراءات الشاذة لابن خالويه ــ مكتبة ابن تيمية .

(ك) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى .

٥ ــ **معجمات لغوية وأهمها :**

(أ) لسان العرب لابن منظور . (ب) أساس البلاغة للزمخشرى .

رقم الايداع بدار الكتب

٨٩ / ٥١٧٣

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر